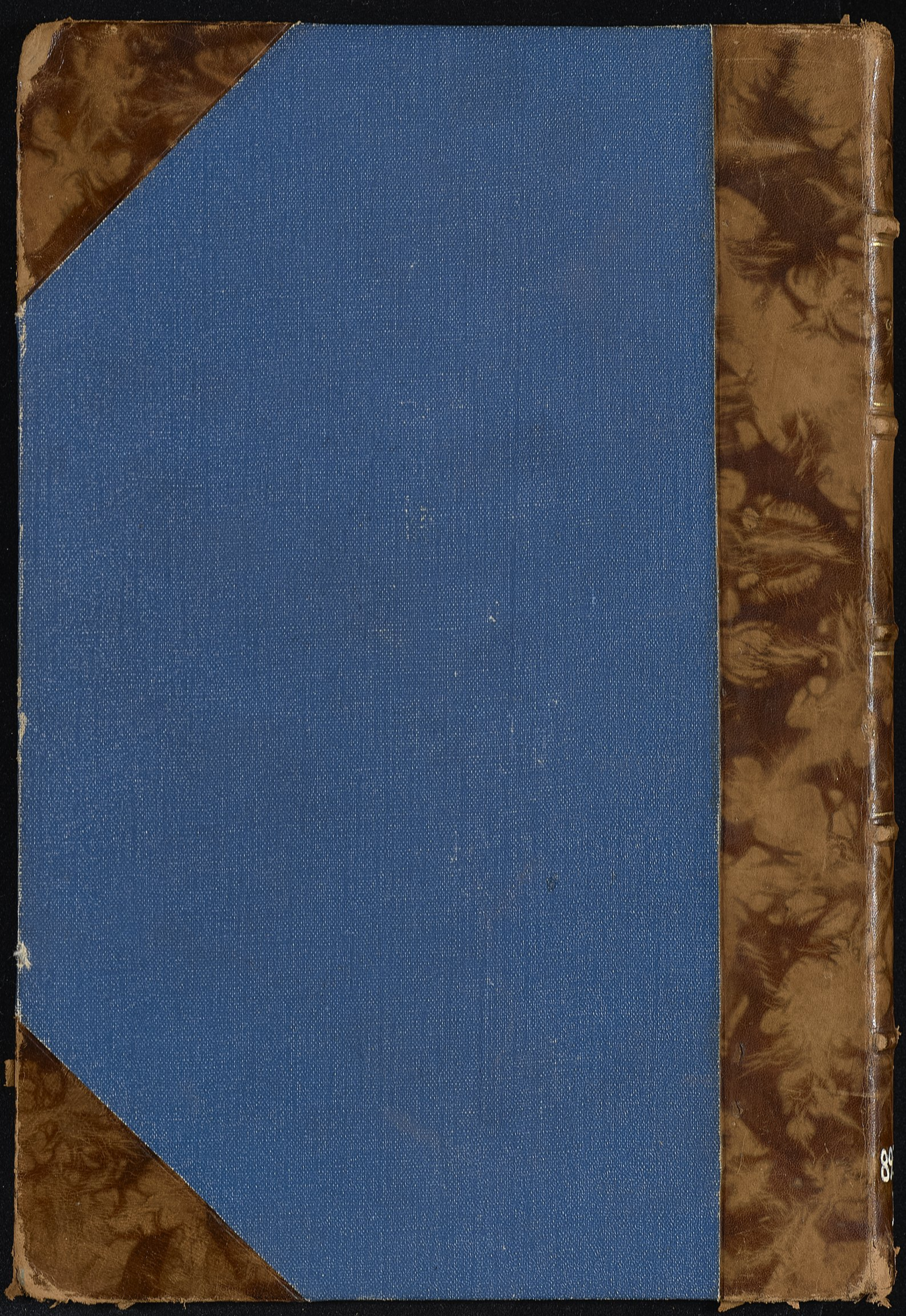
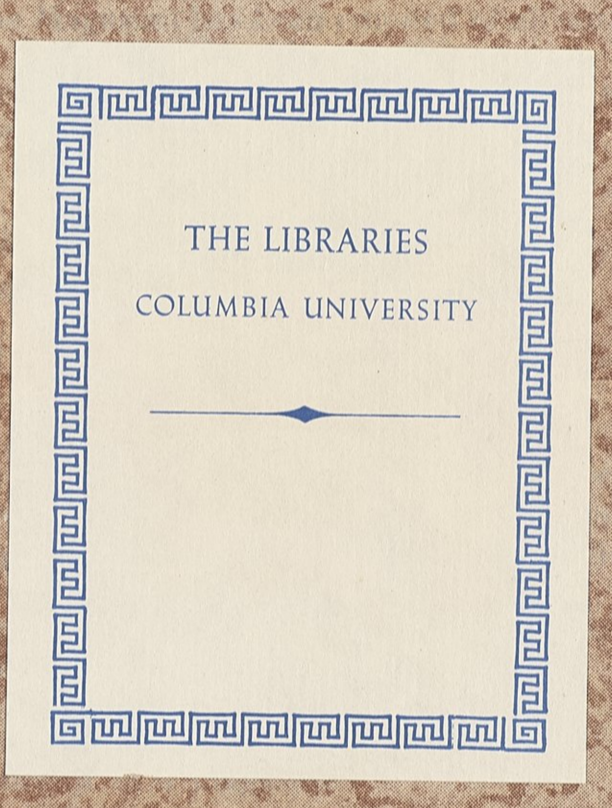
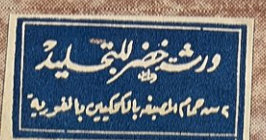
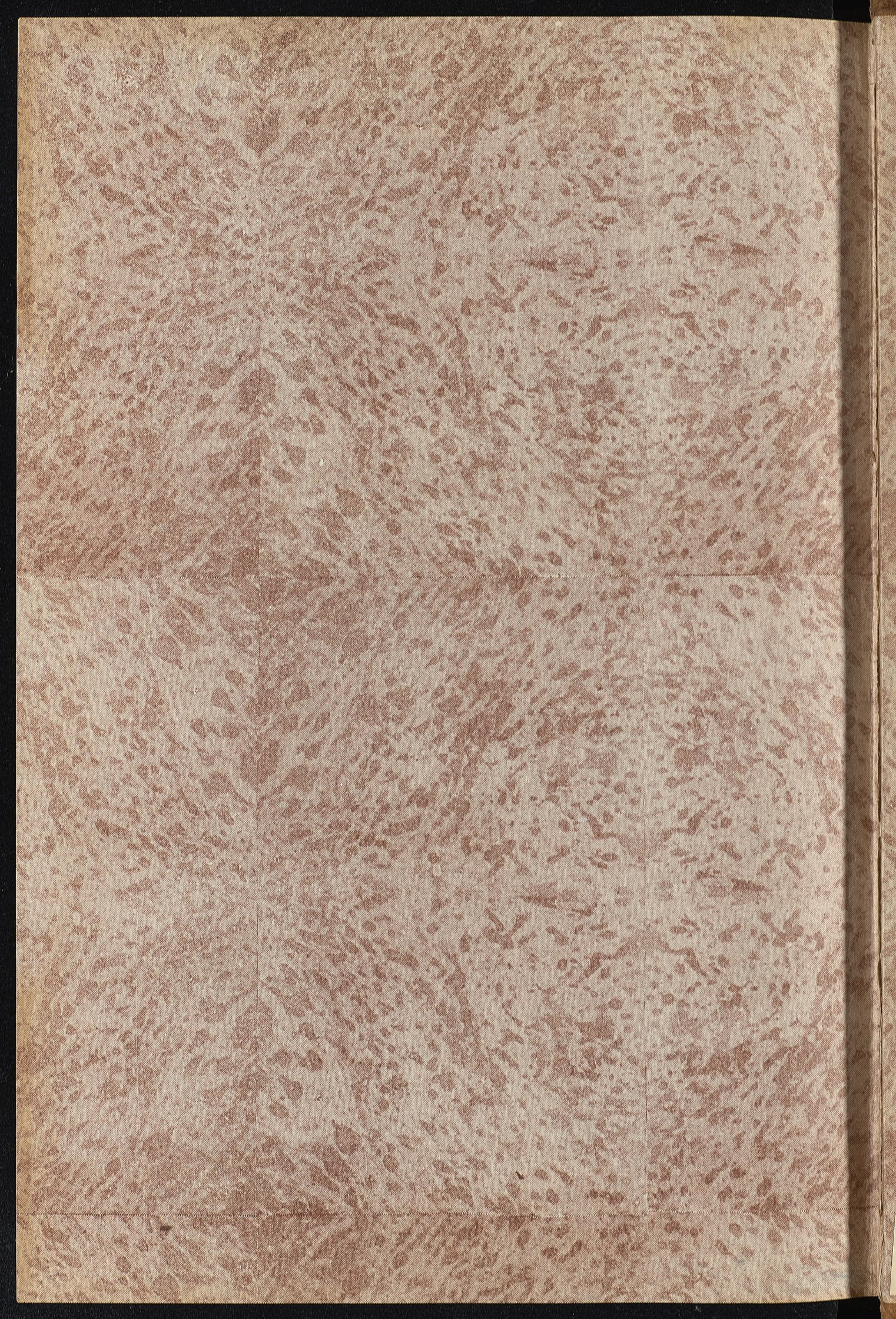
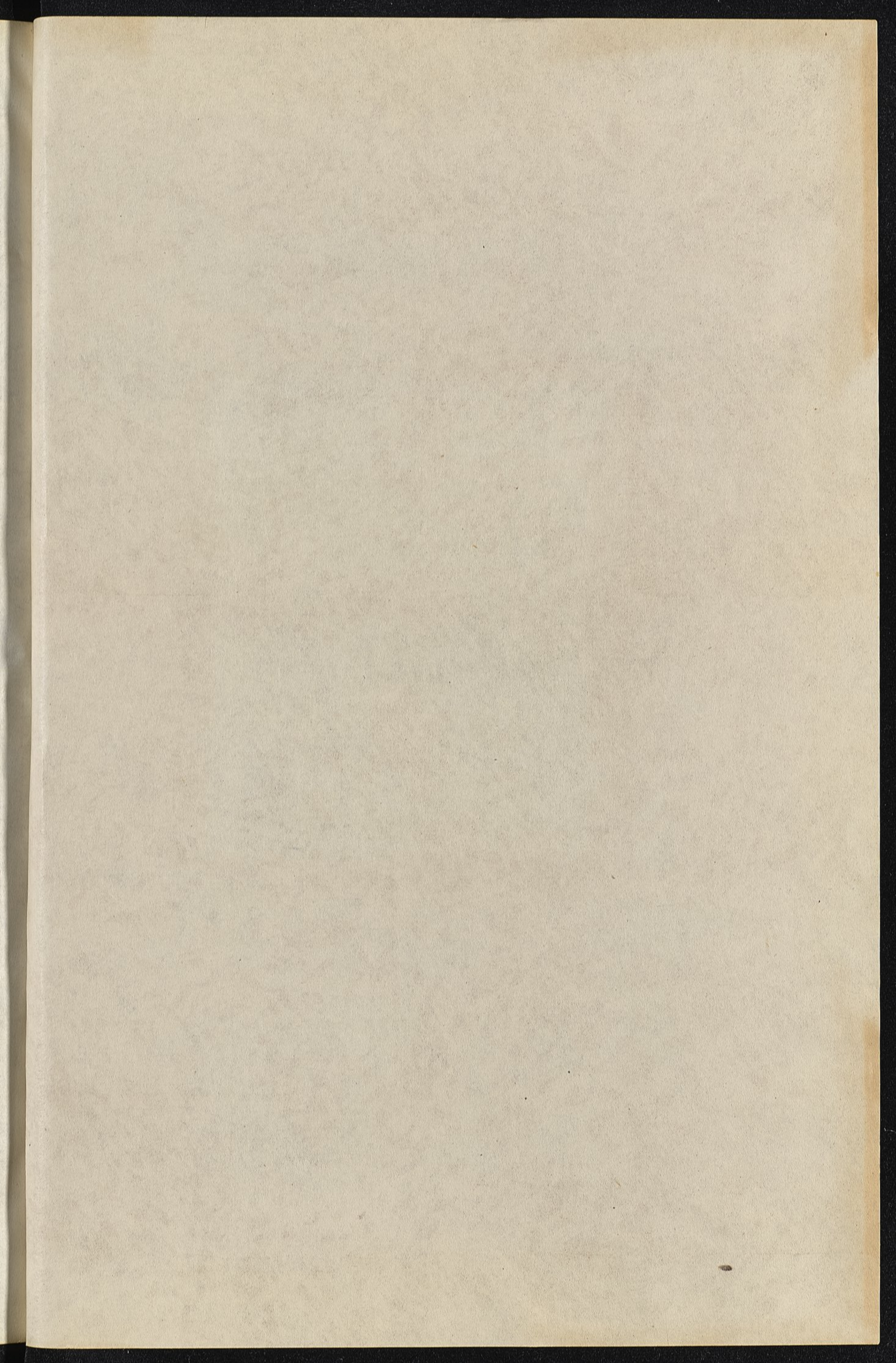










دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

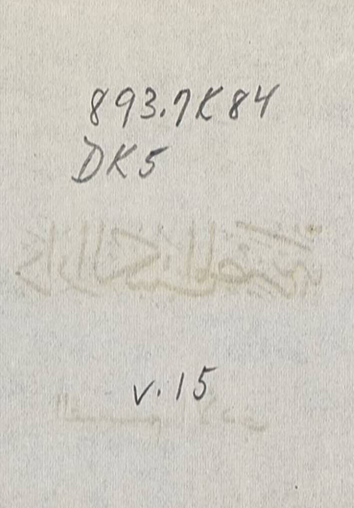
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الخامس عشر

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م



فهـــرس الجـــزء الخـامس عشر

تفسـير سـورة « يس »

صفحة

ســـورة الصافات

سورة ص

ســـورة الزمـــر

ســـورة فصلت

اســـتدراك

أورد القرطبي " ثلاث مسائل " فى تفسير قوله تعــالى : « الله نزل أحسن الحديث » — الآية — وسقط منها لفظ " الثالثة "، وموضعها فى أوّل السطر الثالث من صفحة ٢٥٠

محمد محمد حسنين

المصحح بالقسم الأدبى

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

وهى مكية بإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية ؛ إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » نزلت فى بنى سَلِمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ما يأتى . وفى كتاب أبى داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا يس على موتاكم" . وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء[(1)] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ميت يُقرَأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه" . وفى مسند الدارِمىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة يس فى ليلة ٱبتغاء وجهِ الله غُفِر له فى تلك الليلة" خرجه أبو نعيم الحافظ أيضا . وروى الترمذىّ عن أنس قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : "إن لكل شىء قلبًا وقلبُ القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءةَ القرآن عشر مرات" قال : هذا حديث غريب ، وفى إسناده هرون أبو محمد شيخ مجهول ؛ وفى الباب عن أبى بكر الصدّيق ، ولا يصح حديث أبى بكر من قبل إسناده ، و إسناده ضعيف . وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى القرآن لسورةً تَشفع لقارئها ويُغفَر لمستمعها . ألا وهى سورة يس تُدعى فى التوراة المِعمّة" قيل : يا رسول الله وما المِعمّة ؟ قال : "تَعمّ صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية" قيل : يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال : "تَدفع عن صاحبها كل سوء وتَقضى له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدّق بها فى سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدًى ونُزِع

(1) كذا فى نسخ الأصل والذى فى الدر المنثور : أبى الدرداء .

عنه كلَّ داء وغِلّ”. ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه مسندا. وفى مسند الدارِمىّ عن شَهْر بن حَوْشَب قال قال ابن عباس : من قرأ «يس» حين يُصبِح أعطى يُسْر يومه حتى يُمسى ومن قرأها فى صدر ليلته أعطى يُسْر ليلته حتى يُصبِح . وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : لكل شىء قلب وقلب القرآن يس من قرأها نهارا كُفِى همه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه . وقال شهر ابن حَوْشَب : يقرأ أهل الجنة « طه » و « يس » فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردىّ فقال : روى الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن لكل شىء قلبا وإن قلبَ القرآن يس ومن قرأها فى ليلة اعطى يُسْر تلك الليلة ومن قرأها فى يوم أعطِى يسر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا إلا طه ويس“. وقال يحيى بن أبى كثير: بلغنى أن من قرأ سورة «يس» ليلا لم يزل فى فرح حتى يُصبِح، ومن قرأها حين يُصبِح لم يزل فى فرح حتى يُمسِى؛ وقد حدّثنى من جرّبها ؛ ذكره الثعلبي وابن عطية . قال ابن عطية : ويصدّق ذلك التجربة . وذكر الترمذيّ الحكيم فى «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال حدّثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه ؛ حدّثنى أبى رحمه الله، قال حدّثنا أَصْرَم بن حَوْشَب، عن بقيّة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد ابن على، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” القرآن أفضل من كل شىء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقّر القرآن فقد وقر الله ومن لم يوقّر القرآن لم يوقر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده القرآن شافع مشفَّع وماحِلٌ[(١)] مصدَّق فمن شَفَع له القرآنُ شفِّع ومن مَحَل به القرآن صُدِّق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبَسون نور الله المعلِّمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى يا حملة القرآن

---

(١) قال ابن الأثير : ما حل أى خصم مجادل مصدّق .

ٱستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبًّا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالى القرآن][(١)] بلوى الآخرة ومن ٱستمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التُّخُوم وإن فى كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها فى أكثر من ربيعة ومضر وهى سورة يس". وذكر الثعلبي عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة يسٓ ليلة الجمعة أصبح مغفورا له" . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من دخل المقابر فقرأ سورة يسٓ خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات" .

قوله تعالى : يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يسٓ ﴾ فى « يس » أوجه من القراءات ؛ قرأ أهل المدينة والكسائى ﴿ يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ بإدغام النون فى الواو . وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة « يَسِنْ » بإظهار النون . وقرأ عيسى بن عمر « يَسِنَ » بنصب النون . وقرأ ٱبن عباس وٱبن أبى إسحق ونصر بن عاصم « يسِنِ » بالكسر . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « يَسِنُ » بضم النون؛ فهذه خمس قراءات . القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب فى العربية؛ لأن النون تدغم فى الواو . ومن بيّن قال سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها ، وإنما يكون الإدغام فى الإدراج . وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين : إحداهما أن يكون مفعولا ولا يصرفه؛ لأنه عنده ٱسم أعجمى بمنزلة هابيل والتقدير ٱذكر يسين . وجعله سيبويه ٱسما للسورة . وقوله الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيفَ وأينَ . وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل؛ فعلى هذا يكون « يسِنِ » قسما . وقاله ٱبن عباس . وقيل : مشبّه بأمسِ وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ . وأما الضم فمشبّه بمنذُ وحيثُ وقطُ ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ ، لمن يقف عليه . قال ٱبن السَّميقع وهرون : وقد جاء فى تفسيرها

(١) الزيادة من « نوادر الأصول » للترمذى الحكيم .

يارجل فالأولى بها الضم . قال آبن الأنبارى : «يسٓ» وقف حسن لمن قال هو آفتتاح للسورة .
ومن قال : معنى «يسٓ» يا رجل لم يقف عليه . وروى عن آبن عباس وآبن مسعود
وغيرهما أن معناه يا إنسان، وقالوا فى قوله تعالى : «سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ» أى على آل محمد .
وقال سعيد بن جبير : هو آسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم؛ ودليله «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» .
قال السيد الحميرى :

يا نفسى لا تمحضى بالنُّصْح جاهدةً * عَلَى المودَّةِ إلَّا آلَ ياسينَ

وقال أبو بكر الورّاق : معناه يا سيد البشر . وقيل : إنه آسم من أسماء الله؛ قاله مالك .
روى عنه أشهب قال : سألته هل ينبغى لأحد أن يتسمّى بياسين؟ قال : ما أراه ينبغى
لقول الله «يسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» يقول هذا آسمى يسٓ . قال آبن العربى هذا كلام بديع،
وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى بآسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله عالم وقادر ومريد
ومتكلم . وإنما منع مالك من التسمية بـ «يسين»؛ لأنه آسم من أسماء الله لا يُدرَى معناه؛
فربما كان معناه ينفرد به الربّ فلا يجوز أن يقدم عليه العبد . فإن قيل فقد قال الله تعالى
«سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ» قلنا : ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذى ليس
بتهجّى هو الذى تكلم مالك عليه؛ لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم . وقال بعض العلماء :
آفتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير، ودل المفتتح على أنه قلب، والقلب
أمير على الجسد؛ وكذلك «يسٓ» أمير على سائر السور، مشتمل على جميع القرآن . ثم آختلفوا
فيه أيضا؛ فقال سعيد بن جبير وعكرمة : هو بلغة الحبشة . وقال الشعبى : هو بلغة طىّ .
الحسن : بلغة كلب . الكلبى : هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم . وقد
مضى هذا المعنى فى «طه» (1) وفى مقدّمة الكتاب مستوفى . وقد سرد القاضى عياض أقوال
المفسرين فى معنى «يسٓ» فحكى أبو محمد مكىّ أنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :
"لى عند ربى عشرة أسماء" ذكر أن منها طه ويسٓ آسمان له .

---

(1) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . و جـ ١ ص ٦٧ وما بعدها طبعة ثانية .

قلت : وذكر الماوردى عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله تعالى أسمانى فى القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله" قاله القاضى . وحكى أبو عبد الرحمن السلمى عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد ، مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : «يس» يا إنسان أراد محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه . وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان . وعن ابن الحنفية : «يس» يا محمد . وعن كعب : «يس» قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفى عام [قال] (١) يا محمد « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » ثم قال «وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» . فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه . وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته . أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ؛ أى طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق . قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة فى كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه ياسيد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : "أنا سيد ولد آدم" انتهى كلامه . وحكى القشيرى قال ابن عباس : قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا ، فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين . « والحكيم » المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » . وكذلك أحكم فى نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل . وقد يكون « الحكيم » فى حق الله بمعنى المحكِم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى دين مستقيم وهو الإسلام . وقال الزجاج : على طريق الأنبياء الذين تقدموك ؛ [و] قال : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » خبر إن و « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » خبر ثانٍ ؛ أى إنك لمن المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم . وقيل : المعنى لمن المرسلين على استقامة ؛ فيكون قوله : « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » من صلة المرسلين ؛ أى إنك لمن المرسلين

(١) زيادة يقتضيها المقام ، ويدل عليها ما ورد فى « الدر المنثور » للسيوطى عن كعب .

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ » أى الصراط الذى أمر الله به .

قوله تعـالى : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف « تَنْزِيلَ » بنصب اللام على المصدر؛ أى نزّل الله ذلك تنزيلا . وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » أى فضربا للرقاب . الباقون « تَنْزِيلُ » بالرفع على خبر ابتـداء محذوف أى هو تنزيل ، أو الذى أنزل إليك تنزيل العـزيز الرحيم . هذا وقرئ « تنزيلِ » بالجر على البدل من « القرآن » والتنزيل يرجع إلى القرآن . وقيل : إلى النبىّ صلى الله عليه وسـلم أى إنك لمن المرسـلين ، وإنك « تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى : « قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو » ويقال : أرسل الله المطر وأنزله بمعنى . ومحمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله أنزلها من السماء . ومن نصب قال : إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم . و « العزيزِ » المنتقم ممن خالفه « الرحيم » بأهل طاعته .

قوله تعـالى : لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ « ما » لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير منهم قتادة؛ لأنها نفى والمعنى : لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير . وقيل: هى بمعنى الذى فالمعنى : لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا . وقيل : إن « ما » والفعل مصدر ؛ أى لتنذر قوما إنذار آبائهم . ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهـم بالتواتر أخبار الأنبيـاء ؛ فالمعنى لم ينذَروا برسول من أنفسهم . ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونَسُوا . ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبىّ ؛ وقـد قال الله : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ »

وقال : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى لم يأتهم نبى . وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء ، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك ، ويقال للعرض عن الشيء إنه غافل عنه . وقيل : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن عقاب الله .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ أى وجب العذاب على أكثرهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بإنذارك . وهذا فيمن سبق فى علم الله أنه يموت على كفره . ثم بيّن سبب تركهم الإيمان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ . قيل : نزلت فى أبى جهل ٱبن هشام وصاحبيه المخزوميين ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلّى ليرضخنّ رأسه بحجر ؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه ، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه ، والتصق الحجر بيده ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ؛ فهو على هذا تمثيل أى هو بمنزلة من غُلّت يدُه إلى عنقه فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى ، فقال الرجل الثانى وهو الوليد بن المغيرة : أنا أرضَخ رأسه . فأتاه وهو يصلى على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال : والله ما رأيته ولقد سمعت صوته . فقال الثالث : والله لأشدخنّ أنا رأسه . ثم أخذ الحجر وٱنطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خَرّ على قفاه مغشيّا عليه . فقيل له : ما شأنك ؟ قال شأنى عظيم ! رأيت الرجل فلما دنوت منه ، وإذا فحل يَخطِر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بينى وبينه ، فواللّاتِ والعُزّى لو دنوت منه لأكلنى . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ . وقرأ ابن عباس « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ » . وقال الزجاج : وقرئ « إنا جعلنا فى أيديهم » . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . وفى الكلام حذف على قراءة الجماعة ؛ التقدير : إنا جعلنا فى أعناقهم وفى أيديهم أغلالا فهى إلى الأذقان ، فهى كناية عن الأيدى لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا . ونظيره « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف ؛ لأن ما وقى من الحر وقى من البرد ؛ لأن الغُلّ إذا كان فى العنق فلا بد أن يكون فى اليد ، ولا سيما

وقد قال الله عز وجل : «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ» فقد علم أنه يراد به الأيدى . «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» أى رافعو رءوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلَّت يده إلى ذَقَنه آرتفع رأسه . روى عبد الله بن يحيى أن على بن أبى طالب عليه السلام أراهم الإقماح ، بفعل يديه تحت لحيته وألصقهما و رفع رأسه . قال النحاس : وهذا أجل ما روى فيه وهو مأخوذ مما حكاه الأصمعى . قال : يقال أقمحت الدابةُ إذا جذبت لجامها لترفع رأسها . قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها . كما يقال : قَهَرته وكَهَرته . قال الأصمعى : يقال أكمحتُ الدابةَ إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها . ومنه قول الشاعر :

* ... والرأسُ مُكْمَحُ [(١)] *

و يقال : أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعى. وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً إذا رفع رأسه عند الحوض وآمتنع من الشرب ، فهو بعير قامحٌ وقَمِحٌ ؛ يقال : شَرِب فتقمّح وآنقمح بمعنى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا . وقد قامحت إبلُك إذا وردت ولم تشرب ، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو بَرْد . وهى إبل مُقامحة و بعير مقامح وناقة مقامح أيضا ، والجمع قِماح على غير قياس ؛ قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جَوانبها قُعــودٌ * نَغُضّ الطرفَ كالإبل القِماحِ

والإقماح رفع الرأس وغضّ البصر؛ يقال: أقْمَحه الغُلُّ إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه. وشهرا قِماح أشـد ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك ؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقامحت رءوسها ؛ ومنـه قَمِحتُ [(٢)] السويقَ . وقيل : هو مثـل ضرب به الله تعـالى لهم فى آمتناعهم من الهـدى كامتناع المغلول ؛ قاله يحيى بن سلاّم وأبو عبيدة . وكما يقال فلان حمار ؛ أى لا يبصر الهدى . وكما قال :

* لهم عن الرشدِ أغلالٌ وأقيادُ *

---

(١) البيت لذى الرمة وتمامه :

تمــور بضبعيها وترمى بجـوزها * حذارا من الإيعاد والرأس مكمح

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) إذا آستفه .

وفى الخبر : إن أبا ذؤيب كان يهوى آمرأة فى الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول :

فليس كعهـدِ الدارِ يا أُم مَالكٍ * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسِلُ

وعاد الفـتى كالكهلِ ليس بقائلٍ * سِوى العدلِ شيئًا فآستراح العواذِلُ (١)

أراد مُنِعْنا بموانع الإسلام عن تعاطى الزنى والفسق؛ وقال الفراء أيضا : هـذا ضرب مثل؛ أى حبسناهم عن الإنفاق فى سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ» وقاله الضحاك . وقيل : إن هؤلاء صاروا فى الآستكبار عن الحق كمن جُعل فى يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقـه، فبقى رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضًا بصره لا يفتحه . والمتكبر يوصف بآنتصاب العنـق . وقال الأزهرى : إن أيديهم لـما غُلَّت عنـد أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صُعُدا كالإبل ترفع رءوسها . وهذا المنع بخلق الكفر فى قلوب الكفار، وعنـد قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم . وقيل : الآية إشارة إلى ما يُفعَل بأقوام غدًا فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم والسلاسل؛ كما قال تعـالى : «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ» وأخبر عنه بلفظ الماضى . «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» تقدّم تفسيره . وقال مجاهد : «مُقْمَحُونَ» مُغلُّون عن كل خير .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل : لـما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي صلى الله عليـه وسلم، وسقط الحجر من يده، أخذ

(١) يقول : رجع الفتى عمـا كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهل، فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه . سوى العدل : أى سوى الحق .

الحجر رجل آخر من بنى مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر . فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم طمس الله على بصره، فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه، فهذا معنى الآية . وقال محمد بن إسحق فى روايته : جلس عُتْبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمّية بن خلف ، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه ، فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ « يس » وفى يده تراب فرماهم به وقرأ « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام . وقد مضى هـذا فى سورة « سبحان »(١) ومضى فى « الكهف »(٢) الكلام فى « سدّا » بضم السين وفتحها وهما لغتان . ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى غطينا أبصارهم : وقدمضى فى أول « البقرة »(٣) . وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر «فأعشيناهم» بالعين غير معجمة من العَشاء فى العين وهو ضعف بصرها حتى لاتبصر بالليل قال:

* مَتَى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ(٤) *

وقال تعالى: «ومَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحمٰنِ» الآية . والمعنى متقارب والمعنى أعميناهم؛ كما قال:

ومن الحـوادثِ لا أَبَالَكَ أَنَّنى * ضُرِبتْ علىّ الأرضُ بالأَسْدَادِ

لا أهتدى فيهـا لموضعِ تَلْعَـةٍ * بينَ العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرَادِ

﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أى الهـدى ؛ قاله قتادة . وقيـل : محمدا حين ائتمروا على قتله ؛ قاله السدى . وقال الضحاك : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أى الدنيا «وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» أى الآخرة؛ أى عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع فى الدنيا؛ قال الله تعالى: « وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى زينوا لهم الدنيـا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة . وقيل : على هذا « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أى غرورا بالدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أى تكذيبا بالآخرة. وقيل : «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «ومِنْ خَلْفِهِمْ» الدنيا . ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقـدم فى « البقرة »(٥) والآية رد على القَـدَرية وغيرهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) هو الحطيئة ، وتمام البيت :

* تجد خير نار عندها خير موقد *

(٥) راجع جـ ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

وعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدري فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر ؛ فقال : يكذبون علي يا أمير المؤمنين . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى «إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» فقال : اقرأ يا غيلان فقرأ حتى انتهى إلى قوله : «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» فقال اقرأ فقال : «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» فقال : والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط . فقال له : يا غيلان اقرأ أول سورة «يس» فقرأ حتى بلغ «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين كأني لم أرها قط قبل اليوم ؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب . فقال عمر : اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذبا فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين ؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه . وقال ابن عون : فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق . فقلنا : ما شأنك يا غيلان ؟ فقال : أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن وعمل به . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره ؛ قاله قتادة . وقيل : أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذنبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردا على الكفرة . وقال الضحاك والحسن : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل . والأول أظهر أي نحييهم بالبعث للجزاء . ثم توعدهم بذكره كتب الآثار وهي :

الثانيـة — وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان . قال قتادة : معناه من عمل . وقاله مجاهد وابن زيد . ونظيره قوله : «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ» وقوله : «يُنَبَّأُ

الإنسان يومئذ بما قدم وأخر» وقال : «اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد» فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها : من أثر حسن ؛ كعلم علّموه ، أو كتاب صنّفوه ، أو حبيس احتبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك ؛ أو سيّء كوظيفة وظفها بعض الظلّام على المسلمين ، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاه ، وكذلك كل سنة حسنة ، أو سيئة يستنّ بها . وقيل : هي آثار المشّائين إلى المساجد . وعلى هذا المعنى تأوّل الآية عمر وابن عباس وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا أن معنى «وآثارهم» خطاهم إلى المساجد . قال النحاس : وهذا أولى ما قيل فيه ؛ لأنه قال : إن الآية نزلت في ذلك ؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد . وفي الحديث مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يكتب له برجل حسنة وتحطّ عنه برجل سيئة ذاهبا وراجعا إذا خرج إلى المسجد".

قلت : وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة[1] في ناحية المدينة فأرادوا النّقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية «إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن آثاركم تكتب" فلم ينتقلوا . قال : هذا حديث [حسن][2] غريب من حديث الثوري . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سلمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد ؛ قال : والبقاع خالية ؛ قال : فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم" فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحوّلنا . وقال ثابت البناني : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال : مشيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسرعت ، فحبسني فلما انقضت الصلاة قال "أما علمت أن الآثار تكتب" فهذا احتجاج بالآية . وقال قتادة ومجاهد أيضا والحسن : الآثار في هذه الآية الخطا . وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الآثار هي الخطا إلى الجمعة . وواحد الآثار أثر ويقال أثْر .

---

(١) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار . (٢) الزيادة من صحيح الترمذي .

الثالثة — فى هذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل ، فلو كان بجوار مسجد ، فهل له أن يجاوزه الى الأبعد ؟ آختلف فيه ؛ فروى عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم . وروى عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرا . وكره الحسن وغيره هذا ؛ وقال : لا يدع مسجدا قربَه ويأتى غيره . وهذا مذهب مالك . وفى تخطى مسجده إلى مسجده الأعظم قولان . وخرج ٱبن ماجه من حديث أنس ٱبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل فى بيته بصلاة وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةً وصلاته فى المسجد الذى يُجَمَّع[1] فيه بخمسمائة صلاة " .

الرابعة — " ديارَكم " منصوب على الإغراء أى ٱلزموا و" تكتب" جزم على جواب ذلك الأمر . « وكُلَّ » نصب بفعل مضمر يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » كأنه قال وأحصينا كل شيء أحصيناه . ويجوز رفعه بالابتداء إلا أن نصبه أولى ، ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل . وهو قول الخليل وسيبويه . والإمام الكتاب المقتدَى به الذى هو حجة . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ . وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

---

(١) يجمع (بالتشديد) من التجمع ، أى يصلى فيه الجمعة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية[1]] هذه القرية هي أنطاكية فى قول جميع المفسرين فيما ذكر الماوردى . نسبت إلى أهل أنطبيس وهو ٱسم الذى بناها ثم غُيِّر لما عُرِّب . ذكره السهيلى . ويقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام . ذكره المهدوى وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب . فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق ، وصدوق ، وشلوم هو الثالث . هذا قول الطبرى . وقال غيره : شمعون ويوحنا . وحكى النقاش : سمعان ويحيى ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا . ويجوز أن يكون « مَثَلًا » و « أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ » مفعولين لٱضرب ، أو « أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ » بدلا من « مَثَلًا » أى ٱضرب لهم مثَل أصحابِ القرية فحذف المضاف . أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل . قيل : رسل من الله على الآبتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه ؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ ، وكان ذلك حين رفع عيسى إلى السماء . ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما . ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى فقوّينا وشدّدنا الرسالة « بِثَالِثٍ » . وقرأ أبو بكر عن عاصم « فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ » بالتخفيف وشدّد الباقون . قال الجوهرى : وقوله تعالى : « فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » يخفّف ويشدّد ، أى قوّينا وشدّدنا . قال الأصمعى : أنشدنى فيه أبو عمرو بن العلاء للتلمِّس :

أُجُدٌ إذا رَحَلت تَعَزَّزَ لَحْمُها[2] * وإذا تُشَدّ بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ

أى لا ترغو ؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ومنه « وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ » . والتشديد بمعنى قوّينا وكثرنا . وفى القصة أن عيسى أرسل

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى . (٢) وفى اللسان : أجد إذا ضمرت . ويروى فى غيره : عنس إذا ضمرت .

إليهم رسولين، فلقيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب «يسۤ» فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا : نحن نشفي المرضى. وكان له آبن مجنون . وقيـل : مريض على الفراش فمسحاه ، فقام بإذن الله صحيحا، فآمن الرجل بالله . وقيل : هو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ففشا أمرهما ، وشـفيا كثيرا من المرضى ، فأرسل الملك إليهما — وكان يعبد الأصنام — يستخبرهما فقالا : نحن رسولا عيسى . فقـال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المـريض بإذن الله ، وندعوك إلى عبادة الله وحده . فهمّ الملكُ بضربهما . وقال وهب : حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة ، فآنتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا . قيل : شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما ؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم ، وآستأنسوا به ، ورفعوا حديثـه إلى الملك فأنس به ، وأظهر موافقته فى دينه ، فرضى الملك طريقته ؛ ثم قال يوما للملك : بلغنى أنك حبست رجلين دعواك إلى الله ، فلو سألت عنهما ما وراءهما . فقال : إن الغضب حال بينى وبين سـؤالهما . قال : فلو أحضرتهما . فأمر بذلك ؛ فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدّعيان ؟ فقالا : نبرئ الأكمه والأبرص . فجىء بغلام ممسوح العينين ؛ موضـع عينيه كالجبهة ، فدعوا ربهما فآنشق موضـع البصر ، فأخذا بنـدقتين طينا فوضعاها فى خديه ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ؛ فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاما مات منذ سـبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ، ودعاه شمعون سرا ، فقام الميت حيا، فقال للناس : إنى متّ منذ سبعة أيام، فوُجدت مشركا، فأدخلتُ فى سبعة أودية من النار، فأحذّركم ما أنتم فيـه فآمِنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه ، حتى أحيانى الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله. فقالوا له : وهذا شمعون أيضا معهم ؟ فقال : نعم وهو أفضلهم . فأعلمهم شمعون أنه رسـول المسيح إليهـم ، فأثر قوله فى الملك ، فدعاه إلى الله ، فآمن الملك فى قوم كثير وكفـر آخرون . وحكى القشيرى أن الملك آمن ولم يؤمن قومه ، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقى منهـم من الكفار .

وروى أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا : يا نبىّ الله إنا لا نعرف أن نتكلم بألسنتهم ولغاتهم . فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله : « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » فقالوا جميعا ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون فى الأسواق ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأمر به ولا [من شىء](١) ينهى عنه ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فى دعواكم الرسالة؛ فقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ فى أن الله واحد ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى تشاءمنا بكم . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم . ويقال إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال الفراء : لنقتلنكم . قال : وعامة ما فى القرآن من الرجم معناه القتل . وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة . وقيل : لنشتمنكم؛ وقد تقدّم جميعه(٢) . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل : هو القتل . وقيل : هو التعذيب المؤلم . وقيل : هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب . فقالت الرسل : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أى شؤمكم معكم أى حظكم من الخير والشر معكم ولازمٌ فى أعناقكم وليس هو من شؤمنا . قال معناه الضحاك . وقال قتادة : أعمالكم معكم . ابن عباس : معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم . الفراء : « طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ » رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد . وقرأ الحسن . « اطَّيْرُكُمْ »(٣) أى تطيّركم . ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ قال قتادة : إن ذكرتم تطيرتم . وفيه تسعة أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة « أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ » بتخفيف الهمزة الثانية . وقرأ أهل الكوفة « أَإِنْ » بتحقيق الهمزتين . والوجه الثالث « آإِنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين . والوجه الرابع « اائِنْ » بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة . والقراءة الخامسة « أَاأَنْ » بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف . والوجه السادس « أَأَنْ » بهمزتين محققتين مفتوحتين . وحكى الفراء : أنّ هذه القراءة قراءة أبى رُزَين .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٣) قال أبو حيان فى هذه القراءة : « اطّيركم » مصدر اطّير الذى أصله تطير فادغمت التاء فى الطاء، فاجتلبت همزة الوصل فى الماضى والمصدر .

قلت : وحكاه الثعلبي عن زرّ بن حبيش وابن السَّمَيْقَع . وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري « قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِرْتُمْ » بمعنى حيث . وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة « ذُكِرْتُمْ » بالتخفيف . ذكر جميعه النحاس . وذكر المهدوى عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهمذاني « آنْ ذُكِّرْتُمْ » بالمد على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة . الماجشون : « أَنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزة واحدة مفتوحة . فهذه تسع قراءات . وقرأ ابن هرمز « طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ » . « أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ » أى لإن وُعِظتم ؛ وهو كلام مستأنف أى إن وعظتم تطيرتم . وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبيّ دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك .

﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ قال قتادة : مسرفون فى تطيّركم . يحيى بن سلّام : مسرفون فى كفركم . وقال ابن بحر : السرف هاهنا الفساد ومعناه بل أنتم قوم مفسدون . وقيل : مسرفون مشركون ، والإسراف مجاوزة الحدّ والمشرك يجاوز الحدّ .

قوله تعالى : وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ هو حبيب بن مرى وكان نجارا . وقيل : إسكافا . وقيل : قصّارا . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب

آبن إسرائيل النجار وكان يَنْحت الأصنام، وهو ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و بينهما ستمائة سنة، كما آمن به تُبَّع الأكبر وورَقة بن نوفل وغيرهما . ولم يؤمن بنبي أحدٌ إلا بعد ظهوره . قال وهب : وكان حبيب مجذوما ، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعتكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه و يكشفون ضُرّه فما آستجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع، [فكيف][1] يفرجه ربكم فى غداة واحدة؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر . فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس، فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدّق بكسبه ، فأطعم عياله نصفا وتصدّق بنصف ، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الآية . وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجرا ؟ قالوا: لا، ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه فـ « قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى لو كانوا متّهمين لطلبوا منكم المال ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فآهتدوا بهم . ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ ! فقال : « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» أى خلقنى. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا آحتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم : لأن ذلك وعيد يقتضى الزجر؛ فكأن إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا، و إضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا. ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعنى أصناما . ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾ يعنى ما أصابه من السقم . ﴿ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ يخلصونى مما أنا فيه من البلاء. ﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ يعنى إن فعلت ذلك ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى خسران ظاهر . ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ قال آبن مسعود : خاطب الرسل بأنه

---

(١) الزيادة من تفسير الألوسى .

مؤمن بالله ربهم؛ ومعنى « فَٱسْمَعُونِ » أى فٱشهدوا أى كونوا شهودى بالإيمان . وقال كعب ووهب : إنما قال ذلك لقومه إنى آمنت بربكم الذى كفرتم به . وقيل : إنه لما قال لقومه « ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » رفعوه إلى الملك وقالوا : قد تبعت عدوّنا ؛ فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال : « إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ » فوثبوا عليه فقتلوه . قال آبن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه[1] من دبره ، وألقى فى بئر وهى الرَّسّ وهم أصحاب الرَّسّ . وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة . وقال السدى رموه بالحجارة وهو يقول اللهم آهد قومى حتى قتلوه . وقال الكلبي : حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردما . وقال الحسن : حرقوه حرقا، وعلّقوه من سور المدينة وقبره فى سور أنطاكية ؛ حكاه الثعلبي . وقال القشيرى : وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو فى الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها . وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا فى الجنة فدخلها ؛ فذلك قوله : « قِيلَ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ » فلما شاهدها « قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي » أى بغفران ربى لى ؛ فما مع الفعل بمنزلة المصدر . وقيل : بمعنى الذى والعائد من الصلة محذوف . ويجوز أن تكون آستفهاما فيه معنى التعجب، كأنه قال : ليت قومى يعلمون بأى شىء غفرلى ربى ؛ قاله الفرّاء . واعترضه الكسائى فقال : لو صح هذا لقال بِمَ من غير ألف . وقال الفراء : يجوز أن يقال بما بالألف وهو آستفهام وأنشد فيه أبياتا . الزمخشرى : « بِمَ غَفَرَلِي » بطرح الألف أجود، وإن كان إثباتها جائزا؛ يقال : قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت . المهدوى : وإثبات الألف فى الآستفهام قليل . فيوقف على هذا على « يَعْلَمُونَ » . وقال جماعة : معنى قيل « ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ » وجبت لك الجنة ؛ فهو خبر بأنه قد آستحق دخول الجنة : لأن دخولها يستحق بعد البعث .

---

(١) القصب المعى .

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له ٱدخل الجنـة . قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حىّ يرزق ؛ أراد قوله تعـالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » على ما تقدم فى « آل عمران » (١) بيانه . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذى هو ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وقرئ « مِنَ الْمُكَرَّمِينَ » وفى معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته . الثانى تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله . قال ابن عباس : نصح قومه حيا وميتا . رفعه القشيرى فقال : وفى الخبر أنه عليه السلام قال فى هـذه الآية " إنه نصح لهم فى حياته و بعد موته " وقال ٱبن أبى ليلى : سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين؛ على بن أبى طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصدّيقون . ذكره الزمخشرى مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهـل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهـل البغى ، والتشمر فى تخليصه ، والتلطف فى ٱفتـدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام، فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله :﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبىّ بعد قتله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن . قال الحسن : الجند الملائكة النـازلون بالوحى على الأنبياء . وقيل : الجند العساكر ؛ أى لم أحتج فى هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة . قال معناه ابن مسعود وغيره . فقوله : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » تصغير لأمرهم؛ أى أهلكناهم بصيحة واحدة من بعـد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء . وقيل : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » على من كان قبلهم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الزمخشري : فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ فقال : « وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » وقال : « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » .

قلت : إنما كان يكفى مَلَك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم بكل شيء على سائر الأنبياء وأولى العزم من الرسل فضلا عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز مالم يوله أحدا ؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء ، وكأنه أشار بقوله : « وَمَا أَنْزَلْنَا » . « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التى لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعل لغيرك . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قراءة العامة « وَاحِدَةً » بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع وشيبة والأعرج « صَيْحَةٌ » بالرفع هنا وفى قوله « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ » جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث ، فكأنه قال : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف ؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند . قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال إن كان إلا صيحةٌ . قال النحاس : لا يمتنع شيء من هذا ، يقال : ما جاءتنى إلا جاريتُك بمعنى ما جاءتنى امرأةٌ أو جارية إلا جاريتك . والتقدير فى القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق ، قال : المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة ، وقدّره غيره ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وكان بمعنى وقع كثير فى كلام العرب . وقرأ عبد الرحمن بن الأسود — ويقال إنه فى حرف عبد الله كذلك — « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً » . وهذا مخالف للمصحف . وأيضا فإن اللغة المعروفة زَقَا يَزْقو إذا صاح ، ومنه المثل : أثقلُ من الزَّوَاقى ؛ فكان يجب على هذا أن يكون زَقْوة . ذكره النحاس .

قلت : وقال الجوهري الزَّقْو والزَّقْي مصـدر ، وقد زَقَا الصـدا يَزْقو زُقاءً أى صاح ، وكل صائح زاقٍ ، والزَّقْية الصّيحة .

قلت : وعلى هذا يقال زَقْوة وزَقْية لغتان فالقراءة صحيحة لا ٱعتراض عليها . والله أعلم.

﴿ فَإِذَا هُـمْ خَامِدُونَ ﴾ أى ميتون هامدون تشبيها بالرماد الخامد . وقال قتـادة : هلكى . والمعنى واحد .

قوله تعـالى : يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ منصوب ؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيـه غير النصب عند البصريين . وفى حرف أُبىّ « يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ » على الإضافة . وحقيقة الحسرة فى اللغة أن يلحق الأنسان من الندم ما يصير به حسيرا . وزعم الفراء أن الٱختيار النصب ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا . وٱستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب : يا مُهتمٌّ بأمرنا لا تهتمّ . وأنشد :

* يا دارُ غَيَّرها البِـلَى تَغْييرا[1] *

قال النحاس : وفى هـذا إبطال باب النـداء أو أكثره ؛ لأنه يرفع النـكرة المحضة ، ويرفـع ما هو بمنزلة المضاف فى طوله ، ويحـذف التنوين متوسطا ، ويرفع ما هو فى المعنى مفعول بغير علّة أوجبت ذلك . فأما ما حكاه عن العرب فلا يشـبه ما أجازه ؛ لأن تقديريا مهتم بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير ، والمعنى ياأيها المهتم لا تهتم بأمرنا . وتقدير البيت ياأيتها الدار ثم حول المخاطبة ؛ أى ياهؤلاء غير هذه الدار البلى ؛ كما قال الله جل وعز : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» فـ « حسرةً» منصوب على النداء كما تقول يا رجلًا أقبل ، ومعنى النداء

(١) البيت للأحوص ؛ وتمامه :

* وسفت عليها الريح بعدك مورا *

هـذا موضع حضور الحسرة . الطبرى : المعنى ياحسرة من العباد على أنفسهم وتندما وتلهفا فى آستهزائهم برسل الله عليهم السلام . آبن عباس : «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» أى يا ويلا على العباد . وعنه أيضا : حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم . وروى الربيع عن أنس عن أبى العالية أن العباد هاهنا الرسل ؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا : «يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ» فتحسروا على قتلهم ، وترك الإيمان بهم ؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان ؛ وقاله مجاهد . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذّبوا الرسل . وقيل : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله . وقيل : إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتـل القوم ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وحلّ بالقوم العذاب يا حسرة على هؤلاء ، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا . وقيل : هذا من قول القوم قالوا لما قتـلوا الرجل وفارقتهم الرسل ، أو قتلوا الرجل مع الرسـل الثلاثة ، على آختـلاف الروايات : يا حسرة على هؤلاء الرسل ، وعلى هـذا الرجل ، ليتنا آمنا بهـم فى الوقت الذى ينفع الإيمـان . وتم الكلام على هـذا ، ثم آبتـدأ فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ . وقرأ آبن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدب وعِكرمة « يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ » بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى فى النفس ؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك فى مثـله ، وإن لم يكن موضعا للوقف . ومن ذلك ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقطع قراءته حرفا حرفا ؛ حرصا على البيان والإفهام . ويجوز أن يكون « على العِبادِ » متعلقا بالحسرة . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة ، فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهـاء ، ثم قال « على العِبادِ » أى أتحسر على العباد . وعن آبن عباس والضحاك وغيرهما « يا حسرةَ العِبادِ » مضاف بحـذف على . وهو خلاف المصحف . وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين ؛ كأنهـم إذا شاهدوا العـذاب تحسروا ، فهو كقولك يا قيام زيدٍ . ويجوز أن يكون من باب الإضافة إلى المفعول ، فيكون العباد مفعولين ؛ فكأن العباد يتحسّر عليهم من يشفق لهم . وقراءة من قرأ « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » مقوية لهذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال سيبويه : أنّ بدل من كم، ومعنى كم هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام. والمعنى ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : « كم » فى موضع نصب من وجهين؛ أحدهما بـ « يَرَوْا » وآستشهد على هذا بأنه فى قراءة آبن مسعود « أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا » . والوجه الآخر أن يكون « كم » فى موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » . قال النحاس : القول الأوّل محال؛ لأن « كم » لا يعمل فيها ما قبلها؛ لأنها آستفهام، ومحال أن يدخل الآستفهام فى خبر ما قبله . وكذا حكمها إذا كانت خبرا، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا بجعل « أَنَّهُمْ » بدلا من كم . وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ، وقال : « كم » فى موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » و « أَنَّهُمْ » فى موضع نصب والمعنى عنده بأنهم أى « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ » بالاستئصال . قال : والدليل على هذا أنها فى قراءة عبد الله « مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » . وقرأ الحسن « إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » بكسر الهمزة على الاستئناف . وهذه الآية ردٌّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت . ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء . وقرأ آبن عامر وعاصم وحمزة « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتشديد لما . وخفف الباقون . فإن مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالآبتداء، وما بعده الخبر . وبطل عملها حين تغير لفظها . ولزمت اللام فى الخبر فرقا بينها وبين إن التى بمعنى ما . وما عند أبى عبيدة زائدة . والتقدير عنده وإن كل لجميع . قال الفرّاء : ومن شدّد جعل « لما » بمعنى إلا و « إن » بمعنى ما أى ما كل إلا لجميع؛ كقوله : « إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ » . وحكى سيبويه : فى قوله سألتك بالله لمّا فعلت . وزعم الكسائى أنه لا يعرف هذا . وقد مضى هذا المعنى فى « هود »(١) . وفى حرف أبىّ « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

(١) راجع جـ ٩ ص ١٠٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ نبهم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكّرهم توحيده وكمال قدرته ، وهى الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحبّ منها . ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أى من الحبّ ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ وبه يتغذّون . وشدّد أهل المدينة « الْمَيِّتَةُ » وخفف الباقون . وقد تقدّم[1] . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض . ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وخصصهما بالذكر ؛ لأنهما أعلى الثمار . ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى فى البساتين . ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ الهاء فى « ثمره » تعود على ماء العيون ؛ لأن الثمر منه آندرج . قاله الجرجانى والمهدوى وغيرهما . وقيل : أى ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا ؛ كما قال : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ » . وقرأ حمزة والكسائى « مِنْ ثُمُرِهِ » بضم الثاء والميم . وفتحهما الباقون . وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام »[2] . ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع خفض على العطف على « مِنْ ثَمَرِهِ » أى ومما عملته أيديهم . وقرأ الكوفيون « وَمَا عَمِلَتْ » بغير هاء . الباقون « عملته » على الأصل من غير حذف . وحذف الصلة أيضا فى الكلام كثير لطول الاسم . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع . أى ولم تعمله أيديهم من الزرع الذى أنبته الله لهم . وهذا قول آبن عباس والضحاك ومقاتل . وقال غيرهم : المعنى ومن الذى عملته أيديهم أى من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٤٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

آتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون . وقيـل : يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس . روى معناه عن آبن عباس أيضا . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمـه .

قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ نَزّه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبـدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته . وفيه تقـدير الأمر؛ أى سبّحوه ونزّهوه عما لا يليق به . وقيل : فيه معنى التعجب؛ أى عجبا لهؤلاءِ فى كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات ؛ ومن تعجب من شىء قال سبحان الله . والأزواج الأنواع والأصـناف ، فكل زوج صنف ؛ لأنه مختلف فى الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر، فاختلافها هـو آزدواجها . وقال قتادة : يعنى الذكر والأنثى . ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ يعنى من النبات ؛ لأنه أصناف . ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعنى وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا و إناثا . ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى من أصناف خلقه فى البر والبحر والسماء والأرض . ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة . و يجوز ألا يعلمه مخلوق . و وجه الآستدلال فى هـذه الآية أنه إذا آنفرد بالخلق فلا ينبغى أن يشرك به .

قوله تعـالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى وعلامة دالة على توحيـد الله وقدرته و وجوب إلاهيته . والسلخ الكشط والنزع يقال سلخه الله من دينـه ، ثم تستعمل بمعنى الإخراج . وقد جعـل ذهاب الضوء ومجىء الظلمة كالسلخ من الشىء وظهور المسلوخ فهى آستعارة . و ﴿ مُظْلِمُونَ ﴾ داخلون فى الظلام ؛ يقال : أظلمنا أى دخلنا فى ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا فى وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا . وقيـل : « مِنه » بمعنى عنه ، والمعنى نسلخ عنه ضـياء النهار . « فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » أى فى ظلمة ؛ لأن ضـوء النهار يتداخل فى الهواء فيضىء فإذا خرج منه أظلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس. ويجوز أن يكون الشمس مرفوعا بإضمار فعل يفسره الثانى. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضع الخبر أى جارية . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » قال "مستقرها تحت العرش" . وفيه عن أبى ذرّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما : " أتدرون أين تذهب هـذه الشمس " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخرّ ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لهـا آرتفعى آرجعى من حيث جئتِ فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخرّ ساجدةً ولا تزال كذلك حتى يقال لها آرتفعى آرجعى من حيث جئتِ فترجع فتصبح طالعةً من مطلعها ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهىَ إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها آرتفعى أصبحى طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها " فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أتدرون متى ذلكم ذاك حين « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » " . ولفظ البخارى عن أبى ذرّ قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ حين غربت الشمس : " تدرى أين تذهب " قلت الله ورسوله أعلم ، قال : " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذنَ فيؤذنُ لها و يوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذنَ فلا يؤذنُ لها يقال لها آرجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » ". ولفظ الترمذى عن أبى ذرّ قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبيّ صلى الله عليه وسلم جالس . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذرّ أتدرى أين تذهب هـذه " قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها تذهب فتستأذنُ فى السجود فيؤذنُ لها وكأنها قد قيل لها آطلعى من حيث جئت فتطلع من مغربها " قال : ثم قرأ « ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا[1] » قال وذلك قراءة عبدالله . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) كذا فى الأصول وفى صحيح الترمذى ولعله تحريف ، إذ لا تعرف قراءة بهـذا النص ؛ وقراءة عبد الله بن مسعود « والشمس تجرى لا مستقر لها » كما سيأتى .

وقال عكرمة : إن الشمس إذا غربت دخلت محرابا تحت العرش تسـبّح الله حتى تصبح ، فإذا أصبحت ٱستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب : ولم ذاك ؟ قالت : إنى إذا خرجت عُبِدت من دونك . فيقول الرب تبارك وتعالى : ٱخرجى فليس عليك من ذاك شىء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها . وقال الكلبي وغيره : المعنى تجرى إلى أبعد منازلها فى الغروب ، ثم ترجع إلى أدنى منازلها، فمستقرها بلوغها الموضع الذى لا تتجاوزه بل ترجع منه ؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصـوده فيقضى وَطَره ، ثم يرجع إلى منزله الأوّل الذى ٱبتدأ منه سفره . وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها ، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة ، وذلك اليوم أطول الأيام فى السنة ، وتلك الليـلة أقصر الليالى ، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات ، ثم يأخذ فى النقصان وترجع الشمس ، فإذا طلعت الثريا ٱسـتوى الليل والنهار ، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة ، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النَّعائم ، وذلك اليوم أقصر الأيام ، والليـل خمس عشرة ساعة ، حتى إذا طلع فَرْغ الدَّلْو المؤخّر ٱستوى الليل والنهار ، فيأخذ الليـل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة ، وكل عشرة أيام ثلث ساعة ، وكل شهر ساعة تامة ، حتى يستويا و يأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة ، و يأخذ النهار من الليل كذلك . وقال الحسن : إن للشمس فى السـنة ثلثمائة وستين مطلعا ، تنزل فى كل يوم مطلعا ، ثم لا تنزله إلى الحول ، فهى تجـرى فى تلك المنازل وهى مستقرّها . وهو معنى الذى قبله سواء . وقال ابن عباس : إنها إذا غربت وٱنتهت إلى الموضع الذى لا تتجاوزه ٱستقرّت تحت العرش إلى أن تطلع .

قلت : ما قاله ٱبن عباس يجمع الأقوال فتأمله . وقيل : إلى ٱنتهـاء أمدها عند ٱنقضاء الدنيا . وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لَامُسْتَقَرَّ لَهَا » أى إنها تجرى فى الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار ، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة . وقد ٱحتج من خالف المصحف فقال : أنا أقرأ بقراءة ٱبن مسـعود وٱبن عباس . قال أبو بكر الأنبارى : وهـذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ٱبن عباس ؛ وٱبن كثير روى

عن مجاهد عن ابن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع ، يبطلان ما روى بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة ، وما اتفقت عليه الأمة .

قلت : والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله فما أجراه على كتاب الله قاتله الله . وقوله : « لِمستقرٍّ لها » أي إلى مستقرها والمستقر موضع القرار . ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿ العزيزِ العليم ﴾ .

قوله تعالى : وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرُ ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ . ويجوز أن يكون « وَالْقَمَرُ » مرفوعا بالابتداء . وقرأ الكوفيون « وَالْقَمَرَ » بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد . قال : لأن قبله فعلا وبعده فعلا ، قبله « نَسْلَخُ » و بعده « قَدَّرْنَاهُ » . النحاس : وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إليّ وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ . وقوله : إن قبله « نَسْلَخُ » فقبله ما هو أقرب منه وهو « تَجْرِي » وقبله « وَالشَّمْسُ » بالرفع . والذي ذكره بعده وهو « قَدَّرْنَاهُ » قد عمل في الهاء . قال أبو حاتم : الرفع أولى ؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء . و يقال : القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ففي هذا جوابان : أحدهما قدّرناه ذا منازل مثل « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . والتقدير الآخر قدّرنا له منازل ثم حذفت اللام ، وكان حذفها حسنا لتعدي الفعل إلى مفعولين مثل « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » . والمنازل ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ؛ وهي : الشَّرَطَان . الْبُطَيْن . الثُّرَيَّا . الدَّبَران . الهَقْعَة . الهنعة . الذِّراع . النَّثْرة . الطَّرْف . الجَبْهة . الخَرَاتانِ . الصَّرفة . العَوّاء . السِّماك . الغفر . الزُّبَانيان .

الإكليل . القلب . الشولة . النعائم . البلدة . سعد الذابح . سعد بلع . سعد السعود . سعد الأخبية . الفرغ المقدم . الفرغ المؤخر . بطن الحوت . فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك فى ثمان وعشرين ليلة . ثم يستتر ثم يطلع هلالا، فيعود فى قطع الفلك على المنازل ، وهى منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث . فللحمل الشرطان والبطين وثلث الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة، ثم كذلك إلى سائرها .وقد مضى فى « الحجر »[1] تسمية البروج والحمد لله . وقيل : إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نار ثم كسيا النور عند الطلوع، فأما نور الشمس فمن نور العرش، وأما نور القمر فمن نور الكرسى، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة . فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق، وأما القمر فأمر الروح الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح ، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء . فبقى ذلك المحو على ما يراه الخلق ، ثم جعل فى غلاف من ماء، ثم جعل له مجرى، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمرا بمقدار ما يقمرلهم حتى ينتهى بدؤه، ويراه الخلق بكماله واستدارته . ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شىء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد فى البدء . ويبتدئ فى النقصان من الناحية التى لا تراه الشمس وهى ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم ، وهو العذق المتقوس ليبسه ودقته . وإنما قيل القمر، لأنه يقمر أى يبيض الجو ببياضه إلى أن يستتر .

الثانيــــة — ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ قال الزجاج : هو عود العذق الذى عليه الشماريخ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار فى منازله ، فإذا كان فى آخرها دق واستقوس وضاق حتى صار كالعرجون . وعلى هذا فالنون زائدة . وقال قتادة : هو العذق اليابس المنحنى من النخلة . ثعلب : « كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » قال : « العرجون » الذى يبقى من الكباسة فى النخلة إذا قطعت، و« القديم » البالى . الخليل : فى باب الرباعى « العرجون » أصل العذق وهو أصفر عريض يشبه به الهلال إذا انحنى . الجوهرى :

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

« العرجون » أصل العِذْق الذى يعوجّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا؛ وعَرْجَنه ضربه بالعرجون . فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بنى قيس :

شرق المسك والعبير بها[1] * فهى صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عَتق ويَبِس وتقوّس شبِّه القمرُ فى دقّته وصفرته به . ويقال له أيضا الإهان والكِبَاسة والقنو ، وأهل مصرَ يسمونه الإسباطة . وقرئ « العِرْجَوْن » بوزن الفِرْجَون وهما لغتان كالبُزْيُون[2] والبِزْيَون؛ ذكره الزمخشرى وقال : هو عود العِـذْق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . وآعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول ، لكل فصل سبعة منازل : فأوّلها الربيع ، وأوله خمسة عشر يوما من أَذَار ، وعدد أيامه آثنان وتسعون يوما . تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : الحَمَل ، والثور ، والجوزاء ، وسبعة منازل : الشَّرَطان والبُطَين والثُّريا والدَّبَران والهَقْعة والهَنْعة والذِّراع . ثم يدخل فصل الصيف فى خمسة عشر يوما من حَزِيران ، وعدد أيامه آثنان وتسعون يوما؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج : الشَّرَطان ، والأسد ، والسُّنبلة ، وسبعة منازل : وهى النثرة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتان والصّرفة والعوّاء والسِّماك . ثم يدخل فصل الخريف فى خمسة عشر يوما من أيلول ، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج؛ وهى الميزان ، والعقرب ، والقوس ، وسبعة منازل الغَفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة . ثم يدخل فصل الشتاء فى خمسة عشر يوما من كانون الأوّل ، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : وهى الجَدْى والدَّلْو والحوت ، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السّعود وسعد الأَخبِية والفَرْغ المقدَّم ، والفَرْغ المؤخَّر وبطن الحوت . وهذه قسمة السريانيين لشهورها : تشرين الأوّل ، تشرين الثانى ، كانون الأوّل ، كانون الثانى ، أشباط ، آذار ، نيسان ، أيَّار ، حَزيران ، تَمّوز ، آب ، أيلول ، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثانى ونيسان وحزِيران وأيلول ، فهى ثلاثون ، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم .

(١) كذا فى الأصل ولم نعثر عليه فى ديوانه ، ويحتمل أن يكون : شرق العنبر والمسك بها .
(٢) البزيون : السندس . وقيل هو رقيق الديباج .

وإنما أردنا بهذا أن تنظر فى قدرة الله تعالى فذلك قوله تعـالى : « وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » فإذا كانت الشمس فى منزل أهلّ الهلالُ بالمنزل الذى بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله، فإذا كانت الشمس بالثريا فى خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ الهلال بالدبران، ثم يكون له فى كل ليلة منزلة حتى يقطع فى ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة . وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما ، ثم يطلع فى المنزلة التى بعـد منزلة الشمس فـ « ذلك تقدير العزيز العليم » .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : « القَدِيم » قال الزمخشرى : القـديم المحول وإذا قَدُم دَقّ وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقلّ عِدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلا قال : كل مملوك لى قديم فهو حر، أو كتب ذلك فى وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر .

قلت : قد مضى فى « البقرة »[1] ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله .

قوله تعـالى : لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ رفعت الشمس بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل «لا» فى معرفة. وقد تكلم العلماء فى معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها إن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه . أى لكل واحد منهما سـلطان على حياله ، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله مادبّر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم فى آخر سورة « الأنعام »[2] بيانه . وقيل : إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . روى معناه عن ابن عباس والضحاك. وقال مجاهد : أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر . وقال قتادة : لكل حدّ وعَلَم لا يعدوه

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ وما بعـدها طبعة ثانيـة . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٤٥ وما بعـدها طبعة أولى أو ثانية .

ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا . وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة . أى لا تبقى الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر . يحيى بن سلّام : لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة ؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها . وقيل : معناه إذا آجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدى الآخر في منازل لا يشتركان فيها ؛ قاله آبن عباس أيضا . وقيل : القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة فهى لا تدركه . ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : وأحسن ما قيل في معناها وأبينه مما لا يُدفَع أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه في السير . ذكره المهدوى أيضا . فأما قوله سبحانه : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » فذلك حين حبْس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه في آخر « الأنعام »[1] ويأتى في سورة « القيامة » أيضا . وجمعهما علامة لآنقضاء الدنيا وقيام الساعة . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون . وقيل : يدورون . ولم يقل تسبح ؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل . وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة ولو كانت ملصقة ما جرت ؛ ذكره الثعلبي والماوردى . وآستدل بعضهم بقوله تعالى : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » على أن النهار مخلوق قبل الليل ، وأن الليل لم يسبقه بخلق . وقيل : كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة ؛ كما قال : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » ويكون الليل للإجمام والاستراحة ، والنهار للتصرف ؛ كما قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » وقال : « وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أى راحة لأبدانكم من عمل النهار . فقوله : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى غالب النهار ؛ يقال : سبق فلان فلانا أى غلبه . وذكر المبرّد قال : سمعت عمارة يقرأ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » فقلت ما هذا ؟ قال : أردت سابقٌ النهارَ فحذفت التنوين ؛ لأنه أخفّ . قال النحاس : يجوز أن يكون « النهارَ » منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم ؛ لأن فى الآيات آعتبارا . الثانى نعمة عليهم ؛ لأن فى الآيات إنعاما . الثالث إنذار لهم ؛ لأن فى الايات إنذارا . ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ[1] فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ من أشكل ما فى السورة ؛ لأنهم هم المحمولون . فقيل المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية «فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» فالضميران مختلفان ؛ ذكره المهدوى . وحكاه النحاس عن علىّ بن سليمان أنه سمعه يقوله . وقيل : الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاءهم ، فالفلك على القول الأول سفينة نوح . وعلى الثانى يكون آسما للجنس ؛ خبّر جل وعز بلطفه وآمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشى والركوب من الذرية والضعفاء ، فيكون الضميران على هذا متفقين . وقيل : الذرية الآباء والأجداد حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام ، فالآباء ذرية والأبناء ذرية ؛ بدليل هذه الآية ؛ قاله أبو عثمان . وسمى الآباء ذرية ؛ لأن منهم ذرأ الأبناء . وقول رابع أن الذرية النطف حملها الله تعالى فى بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ ذكره الماوردى . وقد مضى فى « البقرة »[2] آشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفى . و « المشحون » المملوء الموقَر و « الفلك » يكون واحدا وجمعا . وقد تقدّم فى « يونس »[3] القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الاسم[4] وأنه رأس آية . وفى معناه ثلاثة أقوال : مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير

(١) « ذرياتهم » بالجمع قراءة نافع .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) كذا فى كل نسخ الأصل وفى إعراب القرآن للنحاس .

وروى عن ابن عباس أن معنى « مِن مِثْلِهِ » للإبل خلقها لهم للركوب فى البر مثل السفن المركوبة فى البحر ؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن . قال طَرَفة :

كأنّ حُدُوجَ المالكيةِ غُدوةً * خَلَايَا سفينٍ بالنواصِفِ مِن ددِ (١)

جمع خليّة وهى السفينة العظيمة . والقول الثانى أنه للإبل والدواب وكل ما يركب . والقول الثالث أنه للسفن ؛ النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس . « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » قال : خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها . وقال أبو مالك : إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار ؛ وروى عن ابن عباس والحسن . وقال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قال الماوردى : ويجىء على مقتضى تأويل على رضى الله عنه فى أن الذرية فى الفلك المشحون هى النطف فى بطون النساء قول خامس فى قوله : « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ أى فى البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية ، أو إلى الجميع ، وهذا يدل على صحة قول ابن عباس ومن قال إن المراد « مِنْ مِثْلِهِ » السفن لا الإبل . ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة . وروى شيبان عنه فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان . و « صَرِيخَ » بمعنى مُصرِخ فعيل بمعنى فاعل . ويجوز « فلا صريخٌ لهم » ؛ لأن بعده مالا يجوز فيه إلا الرفع ؛ لأنه معرفة وهو ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ والنحويون يختارون لا رجل فى الدار ولا زيد . ومعنى « يُنْقَذُونَ » يخلصون من الغرق . وقيل : من العذاب . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ قال الكسائى : هو نصب على الاستثناء . وقال الزجاج : نصب مفعولٍ من أجله ؛ أى للرحمة ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ معطوف عليه . ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى الموت ؛ قاله قتادة . يحيى بن سلّام : إلى القيامة أى إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم ، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة ، وأخر عذاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوه إلى الموت والقيامة .

---

(١) الحدوج جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة . والنواصف جمع ناصفة وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى . ودد موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال قتادة : يعنى « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم « وَمَا خَلْفَكُمْ » من الآخرة . ابن عباس وابن جبير ومجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من الذنوب « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما يأتى من الذنوب . الحسن : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من أجلكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما بقى منه . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من الدنيا « وَمَا خَلْفَكُمْ » من عذاب الآخرة ؛ قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبى عن ابن عباس . قال : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من أمر الآخرة وما عملوا لها « وَمَا خَلْفَكُمْ » من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما ظهر لكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما خفى عنكم . والجواب محذوف والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ، دليله قوله بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى تصدقوا على الفقراء . قال الحسن : يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقيل هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله . وذلك قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا » فحرموهم وقالوا : لو شاء الله أطعمكم — آستهزاء — فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا . قالوا : ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أى أنرزق ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين أن الرازق هو الله . فقالوا هزءا أنرزق من لو يشاء الله أغناه . وعن آبن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن . وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء الله لأعزّ ولو شاء الله لكان كذا . فأخرجوا هذا الجواب مخرج الآستهزاء بالمؤمنين ، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى . وقيل : قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا ؟ . وكان هذا الآحتجاج باطلا ؛ لأن الله تعالى إذا ملّك عبدا مالاً ثم أوجب عليه فيه حقّا فكأنه آنتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض . وقد صدقوا فى قولهم لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا فى الآحتجاج . ومثله قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا » وقوله : « قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قيل : هو من قول الكفار للمؤمنين ، أى فى سؤال المال وفى آتباعكم محمدا . قال معناه مقاتل وغيره . وقيل : هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم . وقيل : من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب . وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال : نعم . قال : فما باله لم يطعمهم؟ قال : آبتلى قوما بالفقر، وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء . فقال : والله يا أبا بكر ما أنت إلا فى ضلال ؛ أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت ؛ فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » الآيات . وقيل : نزلت الآية فى قوم من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، وآستهزءوا بالمسلمين بهذا القول . ذكره القشيرى والماوردى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ لما قيل لهم « اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ » قالوا « مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ » وكان هذا استهزاء منهم أيضا أى لا تحقيق لهذا الوعيد، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهى نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى يختصمون فى أمور دنياهم فيموتون فى مكانهم ؛ وهذه نفخة الصَّعق . وفى « يَخِصِّمُونَ » خمس قراءات : قرأ أبو عمرو وابن كثير « وَهُمْ يَخَصِّمُونَ » بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد . وكذا روى ورش عن نافع . فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه « يَخْصِّمُونَ » بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « وهم يَخْصِمُونَ » بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه . وقرأ عاصم والكسائى « وهم يَخِصِّمُونَ » بكسر الخاء وتشديد الصاد ومعناه يخصم بعضهم بعضا . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون فى الحجة أنهم لا يبعثون . وقد روى ابن جبير عن أبى بكر عن عاصم وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد . قال النحاس : القراءة الأولى أبينها والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء — وفى حرف أبىّ « وهم يختصمون » — وإسكان الخاء لا يجوز ؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولين . وقيل : أسكنوا الخاء على أصلها ، والمعنى يخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف ، وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول ؛ قال الثعلبي : وهى قراءة أبىّ بن كعب . قال النحاس : فأما « يَخِصِّمُونَ » فالأصل فيه أيضا يختصمون ، فأدغمت التاء فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وزعم الفرّاء أن هـذه القراءة أجود وأكثر ؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء واجتلب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة ، وزعم أنه أجود وأكثر . وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة ! وما روى عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع . وقد مضى هذا فى « البقرة »[1] فى « يَخْطَفُ

---

(١) انظر ج ١ ص ١٩٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَبْصَارَهُم » وفى « يونس » فى « يَهِدِّى »[1] . وقال عِكرمة فى قوله جل وعز « إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » قال : هى النفخة الأولى فى الصور . وقال أبو هريرة : يُنفخ فى الصّور والناس فى أسواقهم ؛ فمن حالبِ لقحة ، ومن ذارعٍ ثوبا ، ومن مارّ فى حاجة . وروى نعيم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة والرجل يَليط[2] حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يَتَبلّعها حتى تقوم الساعة " . وفى حديث عبد الله بن عمرو " وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوضَ إبله — قال — فيصعق ويصعَق الناس" الحديث . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا لما فى يده من حقّ . وقيل : لا يستطيع أن يوصى بعضهم بعضا بالتوبة والإقلاع بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم . ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا ماتوا . وقيل : إن معنى « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » لا يرجعون إليهم قولا . وقال قتادة : « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى إلى منازلهم ، لأنهم قد أعجلوا عن ذلك .

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة . وقد بينا فى سورة « النمل »[3] أنهما نفختان لا ثلاث . وهذه الآية دالة على ذلك . وروى المبارك بن

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤١ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) يليط حوضه وفى رواية يلوط حوضه أى يطينه .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

فَضَالة عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كلّ حيّ والأخرى يحيي الله بها كلّ ميت" . وقال قتادة : الصُّور جمع صُورَة ؛ أي نفخ في الصور الأرواح . وصُورَة وصُور مثل سُورَة البناء وسُور ؛ قال العَجّاج:

ورُبَّ ذِى سُرَادِقٍ مَحْجُورِ * سِرْتُ إليهِ فى أَعالِى السُّورِ

وقد روى عن أبى هريرة أنه قرأ « وَنُفِخَ فِي الصُّوَرِ » . النحاس : والصحيح أن « الصور » بإسكان الواو . القَرْن ؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك معروف فى كلام العرب . أنشد أهل اللغة :

نحنُ نَطَحْناهُمْ غَداةَ الغُوْرَيْنْ * بالضَّابِحاتِ فى غُبارِ النَّقْعَيْنْ

* نَطْحًا شَديدًا لا كَنَطْحِ الصُّوَرَيْنْ *

وقد مضى هذا فى « الأنعام »(1) مستوفى . ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور . وقرئ بالفاء « مِن الأجدافِ » ذكره الزمخشري . يقال جَدَثٌ وجَدَفٌ . واللغة الفصيحة الجدَث بالثاء والجمع أَجْدُث وأجداث ؛ قال المتنخِّل الهُذَلى :

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ * عَلَاماتٍ كتَحْبِيرِ النِّماطِ

واجتدثَ أى اتخذ جَدَثا . ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ أى يخرجون ؛ قاله ابن عباس وقتادة . ومنه قول امرئ القيس :

* فَسُلِّى ثِيابِى مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلِ *

ومنه قيل للولد نَسْل ؛ لأنه يخرج من بطن أمه . وقيل : يسرعون ، والنَّسَلان والعَسَلان الإسراع فى السير ، ومنه مشية الذئب ؛ قال(2) :

عَسَلانَ الذِّئبِ أَمْسَى قارِبًا * بَرَدَ الليلُ عليه فنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ ونَسَل يَعْسِل ويَنْسِل من باب ضرب يضرب ، ويقال : يَنْسُل بالضم أيضا وهو الإسراع فى المشى ، فالمعنى يخرجون مسرعين . وفى التنزيل : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) البيت للبيد ، وقيل هو للنابغة الجعدى .

إلّا كنفسٍ واحدةٍ» وقال: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ» وفى «سأل سائل»: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» أى يسرعون . وفى الخبر: شكونا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الضعف فقال " عليكم بالنَّسْل " أى بالإسراع فى المشى فإنه ينشط .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال آبن الأنبارى : « ياويلنا » وقف حسن ثم تبتدئ ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ . وروى عن بعض القراء « يَاوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا » بكسر مِن والثاء من البعث . روى ذلك عن علىّ رضى الله عنه ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله « يَا وَيْلَنَا » حتى يقول ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ . وفى قراءة أبىّ بن كعب « مَنْ هَبَّنَا » بالوصل « مِنْ مَرْقَدِنَا » فهذا دليل على صحة مذهب العامة . قال المهدوى : قرأ آبن أبى ليلى « قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا » بزيادة تاء وهو تأنيث الويل ومثله « يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » . وقرأ علىّ رضى الله عنه « يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعْثِنَا » فـ « مِن » متعلقة بالويل أو حال من « ويلتا » فتتعلق بمحذوف ، كأنه قال : ياويلتا كائنا مِن بعثنا ؛ وكما يجوز أن يكون خبرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه . و « مِن » من قوله « مِنْ مَرْقَدِنَا » متعلقة بنفس البعث . ثم قيل : كيف قالوا هذا وهم من المعذَّبين فى قبورهم ؟ فالجواب أن أبىّ بن كعب قال : ينامون نومة . وفى رواية فيقولون : ياويلنا من أَهَبَّنَا من مرقدنا . قال أبو بكر الأنبارى : لا يحمل هذا الحديث على أن « أَهَبَّنا » من لفظ القرآن كما قاله من طعن فى القرآن ، ولكنه تفسير « بعثنا » أو معبر عن بعض معانيه . قال أبو بكر : وكذا حفظته « مَن هَبَّنَا » بغير ألف فى أهبنا مع تسكين نون مَن . والصواب فيه على طريق اللغة « مَنَ اهَبَّنَا » بفتح النون على أن فتحة همزة أهبّ ألقيت على نون « من » وأسقطت الهمزة ؛ كما قالت العرب : مَنَ اخبرك مَنَ اعلمك ؟ وهم يريدون من أخبرك . ويقال : أهببتُ النائمَ فهبَّ النائمُ . أنشدنا أحمد بن يحيي النحوى :

وَعاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْــلٍ تَلُومُنِى　*　ولم يَعتمِرْنى قبلَ ذاكَ عَذولُ

وقال أبو صالح : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة ؛ فذلك قولهم : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » وقاله آبن

عباس وقتادة . وقال أهل المعانى : إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذّبوا به فى قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم . قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ . قال قتادة : فقال لهم من هـدى الله « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . وقال الفـراء : فقال لهم الملائكة « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هـدى الله عز وجل . وعلى هـذا يتأول قول الله عز وجل « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » وكذا الحديث : " المؤمن عند الله خير من كل ما خلق " . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . وقيـل : إن الكفار لما قال بعضهم لبعض « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » صدّقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ، ثم قالوا « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » فكذبنا به ؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار . وكان حفص يقف على « مِنْ مَرْقَدِنَا » ثم يبتدئ فيقول « هَذَا » . قال أبو بكر بن الأنبارى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » وقف حسن ؛ ثم تبتدئ «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ» ويجوز أن تقف على «مَرْقَدِنَا هَذَا » فتخفض هذا على الإتباع للرقد ، وتبتدئ « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » على معنى بَعْثُكم ما وعد الرحمن ، أى بَعْثُكم وعد الرحمن . النحاس : التمام على « مِنْ مَرْقَدِنَا » و « هَذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره «مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ» . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على النعت لـ «مَرْقَدِنَا» فيكون التمام « مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا » . « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » فى موضع رفع من ثلاث جهات . ذكر أبو إسحق منها آثنتين قال : يكون بإضمار هذا . والجهة الثانيـة أن يكون بمعنى حقّ ما وعد الرحمن بَعْثُكم . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بَعْثُكم ما وعد الرحمن . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعنى إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهى قول إسرافيل : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والشعور المتمزقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وهـذا معنى قوله الحق : « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » . وقال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي » على ما يأتى . وفى قراءة آبن مسعود إن صح عنه « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً

واحِدَةً » والزقية الصيحة؛ وقد تقدّم هذا . ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ « فَإِذَا هُمْ » مبتدأ وخبره « جَمِيعٌ » نكرة و « مُحْضَرُونَ » من صفته . ومعنى « مُحْضَرُونَ » مجموعون أحضروا موقف الحساب . وهو كقـوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ » . قوله تعـالى : ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى لا تنقص من ثواب عمل . ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ « ما » فى محل نصب من وجهين : الأول أنه مفعول ثانٍ لمـا لم يسمّ فاعله . والثانى بنزع حرف الصفة ؛ تقديره : إلا بمـا كنتم تعملون ؛ أى تعملونه فحذف .

قوله تعـالى : إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قال ٱبن مسعود وٱبن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم ٱفتضاض العَذَارى . وذكر الترمذىّ الحكيم فى كتاب مشكل القرآن له : حدّثنا محمد بن حميد الرّازى ، حدّثنا يعقوب القُمّى ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود فى قوله « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ » قال : شغلهم ٱفتضاض العَذَارى . حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا هرون بن المغيرة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ٱبن عباس بمثله . وقال أبو قِلَابة : بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلى مشغول ؛ فيقال تحوّل أيضا إلى أهلك . وقيل : أصحاب الجنة فى شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصى ومصيرهم إلى النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم ؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره . وقال وَكيع : يعنى فى السماع . وقال ٱبن كيسان : « فى شغل » أى فى زيارة بعضهم بعضا . وقيل : فى ضيافة الله تعالى . وروى أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين عبادى الذين

أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرى ، ركبانا على نجب من نور أزمتها من الياقوت ، تطير بهم على رءوس الخلائق ، حتى يقوموا بين يدى العرش ، فيقول الله جل وعز لهم : السلام على عبادى الذين أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم وأنا اخترتكم ، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب فـ«لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» . فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها . ثم إن الخلق فى المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : يا قوم أين فلان وفلان ؛ وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادى منادٍ «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ» . و«شُغُل» و«شُغْلٍ» لغتان قرئ بهما مثل الرُّعب والرُّعْب ، والسُّحُت والسُّحْت ؛ وقد تقدم[1] . ﴿فَاكِهُونَ﴾ قال الحسن : مسرورون . وقال ابن عباس : فرحون . مجاهد والضحاك : معجَبون . السدى : ناعمون . والمعنى متقارب . والفكاهة المزاح والكلام الطيب . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج «فَكِهُون» بغير ألف وهما لغتان كالفارِه والفرِه والحاذِر والحَذِر ؛ قاله الفراء . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكِه ذو الفاكهة مثل شاحِم ولاحِم وتامِر ولابِن ، والفكه المتفكّه والمتنعم . و«فَكِهون» بغير ألف فى قول قتادة معجَبون . وقال أبو زيد : يقال رجل فَكِه إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقرأ طلحة بن مُصرِّف «فاكِهين» نصبه على الحال . ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ مبتدأ وخبره . ويجوز أن يكون «هُمْ» توكيدا «وَأَزْوَاجُهُمْ» عطف على المضمر و«مُتَّكِئُونَ» نعت لقوله «فَاكِهُونَ» . وقراءة العامة «فِي ظِلَالٍ» بكسر الظاء والألف . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف «فِي ظُلَلٍ» بضم الظاء من غير ألف ؛ فالظلال جمع ظِلّ وظُلَل جمع ظُلّة . ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعنى السُّرر فى الحِجال واحدها أريكة مثل سفينة وسفائن ؛ قال الشاعر :

كأنّ احمرارَ الورد فوق غُصُونِه * بوقتِ الضحى فى روضةِ المتضاحِك
خُدودُ عذارَى قد خَجِلن من الحَيَا * تَهادَيْنَ بالريحان فوق الأرائِكِ

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدْن أبكارا" . وقال ابن عباس : إنّ الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكرا ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، فيجامعها بقوة سبعين رجلا ، لا يكون بينهما منىّ ؛ يأتى من غير منىّ منه ولا منها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء ، لأنه يفتعلون من دعا أى من دعا بشىء أُعطيه . قاله أبو عبيدة . فمعنى « يَدَّعُونَ » يتمنون من الدعاء . وقيل : المعنى أن من ادعى منهم شيئا فهو له ؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعى منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه . وقال يحيى بن سلّام : « يَدَّعونَ » يشتهون . ابن عباس . يسألون . والمعنى متقارب . قال ابن الأنبارى : « ولهُمْ مَا يَدَّعُونَ » وقف حسن ، ثم تبتدئ « سَلَامٌ » على معنى ذلك لهم سلام . ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « مَا يَدَّعُونَ » . وقال الزجاج : « سلام » مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلّم الله عليهم ، وهذا منَى أهلِ الجنة . وروى من حديث جرير بن عبدالله البَجَلىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ فرفعوا رءوسهم فإذا الربّ تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ » فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم فى ديارهم" ذكره الثعلبى والقشيرى . ومعناه ثابت فى صحيح مسلم وقد بيناه فى « يونس »(1) عند قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » . ويجوز أن تكون « ما » نكرة و « سَلَامٌ » نعتا لها ، أى ولهم ما يدعون مسلّم . ويجوز أن تكون « ما » رفع بالابتداء و « سلام » خبر عنها . وعلى هذه الوجوه لا يوقف على « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » . وفى قراءة ابن مسعود « سلامًا » يكون مصدرا ، وإن شئت فى موضع الحال ؛ أى ولهم

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلّما . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » .
وقرأ محمد بن كعب القُرَظى « سِلمٌ » على الاستئناف كأنه قال : ذلك سِلم لهم لا يتنازعون فيه
ويكون « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » تاما . ويجوز أن يكون « سلام » بدلا من قوله « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ »
وخبر « مَا يَدَّعُونَ » لهـم . ويجوز أن يكون « سَـلَامٌ » خبرا آخر ويكون معنى الكلام
أنه لهم خالص من غير منازع فيه . ﴿ قَوْلًا ﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولا . أو يقوله
قولا ودل على الفعل المحذوف لفظ مصـدره . ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولا
أى عِدة من الله . فعلى هـذا المذهب الثانى لا يحسن الوقف على « يَدَّعُونَ » . وقال
السجستانى : الوقف على قـوله « سـلَامٌ » تام ؛ وهـذا خطأ لأن القـول خارج
ممـا قبـله .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْـرِمُونَ ﴾ ويقال تميّزوا وآماز وا وآمتازوا بمعنى ؛
ومِزته فآنماز وآمتاز، وميّزته فتميّز . أى يقال لهم هـذا عند الوقوف للسـؤال حين يؤمر
بأهل الجنة إلى الجنـة ؛ أى آخرجوا من جملتهم . قال قتادة : عُزِلوا عن كل خير . وقال
الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس
فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبـدة الأوثان فرقة . وعنـه أيضا : إن لكل فرقة فى النار بيتا
تدخل فيه و يردّ بابه، فتكون فيه أبدا لا تَرى ولا تُرى . وقال داود بن الجراح : فيمتاز المسلمون
من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين .

قوله تعالى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية ، أى ألم أوصكم وأبلغتكم على ألسنة الرسل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطيعوه فى معصيتى . قال الكسائى : لا للنهى ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصل، ومن ضم كره كسرة بعدها ضمة . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادتى دين قويم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أى أغوى ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أى خلقا كثيرا ؛ قاله مجاهد . قتادة : جموعا كثيرة . الكلبي أمما كثيرة؛ والمعنى واحد . وقرأ أهل المدينة وعاصم « جِبِلًّا » بكسر الجيم والباء، وأبو عمرو وابن عامر « جُبْلًا » بضم الجيم و إسكان الباء ، الباقون « جُبُلًا » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، وشدّدها الحسن وابن أبى إسحق وعيسى ابن عمر وعبد الله بن عبيد والنضر بن أنس . وقرأ أبو يحيي والأشهب العقيلى « جِبْلًا » بكسر الجيم و إسكان الباء وتخفيف اللام . فهذه خمس قراءات . قال المهدوى والثعلبي : وكلها لغات بمعنى الخلق . النحاس : أبينها القراءة الأولى . والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا « والجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ » فيكون « جِبِلًّا » جمع جِبِلَّةٍ والاشتقاق فيه كله واحد . و إنما هو من جبل الله عز وجل الخلق أى خلقهم . وقد ذكرت قراءة سادسة وهى : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا » بالياء . وحكى عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل؛ ذكره الماوردى . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله . ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التى وعدتم فكذبتم بها . وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمع الله الإنس والجن والأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم أشرف عُنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادى منادٍ « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » فحينئذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " .

قوله تعالى : ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون ممّ أضحك — قلنا الله ورسوله أعلم قال — من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تُجِرني من الظُّلم قال يقول بلى فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلّا شاهدا منّى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه آنطقى قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسُحقاً فعنكنّ كنت أناضل" خرجه أيضا من حديث أبى هريرة . وفيه "ثم يقال له الآن نبعث شاهدَنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه][(١)] آنطقى فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" . وخرّج الترمذى عن معاوية بن حَيْدَة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى "فخذه وكفّه" الفِدام مِصْفاة الكوز والإبريق ؛ قاله الليث . قال أبو عبيد : يعنى أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذى يجعل على الإبريق . ثم قيل فى سبب الختم أربعة أوجه : أحدها — لأنهم قالوا

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

«وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» نختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم ؛ قاله أبو موسى الأشعرى. الثانى — ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم ؛ قاله ٱبن زياد. الثالث — لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق ؛ لخروجه مخرج الإعجاز، وإن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز. الرابع — ليعلم أن أعضاءه التى كانت أعوانا فى حق نفسه صارت عليه شهودا فى حق ربه . فإن قيل لم قال «وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ» فجعل ما كان من اليد كلاما وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل ؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدى بالقول ، وعما صدر من الأرجل بالشهادة . وقد روى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى" ذكره الماوردى والمهدوى . وقال أبو موسى الأشعرى : إنى لأحسب أن أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ؛ ذكره المهدوى أيضا . قال الماوردى : فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التى هى فى الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم فى الشهادة عليها . قال: وتقدمت اليسرى؛ لأن الشهوة فى ميامن الأعضاء أقوى منها فى مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قلت : أو بالعكس لغلبة الشهوة ، أو كلاهما معًا والكف ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ حكى الكسائى : طَمَس يَطمِس ويَطمُس . والمطموس والطَّمِيس عند أهل اللغة الأعمى الذى ليس فى عينيه شق . قال ٱبن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحق . وقال الحسن والسدى : المعنى لتركناهم عميًا يترددون . فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . وهذا ٱختيار الطبرى . وقوله : «فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ» أى ٱستبقوا الطريق ليجوزوا «فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ» أى فمن أين يبصرون . وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم ،

وأعميناهم عن غيِّهم ، وحوّلنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ، فاهتدوا وأبصروا رشدَهم ، وتبادروا إلى طريق الآخرة . ثم قال « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » ولم نفعل ذلك بهـم ؛ أى فكيف يهتدون وعين الهـدى مطموسة ، على الضلال باقية . وقـد روى عن عبد الله بن سـلام فى تأويل هذه الآية غير ما تقدّم ، وتأولها على أنها فى يوم القيامة . وقال : إذا كان يوم القيامة ومُدَّ الصراط ، نادى منادٍ ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، فيقومون برَّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط ، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّـارهم ، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه ، ثم ينادى منادٍ ليقم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمته فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل ، وكذا سائر الأنبياء عليهـم السلام . ذكره النحاس وقد كتبناه فى التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك فى رقائقـه . وذكره القشيرى . وقال ابن عباس رضى الله عنه : أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بنى مخزوم ليطرحه على النبى صـلى الله عليه وسلم ، فطمس الله على بصره ، وألصق الحجـر بيده ، فما أبصره ولا آهتدى ، ونزلت الآية فيه . والمطموس هو الذى لا يكون بين جَفنيه شَقّ ، مأخوذ من طَمس الريحُ الأثرَ ؛ قاله الأخفش والقتبى .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُـونَ ﴾ المسخ تبديل الخِلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة . قال الحسن : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم . وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة ، ثم تلك البهيمة لا تعقـل موضعا تقصده فتتحيّر ، فلا تُقبِل ولا تُدبِر . آبن عباس رضى الله عنه : المعنى لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم . وقيل : المعنى لو نشاء لمسخناهم فى المكان الذى اجترءوا فيه على المعصية . آبن سَلَام : هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط . وقرأ الحسن والسُّلَمى وزِرُّ بن حُبَيْش وعاصم فى رواية أبى بكر « مَكَانَاتِهِم » على الجمع : الباقون بالتوحيد : وقرأ أبو حَيْوة « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مَضِيًّا » بفتح الميم . والمضى بضم الميم مصدر مضى يَمضى مُضيًّا إذا ذهب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحمزة « نُنَكِّسْهُ » بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس . الباقون « نَنْكُسْهُ » بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أَنْكُسُه نَكْسًا قلبته على رأسه فانتكس . قال قتادة : المعنى أنه يصير إلى حال الهَرَم الذي يشبه حال الصبا . وقال سفيان في قوله تعالى « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوته . قال الشاعر :

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ * وخانه ثِقَتاه السَّمْعُ والبصرُ

فطول العمر يصيّر الشباب هَرَمًا ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا ، وهذا هو الغالب . وقد تعوّذ صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر . وقد مضى في « النحل » بيانه[1] . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنّ من فعل هذا بكم قادر على بعثكم . وقرأ نافع وابن ذكوان « تعقلون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — أخبر تعالى عن حال نبيه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر ، وإن القرآن شعر ، بقوله : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزِنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط صلى الله عليه وسلم . من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة :

سَتُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلًا * ويأتيكَ من لم تزوّدْه بالأخبار

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول :

ألم ترياني كلّما جئتُ طارقًا * وجدتُ بها وإن لم تَطَيَّبْ طِيبًا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٤٠ وما بعدها طبعه أولى أو ثانية .

وأنشد يوما :

أتجعلُ نَهْبِي ونَهْبَ العبيـ * ـدِ بين الأقرعِ وعُيَيْنَة

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم فى النادر . روى أنه أنشد بيت [عبد الله بن رَوَاحة] :

يَبِيتُ يُجافى جَنْبَهُ عن فراشه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

وقال الحسن بن أبى الحسن أنشد النبي عليه السلام :

* كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهيا *

فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرةَ ودِّعْ إن تجهزتَ غاديَا * كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء نَاهيَا

فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وعن الخليل بن أحمد : كان الشعر أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ولكن لا يتأتى له .

الثانية — إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتى أحيانا من نثر كلامه ما يدخل فى وزن ، كقوله يوم حنين وغيره :

" هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ * وفى سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ "

وقوله :

" أنَا النبيُّ لا كَذِبْ * أنا ابنُ عبدِ المطلبْ "

فقد يأتى مثل ذلك فى آيات القرآن ، وفى كل كلام وليس ذلك شعرا ولا فى معناه ؛ كقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وقوله : « نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » . وقوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكر ابن العربى منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال فى قوله : " أنا النبيّ لا كَذِبْ " ليس بشعر . وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . وروى عنه أنه من منهوك الرجز . وقد قيل :

لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على الباء من قوله : " لا كذب " . ومن قوله : " عبد المطلب " . ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال " لا كَذِبُ " الباء مرفوعة وبخفض الباء من عبد المطلِب على الإضافة . وقال النحاس قال بعضهم : إنما الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا ؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأوّل أو ضمها أو نوّنها ، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر . وقال بعضهم : ليس هذا الوزن من الشعر . وهذا مكابرة العيان ؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره . وأما قوله : " هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ " فقيل إنه من بحر السريع ، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت ، فإن سكن لا يكون شعرا بحال ؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعولْ ، ولا مدخل لفعول فى بحر السريع . ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع . والمعوّل عليه فى الانفصال على تسليم أن هذا شعر ، ويسقط الاعتراض ، ولا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالما بالشعر ولا شاعرا أن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره ، لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر ، ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء ، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا . قال أبو إسحق الزجاج : معنى « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » وما علمناه أن يشعر أى ما جعلناه شاعرا ، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى هذا . وقد قيل : إنما خبّر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ، ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا ، وهذا ظاهر الكلام . وقيل فيه قول بيّن ؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغة ، وذلك أنهم قالوا : كل من قال قولا موزونا لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر . وهذا قول بيّن . قالوا : وإنما الذى نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العلم بالشعر وأصنافه ، وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفا بذلك بالاتفاق ، ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم ، فقال بعضهم : نقول إنه شاعر . فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب ، فإنهم يعرفون

أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئا منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر[1] فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر. على ما يأتى بيانه من خبره فى سورة «فصلت» إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسْن البلغاء. ثم إن ما يجرى على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعرا، وإنما يعدّ منه ما يجرى على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدّثنا شيخ لنا وينادى ياصاحب الكسائى، ولا يعدّ هذا شعرا. وقد كان رجل ينادى فى مرضه وهو من عرض العامة العقلاء: آذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد آكتوى.

الثالثة — روى آبن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه فمن عيبه أن الله يقول «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» قال: ولقد بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى؛ أن آجمع الشعراء قِبلك؛ وسَلْهم عن الشعر، وهل بقى معهم معرفة؛ وأحضرْ لبيدا ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله. وسأل لبيدا فقال: ما قلت بيت شعر منذ سمعت الله عز وجل يقول: «الٓمٓ. ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» قال آبن العربى: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ» من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفى النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر. روى أن المأمون قال لأبى علىّ المِنْقرى: بلغنى أنك أمىّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال يا أمير المؤمنين: أما اللحن فربما سبق لسانى منه بشىء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتنى رابعا وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة، وهو فيك وفى أمثالك نقيصة. وإنما منع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لنفى الظنة عنه، لا لعيب فى الشعر والكتابة.

---

(١) أقراء الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده.

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى وما ينبغي له أن يقوله ، وجعل الله جلّ وعزّ ذلك علما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه ، فيظن أنه قوِى على القرآن بما فى طبعه من القوة على الشعر . ولا آعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول ؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر ، ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا ؛ على ما تقدّم بيانه . وقال الزجاج : معنى « وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أى ما يتسهّل له قول الشعر لا الإنشاء . ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى هذا الذى يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أى حىّ القلب ؛ قاله قتادة . الضحاك : عاقلا . وقيل : المعنى لتنذر من كان مؤمنا فى علم الله . هذا على قراءة التاء خطابا للنبيّ عليه السلام ، وهى قراءة نافع وآبن عامر . وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عز وجل ، أو لينذر محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، أو لينذر القرآنُ . وروى عن آبن السَّمَيْقَع « لِيَنْذَر » بفتح الياء والذال . ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ هذه رؤية القلب . أى أو لم ينظروا و يعتبروا ويتفكروا . ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أى مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة . و « ما » بمعنى الذى وحذفت الهاء لطول الاسم ، و إن جعلت « ما » مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء . ﴿أَنْعَامًا﴾ جمع نعم والنعم مذكر . ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ضابطون قاهرون . ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أى سخرناها لهم حتى يقود الصبيّ الجمل العظيم و يضربه و يصرّفه كيف شاء لا يخرج من طاعته . ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءة العامة بفتح الراء ؛ أى مركوبهم ، كما يقال ناقة

حَلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن وٱبن السَّمَيْقَع « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء على المصـدر . وروى عن عائشة أنهـا قرأت « فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ » وكذا فى مصحفها والرَّكوب والرَّكوبة واحد مثل الحَلوب والحَلوبة والحَمول والحَمولة . وحـكى النحويون الكوفيون : أن العرب تقول ٱمرأة صَبور وشَكور بغير هاء . ويقولون شاة حَلوبة وناقة رَكوبة ؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه، فحذفوا الهاء ممـا كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا ؛ كما قال[1] :

فيهـا ٱثنتانِ وأربعون حَلُوبَةً * سودًا كخافيةِ الغرابِ الأَسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم . فأما البصريون فيقولون حذفت الهاء على النسب . والحجة للقول الأول ما رواه الجرمى عن أبى عبيدة قال : الرَّكُوبة تكون للواحد والجماعة والرَّكُوب لا يكون إلا للجماعة . فعلى هذا يكون لتذكير الجمع . وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء لأنه مصـدر ؛ والرُّكُوب ما يركب . وأجاز الفرّاء « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ من لحمانها ﴿ وَلَهُـمْ فِيهَا مَنَافِـعُ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعنى ألبانها ؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التى لا نظير لها فى الواحد . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

قوله تعـالى : وَٱتَّخَـذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَـةً لَّعَلَّهُـمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُـمْ لَهُـمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُـمْ إِنَّا نَعْـلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَـةً ﴾ أى قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم ٱتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل . ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لمـا يرجون من نصرتها

(١) هو عنترة بن شدّاد .

لهم إن نزل بهم عذاب . ومن العرب من يقول لعله أن يفعل . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني الآلهة . و جمعوا بالواو والنون ؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعني الكفار ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للآلهة، ﴿ جُندٌ مُحْضَرُونَ ﴾ قال الحسن: يمنعون منهم و يدفعون عنهم. وقال قتادة: أي يغضبون لهم في الدنيا . وقيل : المعنى أنهم يعبدون الآلهة و يقومون بها، فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وقيل : إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرءون من عبادتهم . وقيل : الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم . وفي الخبر : إنه يمثّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار ، فهم لهم جند محضرون .

قلت : ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجمع اللهُ الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ أَلَا لِيتبعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمثَّل لصاحب الصّليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون" وذكر الحديث بطوله . ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ هذه اللغة الفصيحة . ومن العرب من يقول يُحْزِنك . والمراد تسلية نبيه عليه السلام أي لا يحزنك قولهم شاعر ساحر . وتم الكلام ثم آستأنف فقال: ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ ﴾ قال آبن عباس : الإنسان هو عبد الله بن أُبَيّ . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السَّهْمِيّ . وقال الحسن : هو أُبَيّ بن خلف الجُمَحِيّ .

وقاله ابن إسحق، ورواه ابن وهب عن مالك. ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء؛ نطف إذا قطر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أى مجادل فى الخصومة مبين للحجة. يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا. وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رَمَّ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أى ونسى أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة. أى جوابه من نفسه حاضر؛ ولهذا قال عليه السلام: "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" ففى هذا دليل على صحة القياس؛ لأن الله جل وعز احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى. «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» أى بالية. رَمَّ العظمُ فهو رَمِيمٌ ورِمَام. وإنما قال رميم ولم يقل رميمة؛ لأنها معدولة عن فاعلة؛ وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن إعرابه؛ كقوله: «وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا» أسقط الهاء؛ لأنها مصروفة عن باغية. وقيل: إن هـذا الكافر قال للنبي صـلى الله عليه وسـلم: أرأيت إن سحقتها وأذريتها فى الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى من غير شيء فهـو قادر على إعادتها فى النشأة الثانيـة من شيء وهو عَجْم الذَّنَب. ويقال عَجْبُ الذَّنَب بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أى كيف يبدئ ويعيد.

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن فى العظام حياة وأنها تنجس بالموت . وهو قول أبى حنيفة[(١)] و بعض أصحاب الشافعى . وقال الشافعى رضى الله عنه : لاحياة فيها . وقد تقدّم هـذا فى « النحل » . فإن قيل أراد بقوله : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ » أصحاب العظام، و إقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير فى اللغة، موجود فى الشريعة . قلنا : إنما يكون إذا آحتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، إذا البارى سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له ؛ فإن الإحساس الذى هو علامة الحياة موجود فيه ؛ قاله آبن العربى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ نبه تعالى على وحدانيته، ودل على كمال قدرته فى إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندىّ الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة تخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة . فأنزل الله تعالى : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا » أى إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار فهو القادر على إخراج الضّد من الضّد ، وهو على كل شىء قدير . و يعنى بالآية

---

(١) هـذا يخالف مذهب الحنفية وما تقدّم للؤلف فى جـ ١٠ ص ١٥٥ من أن أبا حنيفـة يقول بطهارة عظم الميتـــة .

ما فى المَرْخ والعَفَار، وهى زنادة العرب؛ ومنه قولهم: فى كل شجر نار وآستمجد المَرْخُ والعَفَار[1]، فالعَفَار الزَّنْد وهو الأعلى، والمَرْخ الزَّنْدة وهى الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحكّ بعضُهما إلى بعض فتخرج منهما النار . وقال : « مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ » ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ . ومن العرب من يقول : الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل : « مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ » . ثم قال تعالى محتجا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أى أمثال المنكرين للبعث . وقرأ سلّام أبو المنذر و يعقوب الحضرمى « يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » على أنه فِعْل . ﴿ بَلَى ﴾ أى إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذى خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم . ﴿ وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ ﴾ وقرأ الحسن بآختلاف عنه « الخَالِقُ » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ قرأ الكسائى « فَيَكُونَ » بالنصب عطفا على « يقول » أى إذا أراد خلق شىء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة . وقد مضى هذا فى غير موضع . ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك . وملكوتُ وملكُوتَى فى كلام العرب بمعنى ملك . والعرب تقول : جَبَرُوتَى خيرٌ مِن رَحَمُوتَى . وقال سعيد عن قتادة : « مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ » مفاتح كل شىء . وقرأ طلحة بن مصرّف وإبراهيم التيمى والأعمش « مَلَكَةُ » وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى تردّون وتصيرون بعد مماتكم . وقراءة العامة بالتاء على الخطاب . وقرأ السُّلَمىّ وزِرّ بن حُبَيْش وأصحاب عبد الله « يَرْجِعُونَ » بالياء على الخبر .

---

(١) آستمجد المرخ والعفار : أى آستكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما . وهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

تفسير سورة الصافات

مكية فى قول الجميع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءة أكثر القراء . وقرأ حمزة بالإدغام فيهنّ . وهذه القراءة التى نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها . النحاس : وهى بعيدة فى العربية من ثلاث جهات ؛ إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاى ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، وإنما أختاها الطاء والدال ، وأخت الزاى الصاد والسين ، وأخت الذال الظاء والثاء . والجهة الثانية أن التاء فى كلمة وما بعدها فى كلمة أخرى . والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين فى مثل هذا إذا كانا فى كلمة واحدة نحو دابة وشابة . ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف . « والصَّافَّاتِ » قسم ؛ الواو بدل من الباء . والمعنى برب الصافات « وَالزَّاجِرَاتِ » عطف عليه . ﴿إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم . وأجاز الكسائى فتح إن فى القسم والمراد بـ « الصافاتِ » وما بعدها إلى قوله : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة فى قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . تصفّ فى السماء كصفوف الخلق فى الدنيا للصلاة . وقيل : تصفّ أجنحتها فى الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد . وهذا كما تقوم العبيد بين أيدى ملوكهم صفوفا . وقال الحسن : « صَفًّا » لصفوفهم عند ربهم فى صلاتهم . وقيل : هى الطير ؛ دليله قوله

تعـالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ » . والصفّ ترتيب الجمع على خط كالصفّ في الصلاة . « والصَّافَّاتِ » جمـع الجمع ، يقال : جماعة صافة ثم يجمع صافّات . وقيـل : الصافّات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفّا فى الصلاة أو فى الجهاد ؛ ذكره القشيرى . « فَالزَّاجِرَاتِ » الملائكة فى قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه . إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه فى قول السـدّى . وإما لأنهـا تزجر عن المعاصى بالمواعظ والنصائح . وقال قتـادة : هى زواجر القرآن . « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسـدى . وقيل : المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع . وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله تعـالى وكتبه . وقيل : هى آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعـالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليـات ؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضا ؛ ذكره القشيرى . وذكر المـاوردى أن المـراد بالتاليات الأنبيـاء يتلون الذكر على أممهم . فإن قيـل : ما حكم الفـاء إذا جاءت عاطفـة فى الصفات ، قيل له : إما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود ؛ كقوله[1] :

يَالَهْفَ زَيَّابَةَ[1] للحارثِ الصَّـ * ـابِحِ فالغَـانِمِ فالآيِبِ

كأنه قال : الذى صَبَّح فغَنِم فآب . وإما على ترتبها فى التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها فى ذلك كقوله : رحم الله المحلِّقين فالمقصِّرين . فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة فى الصفات ؛ قاله الزمخشرى . « إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ » جواب القسم . قال مقاتل : وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلها واحدا ، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفا .

---

(١) هو سلمة بن ذهل ويعرف بابن زيابة وزيابة أبوه ، وقيل اسم أمه . يقول يالهف أبى على الحرث إذ صبح قومى بالغارة فغنم وآب سالما ألا أكون لقيته فقتلتـه . ويريد يالهف نفسى . والحرث هو الحرث بن همام الشيبانى كما فى شرح أشعار الحماسة . وبعد هذا البيت :

والله لو لاقيتـه خاليـا * لآب سـيفانا مع الغالب

ونزلت الآية . قال ابن الأنبارى : وهو وقف حسن ، ثم تبتدئ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات . النحاس : ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» خبرا بعد خبر ، ويجوز أن يكون بدلا من « وَاحِدٌ » .

قلت : وعلى هذين الوجهين لا يوقف على «لَوَاحِدٌ» . وحكى الأخفش «رَبَّ السَّمَوَاتِ — وَرَبَّ الْمَشَارِقِ » بالنصب على النعت لاسم إن . بيّن سبحانه معنى وحدانيته وألوهيته وكمال قدرته بأنه « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما ومالكهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى مالك مطالع الشمس . ابن عباس : للشمس كل يوم مشرق ومغرب ؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوّة فى مطلعها ، ومثلها فى مغربها على عدد أيام السنة الشمسية ، تطلع فى كل يوم فى كوّة منها ، وتغيب فى كوّة ، لا تطلع فى تلك الكوّة إلا فى ذلك اليوم من العام المقبل . ولا تطلع إلا وهى كارهة فتقول : ربّ لا تطلعنى على عبادك فانى أراهم يعصونك . ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد ، وابن الأنبارى فى كتاب الرد عن عكرمة ؛ قال : قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أميّة بن أبى الصَّلْت "آمن شعرُه وكفر قلبُه" قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ قلت : أنكرنا قوله :

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ * حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتوردُ
ليست بطالعةٍ لهم فى رِسْلِها * إلّا مُعذَّبةً وإلّا تُجْلَدُ

ما بال الشمس تُجْلَد؟ فقال : والذى نفسى بيده ما طلعت شمس قط حتى يَنخسها سبعون ألف ملك ، فيقولون لها اطلُعى اطلُعى ، فتقول لا أطلُع على قوم يعبدوننى من دون الله ، فيأتيها ملك فيستقلّ لضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع فتطلعُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما طلعت إلا بين قرنى شيطان ولا غربت إلا بين قرنى شيطان وما غربت قط إلا خَرَّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغرُب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها" لفظ ابن الأنبارى . وذكر

عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : صدّق رسول الله صلى الله عليــه وسلم أميّة بن أبى الصَّلْت فى هذا الشعر :

زُحَلٌ وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمينِــهِ * والنّسر للأخرى وليثٌ مُرْصَدُ

والشمسُ تَطلُعُ كلَّ آخرِ ليــلةٍ * حمراءَ يُصبِـحُ لونُها يتَــوَرَّدُ

ليست بطالعةٍ لهــم فى رِسْلِها * إلّا مُعــذَّبةً وإلّا تُجــلَدُ

قال عكرمة : فقلت لٱبن عباس يامولاى أتجلد الشمس؟ فقال : إنما ٱضطره الروىّ إلى الجلد لكنها تخاف العقــاب . ودلّ بذكر المطالع على المغارب ؛ فلهــذا لم يذكر المغارب ، وهو كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » . وخصّ المشارق بالذكر ؛ لأن الشروق قبل الغروب . وقال فى ســورة « الرحمن » « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلعُ منه الشمس فى الأيام الطوال، وأقصر يوم فى الأيام القصار على ما تقدّم فى « يس »(١) والله أعلم .

قوله تعـالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنيَا بِزِينَـةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتـادة : خلقت النجوم ثلاثا ؛ رجوما للشياطين، ونورا يهتدى بها ، وزينة لسماء الدنيا . وقرأ مسروق والأعمش والنّخعى وعاصم وحمزة « بِزِينَـةٍ » مخفوض منوّن « الْكَوَاكِبِ » خفض على البــدل من « زينة » لأنهــا هى . وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب « الكواكِب » بالمصدر الذى هو زينــة . والمعنى بأن زينا الكواكب فيهــا . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ؛ كأنه قال : إنا زيناها « بِزِينة » أعنى « الكواكِبَ » . وقيل : هى بدل من زينة على الموضع .

(١) راجع ص ٢٧ وما بعدها من هذا الجزء .

ويجوز « بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبُ » بمعنى بأن زينتها الكواكبُ . أو بمعنى هى الكواكبُ .
الباقون « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » على الإضافة . والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب .
أى بحسن الكواكب . ويجوز أن يكون كقراءة من نون إلا أنه حذف التنوين ٱستخفافا .
﴿ وَحِفْظًا ﴾ مصدر أى حفظناها حفظا . ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ لما أخبر أن الملائكة
تنزل بالوحى من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن ٱستراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب .
والمارد العاتى من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطانا .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ قال أبو حاتم : أى لئلا يسمعوا ثم حذف
أن فرفع الفعل . الملأ الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها، وسمى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى
ملإ الأرض . الضمير فى « يَسَّمَّعُونَ » للشياطين . وقرأ جمهور الناس « يَسْمَعُونَ » بسكون
السين وتخفيف الميم . وقرأ حمزة وعاصم فى رواية حفص « لا يَسَّمَّعُونَ » بتشديد السين
والميم من التسميع . فينتفى على القراءة الأولى سماعهم ، و إن كانوا يستمعون وهو المعنى
الصحيح . و يعضده قوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » . و ينتفى على القراءة الأخيرة
أن يقع منهم ٱستماع أو سماع . قال مجاهد : كانوا يتسمّعون ولكن لا يسمعون . و روى
عن ٱبن عباس « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ » قال : هم لا يسمّعون ولا يتسمعون . وأصل
« يَسَّمَّعُونَ » يتسمّعون فأدغمت التاء فى السين لقربها منها . وٱختارها أبو عبيد؛ لأن العرب
لا تكاد تقول سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه . ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أى يُرمون من
كل جانب؛ أى بالشّهب . ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر؛ لأن معنى « يُقْذَفُونَ » يُدحَرون . دحرته
دَحْرًا ودُحُورا أى طردته . وقرأ السُّلَمى و يعقوب الحضرمى « دَحُورًا » بفتح الدال يكون
مصدرا على فعول . وأما الفرّاء فإنه قدره على أنه ٱسم الفاعل . أى و يقذفون بما يدحرهم
أى بدحور ثم حذف الباء ؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيرا [كما أنشدوا](1) :

* تَمُرُّونَ الديارَ ولَمْ تَعوجُوا *

---

(1) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . والبيت لجرير وتمامه :
* كلامكم على إذن حرام *

وآختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؛ على قولين . وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتى من ذكرها فى سورة «الجن» عن آبن عباس . وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال : إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرمَى بالنجوم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم رميت ؛ أى لم تكن تُرمَى رميا يقطعها عن السمع ، ولكنها كانت تُرمَى وقتا ولا تُرمَى وقتا ، وتُرمَى من جانب ولا تُرمَى من جانب . ولعل الإشارة بقوله تعالى : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » إلى هـذا المعنى ، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصبا . و إنمـا كانوا من قبـل كالمتجسسة من الإنس ، يبلـغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويَسلَم واحد ولا يَسـلَم غيره ، بل يقبض عليه و يعاقب و ينكل . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زِيد فى حفظ السماء ، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل ؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء ، ولا يقروا فى مقعد من المقاعد التى كانت لهم منها ، فصاروا لا يقدرون على سماع شىء مما يجرى فيها ، إلا أن يختطف أحد منهم بخفّـة حركته خطفة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه ؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة . فإن قيل : إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فلم دام بعد النبي صلى الله عليه وسـلم ؟ فالجواب أنه دام بدوام النبوة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر ببطلان الكهانة فقال : " ليس منا من تكهّن " فلو لم تحرس بعـد موته لعادت الجنّ إلى تسّمعها ، وعادت الكهانة . ولا يجوز ذلك بعد أن بطل ، ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين ، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنمـا عادت لتناهى النبوّة ، فصح أن الحكمة تقتضى دوام الحراسة فى حياة النبي عليه السلام ، و بعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أى دائم ؛ عن مجاهـد وقتادة . وقال آبن عباس : شـديد . الكلبي والسدّى وأبو صالح : موجع ؛ أى الذى يصل وجعه إلى القلب ؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ آستثناء من قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » . وقيل : الاستثناء يرجع إلى غير

الوحى ؛ لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » فيسترق الواحد منهم شيئا مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ . وروى فى هذا الباب أحاديث صحاح ، مضمّنها أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذى يليه ثم الذى يليه، فيقضى الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذى تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيناه . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيناه فى « الأنعام »[(١)] . فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع بتة . والكواكب الراجمة هى التى يراها الناس تنقضّ . قال النقاش ومكى : وليست بالكواكب الجارية فى السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها ؛ لأنها قريبة منا . وقد مضى فى هذا الباب فى سورة « الحجر »[(٢)] من البيان ما فيه كفاية . وذكرنا فى « سبإ »[(٣)] حديث أبى هريرة . وفيه "والشياطين بعضهم فوق بعض" وقال فيه الترمذى حديث حسن صحيح . وفيه عن ابن عباس : "ويختطف الشياطين السمع فيُرمَون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حقّ ولكنهم يحرّفونه ويزيدون" . قال هذا حديث حسن صحيح . والخطف أخذ الشىء بسرعة ؛ [يقال][(٤)] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطِّفَ وخِطَفَ . والأصل فى المشدّدات اختطف فأدغم التاء فى الطاء ؛ لأنها أختها وفتحت الخاء ؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها . ومن كسرها فلالتقاء الساكنين . ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى مضىء ؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما . وقيل : المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم فى البحر . وقال ابن عباس فى الشهب : تحرقهم من غير موت . وليست الشهب التى يرجم الناس بها

---

(١) راجع ج ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع ج ١٠ ص ١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٣) راجع ج ١٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية .　(٤) زيادة يقتضيها السياق ، ويدل عليها ما فى إعراب القرآن للنحاس .

من الكواكب الثوابت . يدل على ذلك رؤية حركاتها ، والثابتة تجرى ولا ترى حركاتها لبعدها . وقد مضى هذا . وجمع شهاب شهب والقياس فى القليل أشهبة و إن لم يسمع من العرب . و « ثَاقِبٌ » معناه مضىء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز . ومنه قوله :

* وزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها *

أى أضوأ . وحكى الأخفش فى الجمع : شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثِقاب . وحكى الكسائى : ثَقَبتِ النارُ تَثْقُب ثَقابةً وثُقوبا إذا آتقدت وأثقبتها أنا . وقال زيد بن أسلم فى الثاقب : إنه المستوقد؛ من قولهم : أَثْقِب زَنْدَك أى آستوقد نارَك . وقاله الأخفش . وأنشد قول الشاعر :

بينما المـرءُ شِهابٌ ثاقبٌ * ضَربَ الدهرُ سَناه فَخَمَدْ

قوله تعالى : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى سلهم يعنى أهل مكة ؛ مأخوذ من آستفتاء المفتى . ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ قال مجاهد : أى من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار . وقيل : يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية . يدل على ذلك أنه أخبر عنهم « بمن » قال سعيد بن جبير : الملائكة . وقال غيره : « مَنْ » الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقا منهم . نزلت فى أبى الأشد بن كَلَدة ، سمى بأبى الأشد لشدّة بطشه وقوته . وسيأتى فى « البلد » ذكره . ونظير هذه « لَخَلْقُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ » . ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ أى لاصق ؛ قاله آبن عباس . ومنه قول علىّ رضى الله عنه :

تعــلَّمْ فإنَّ اللهَ زادكَ بَسطةً * وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لَازِبُ

وقال قتادة وآبن زيد : معنى « لَازِبٍ » لازق . الماوردى : والفرق بين اللّاصق واللّازق أن اللّاصق هو الذى قد لصق بعضه ببعض ، واللّازق هو الذى يلتزق بما أصابه . وقال عِكرمة : « لَازِبٍ » لزج . سعيد بن جبير : أى جيد حرّ يلصق باليد . مجاهد « لازب » لازم . والعرب تقول : طينٌ لازِب ولازِم ، تبدل الباء من الميم . ومثله قولهم لاتِب ولازِم . على إبدال الباء بالميم . واللازب الثابت ؛ تقول : صار الشيءُ ضربةَ لازبٍ، وهو أفصح من لازم . قال النابغة :

ولا تَحْسَبونَ الخيرَ لا شرَّ بعـدَهُ * ولا تَحْسَبونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ

وحكى الفرّاء عن العرب : طين لاتِب بمعنى لازِم . واللاتِب الثابت؛ تقول منه : لَتَبَ يَلْتُب لَتْباً ولُتُوبا ، مثل لَزَب يَلْزُب بالضم لزوبا ؛ وأنشد أبو الجرّاح فى اللّاتِب :

فإن يَكُ هـذا من نَبيذٍ شَرِبْتُهُ * فإنِّىَ من شُرْبِ النَّبيـذِ لَتَائِبُ

صُـدَاعٌ وتَوْصِيمُ العِظَامِ وفَتْرَةٌ * وغَمٌّ مع الإشْراقِ فى الجَوْفِ لَاتِبُ (١)

واللّاتب أيضا اللّاصق مثل اللّازب ، عن الأصمعى حكاه الجوهرى . وقال السدّى والكلبى فى اللّازب : إنه الخالص . مجاهد والضحاك : إنه المنتن .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به . وهى قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال :] (٢) إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقيل : المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء . وآختارها أبو عبيد والفرّاء وهى مروية عن علىّ وآبن مسعود ؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « بَلْ عَجِبْتُ » بضم التاء . ويروى عن آبن عباس . قال الفرّاء فى قوله سبحانه : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » قرأها الناس بنصب

(١) قوله : وغم مع الإشراق كرواية اللسان . ورواية الطبرى : وغثى مع الإشراق .

(٢) الزيادة من تفسير الألوسى .

التاء ورفعها والرفع أحبّ إلىّ؛ لأنها عن علىّ وعبد الله وآبن عباس . وقال أبو زكريا الفرّاء: العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ليس ذلك من الله كمعناه من العباد . وفى هـذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها . روى جرير والأعمش عن أبى وائل شَقِيق بن سَلَمة قال : قرأها عبد الله يعنى آبن مسعود « بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ » قال شريح : إن الله لا يعجب من شىء إنما يعجب من لا يعلم . قال الأعمش : فذكرته لإبراهيم فقال : إن شُرَيحًا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيْح وكان يقرؤها عبد الله « بَلْ عَجِبْتُ » . قال الهَرَوى: وقال بعض الأئمة معنى قوله : « بَلْ عَجِبْتُ » بل جازيتهم على عجبهم ؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الحق ؛ فقال : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » وقال : « إِنَّ هَـذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ » . « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ » فقال تعالى : « بَلْ عَجِبْتُ » بل جازيتهم على التعجب .

قلت : وهذا تمام معنى قول الفرّاء وآختاره البيهقى . وقال علىّ بن سليمان : معنى القراءتين واحد التقدير قل يا محمد بل عجبت ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن . النحاس : وهـذا قول حسن وإضمار القـول كثير . البيهقى : والأول أصح . المهدوى : ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولا على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين ؛ كما يُحمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه — على ما جاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم — على أنه أظهر له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازا وآتساعا . قال الهروىّ : ويقال معنى "عَجِبَ رَبُّكُمْ" أى رضى وأثاب فسماه عجبا وليس بعجب فى الحقيقة؛ كما قال تعالى : « وَيَمْكُرُ اللهُ » معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله فى الحديث "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطكم". وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عنـد الله عظيما . فيكون معنى قوله : « بل عجبت » أى بل عظم فعلهم عندى . قال البيهقى : ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "عجب ربك من شاب ليست له صبوة" وكذلك ما خرجه البخارى عن [أبى هريرة[١] عن النبى صلى الله عليه وسلم قال "عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل"] قال البيهقى : وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر فى السلاسل، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة . وقيل : معنى « بَلْ عَجِبْتُ » بل أنكرت . حكاه النقاش . وقال الحسين بن الفضل : التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه وهو لغة العرب . وقد جاء فى الخبر "عجب ربكم من إِلّكم وقُنوطكم" . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قيل : الواو واو الحال أى عجبت منهم فى حال سخريتهم . وقيل : تم الكلام عند قوله : « بَلْ عَجِبْتَ » ثم آستأنف فقال : « وَيَسْخَرُونَ » أى مما جئت به إذا تلوته عليهم . وقيل : يسخرون منك إذا دعوتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أى وعظوا بالقرآن فى قول قتادة . ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا ينتفعون به . وقال سعيد بن جبير . أى إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أى معجزة ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أى يسخرون فى قول قتادة . ويقولون إنها سحر . وآستسخر وسخر بمعنًى مثل آستقر وقر وآستعجب وعجب . وقيل : « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يستدعون السخرى من غيرهم . وقال مجاهد : يستهزئون . وقيل : أى يظنون أن تلك الآية سخرية . ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أى إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أى أنبعث إذا متنا . فهو آستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أى أو تبعث آباؤنا . دخلت ألف الآستفهام على حرف العطف . وقرأ نافع « أَوْ آبَاؤُنَا » بسكون الواو . وقد مضى هذا فى سورة « الأعراف »[٢] . فى قوله تعالى : « أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى » .

---

(١) الزيادة من البخارى وفى الأصل بياض .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أى نعم تبعثون . ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى صاغرون أذلاء؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون . وقيل: أى ستقوم القيامة وإن كرهتم ، فهذا أمر واقع على رغمكم و إن أنكرتموه اليـوم بزعمكم . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى صيحة واحدة ؛ قاله الحسن وهى النفخة الثانية . وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر ؛ أى يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق. ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قيام ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى ينظر بعضهم إلى بعض . وقيـل : المعنى ينتظرون ما يفعل بهـم . وقيل : هى مثل قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » . وقيل : أى ينظرون إلى البعث الذى أنكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهـم . وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين . وزعم الفرّاء أن تقديره يَاوَىْ لَنَا وَوَىْ بمعنى حُزْن . النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلا وهو فى المصحف متصل ، ولا نعـلم أحدا يكتبه إلا متصـلا . و « يَوْمُ الدِّينِ » يوم الحساب . وقيـل : يوم الجزاء . ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض، أى هذا اليوم الذى كذّبنا به . وقيل : هو من قول الله تعالى لهم . وقيل : من قول الملائكة؛ أى هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل . فـ« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » .

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة : « ٱحْشُرُوا » المشركين « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشياعهم فى الشرك ، والشرك الظلم ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فيحشر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر ابن الخطاب فى قول الله عز وجل : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » قال : الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقال ابن عباس : « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشباههم . وهذا يرجع إلى قول عمر . وقيل : « وَأَزْوَاجَهُمْ » نساؤهم المرافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب . وقال الضحاك : « وَأَزْوَاجَهُمْ » قرناءهم من الشياطين . وهذا قول مقاتل أيضا : يحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى من الأصنام والشياطين وإبليس . ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى سوقوهم إلى النار . وقيل : « فَٱهْدُوهُمْ » أى دُلّوهم . يقال هديته إلى الطريق وهديته الطريق؛ أى دللته عليه . وأهديتُ الهدية وهَديتُ العروسَ، و يقال أهديتها . أى جعلتها بمنزلة الهديّة .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ وحكى عيسى بن عمر « أَنَّهُمْ » بفتح الهمزة. قال الكسائى : أى لأنهم وبأنهم . يقال : وَقفتُ الدابةَ أقفها وَقْفا فوقفت هى وقوفا يتعدى ولا يتعدى ؛ أى آحبسوهم . وهذا يكون قبل السّوق إلى الجحيم وفيه تقديم وتأخير،

أى قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار . وقيل : يساقون إلى النار أولا ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار « إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ » عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القرظى والكلبى . الضحاك : عن خطاياهم . ابن عباس : عن لا إله إلا الله . وعنه أيضا : عن ظلم الخلق . وفى هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب . وقد مضى فى « الحجر »(١) الكلام فيه . وقيل سؤالهم أن يقال لهم « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ » إقامة للحجة . ويقال لهم ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ ؛ أى ينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله . وقيل : هو إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » . وأصله تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا، وشدّد البزّى التاء فى الوصل .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال قتادة : مستسلمون فى عذاب الله عز وجل . ابن عباس : خاضعون ذليلون . الحسن : منقادون . الأخفش : ملقون بأيديهم . والمعنى متقارب . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يعنى الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتخاصمون . ويقال لا يتساءلون فسقطت لا . النحاس : وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهم أن هذا من قوله « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم أسألك بالرحم الذى بينى وبينك لما نفعتنى أو أسقطت لى حقا لك علىّ أو وهبت لى حسنة . وهذا بيّن ؛ لأن قبله « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » أى ليس ينتفعون بالأنساب التى بينهم كما جاء فى الحديث " إن الرجل ليسر بأن يصح له على أبيه أو على ابنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات " . وفى حديث آخر " رحم الله امرءا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فاستحله قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب " . و « يَتَسَاءَلُونَ » هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا ويوبخه فى أنه أضله أو فتح له بابا من المعصية؛ يبين ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين . قتادة : هو قول الإنس للجن . وقيل : هو من قول

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

الأتباع للتبوعين : دليله قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » الآية . قال سعيد عن قتادة : أى تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها . وعن آبن عباس نحو منه . وقيل : تأتوننا عن اليمين التى نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح . والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح . وقيل : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » تأتوننا مجىء من إذا حلف لنا صدّقناه . وقيل : تأتوننا من قبل الدِّين فتهوّنون علينا أمر الشريعة وتنفّروننا عنها .

قلت : وهذا القول حسن جدا ؛ لأن من جهة الدّين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدّين. أى كنتم تزينون لنا الضلالة . وقيل : اليمين بمعنى القوة . أى تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر ؛ قال الله تعالى : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى بالقوّة وقوّة الرجل فى يمينه ؛ وقال الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ * تلقّاها عَرابةُ باليمينِ

أى بالقوّة والقدرة . وهذا قول آبن عباس . وقال مجاهد : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قبل الحق أنه معكم . وكله متقارب المعنى . ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا قول الشياطين لهم . وقيل : من قول الرؤساء ؛ أى لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة فى ترك الحق . ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أى ضالين متجاوزين الحد . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ هو أيضا من قول المتبوعين ؛ أى وجب علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذاب ، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . وهذا موافق للحديث " إن الله جلّ وعزّ كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم " . ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أى زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ بالوسوسة والاستدعاء . ثم قال خبرا عنهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ الضال والمضل . ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل هذا الفعل ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول .

و « يستكبرون » فى موضع نصب على خبر كان . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر إنّ وكان ملغاة . ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى طالب عند موته وآجتماع قريش "قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم" أبوا وأنفوا من ذلك . وقال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "أنزل الله تعالى فى كتابه فذكر قوما آستكبروا فقال « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ »" وقال تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » وهى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) آستكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدّة . ذكر هذا الخبر البيهقى والذى قبله القشيرى .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أى لقول شاعر مجنون ، فردّ الله جل وعز عليهم فقال : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد . ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون آستخفافا وخفضت للإضافة . ويجوز النصب كما أنشد سيبويه :

فألفيتُه غيرَ مُسْتَعْتِبٍ * ولا ذاكِرِ اللهَ إلّا قليلا

وأجاز سيبويه « والمقيمى الصَّلاةَ » على هذا . ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا بما عملتم من الشرك ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ آستثناء ممن يذوق العذاب . وقراءة أهل المدينة والكوفة « المخلَصين » بفتح اللام يعنى الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته . الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لله العبادة . وقيل : هو آستثناء منقطع ؛ أى إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعنى المخلصين ؛ أى لهم عطية معلومة لا تنقطع . قال قتادة : يعنى الجنة . وقال غيره : يعنى رزق الجنة . وقيل : هى الفواكه التى ذكر . قال مقاتل : حين يشتهونه . وقال ابن السائب : إنه بمقدار الغداة والعشىّ ؛ قال الله تعالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » . ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ جمع فاكهة ؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ » وهى الثمار كلها رطبها ويابسها ؛ قاله ابن عباس . ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أى ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه . ﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى فى بساتين يتنعمون فيها . وقد تقدّم أن الجنان سبع فى سورة « يونس »[1] منها النعيم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ قال عكرمة ومجاهد : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض تواصلا وتحاببا . وقيل : الأسرة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد . وقال ابن عباس : على سرر مكللة بالدرّ والياقوت والزبرجد ؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة . وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم . والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه ، فإن كان فارغا فليس بكأس . قال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح . النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أو أولى ثانية .

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيـه خمر فهو قدح؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة، فإذا لم يكن عليـه طعام لم تقل له مائدة . قال أبو الحسن ابن كيسان : ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة . وقال الزجاج : « بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » أى من خمـر تجرى كما تجرى العيـون على وجه الأرض . والمعين الماء الجارى الظاهر . ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ صفة للكأس . وقيل : للخمر . ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ قال الحسن : خمر الجنة أشدّ بياضا من اللبن . « لذة » قال الزجاج : أى ذات لذة فحذف المضاف . وقيـل : هو مصدر جعل آسمـا أى بيضاء لذيذة ؛ يقال شراب لَذٌّ ولذيذ مثل نبات غَضٌّ وغضيض . فأما قول القائل[1] :

ولذٍ كطَعْـمِ الصَّرْخَدِىِّ تركتُـهُ * بأرض العِدَا مِنْ خَشيةِ الحَدَثَانِ

فإنه يريد النوم . وقيـل : « بيضاء » أى لم يعتصرها الرجال بأقدامهـم . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أى لا تغتال عقولهم ، ولا يصيبهم منهـا مرض ولا صـداع . ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أى لاتذهب عقولهم بشربها، يقال : الخمر غول للحِلْم، والحرب غول للنفوس؛ أى تذهب بها . ويقال : نُزِف الرجل يُنْزَف فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر . قال آمرؤ القيس :

وإذ هى تَمشِى كمشى النَّزِيـ * ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البَهَرْ[2]

وقال أيضا :

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجـهٍ تمايلَتْ * تُراشِى الفؤادَ الرَّخْصَ ألّا تَخَتَّرَا[3]

وقال آخر[4] :

فلثمتُ فَاهَـا آخذًا بقرونهـا * شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

---

(١) هو الراعى . ويروى :

ولذ كطعـم الصرخدى طرحتـه * عشية خمس القوم والعين عاشقه

والصرخد موضع ينسب اليه الشراب . أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذارا لهم .

(٢) البهر : الكلال وانقطاع النفس . (٣) الختر : ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم . يقول : هى سكرى من الشراب ، اذا قامت به لوجه وجدت فتورا فى عظامها وكسلا ، فهى تدارى فؤادها وتراشيه ألا يعذبها فى مشيتها .

(٤) هو جميل بن معمر . وقيل البيت : لعمر بن أبى ربيعة . والحشرج نقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

وقرأ حمزة والكسائى بكسر الزاى من أنزف القومُ إذا حان منهم النّزْف وهو السّكر. يقال: أَحصَدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه، وأَقطفَ الكرمُ إذا حان قِطافُه، وأَركَبَ المهرُ إذا حان ركوبه . وقيل : المعنى لا ينفدون شرابهم ؛ لأنه دأبهم ؛ يقال : أَنْزفَ الرجلُ فهو منزوف إذا فنيت خمره . قال الحطيئة (١) :

لَعَمْرِي لئن أَنزفتمُ أو صَحَوْتمُ * لبئس النَّدامَى كنتم آلَ أَبْجَرَا

النحاس : والقراءة الأولى أبين وأصح فى المعنى ؛ لأن معنى « يُنْزَفُونَ » عند جِلّة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم ، فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التى تلحق فى الدنيا من خمرها من الصداع والسكر . ومعنى « يُنْزِفُونَ » الصحيح فيه أنه يقال : أنزف الرجل إذا نفد شرابه ، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة ؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبدا . وقيل : «لَا يُنْزِفُونَ» بكسر الزاى لا يسكرون ؛ ذكره الزجاج وأبو على ماذكره القشيرى . المهدوى : ولا يكون معناه يسكرون ؛ لأن قبله « لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى لا تغتال عقولهم فيكون تكرارا ؛ ويسوغ ذلك فى « الواقعة » . ويجوز أن يكون معنى «لَا فِيهَا غَوْلٌ» لا يمرضون فيكون معنى « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » لا يسكرون أو لا ينفد شرابهم . قال قتادة : الغول وجع البطن . وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد « لَا فِيهَا غَوْلٌ » قال لا فيها وجع بطن . الحسن : صداع . وهو قول ابن عباس « لَا فِيهَا غَوْلٌ » لا فيها صداع . وحكى الضحاك عنه أنه قال : فى الخمر أربع خصال ؛ السكر والصداع والقىء والبول ؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . مجاهد : داء . ابن كيسان : مغص . وهذه الأقوال متقاربة . وقال الكلبى : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى إثم ؛ نظيره « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » . وقال الشعبى والسدى وأبو عبيدة : لا تغتال عقولهم فتذهب بها . ومنه قول الشاعر :

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا * وتَذهبُ بالأولِ الأولِ

---

(١) نسبه الجوهرى إلى الأبيردى . وأبجر هو أبجر بن جابر العجلى وكان نصرانيا .

أى تصرع واحدا واحدا . وإنمـا صرف الله تعـالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهـم بنعيمهم . وقال أهل المعـانى : الغول فساد يلحق فى خفاء . يقال : آغتاله آغتيالا إذا أفسد عليه أمره فى خفية . ومنه الغول والغيلة وهو القتل خفية .

قوله تعـالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء قد قَصَرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله آبن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم . عكرمة : « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أى محبوسات على أزواجهنّ . والتفسير الأوّل أبين؛ لأنه ليس فى الآية مقصورات ولكن فى موضع آخر «مقصورات» يأتى بيانه، و«قاصرات» مأخوذ من قولهم : قد آقتصر على كذا إذا آقتنع به وعدل عن غيره؛ قال آمرؤ القيس :

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فَـوْقَ الإتْبِ منها لأَثَّرَا

ويروى : فوق الخد . والأول أبلغ . والإتب القميص ، والمحول الصـغير من الذر . وقال مجاهد أيضا : معناه لا يَغَرْن . ﴿ عِينٌ ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء؛ وقاله السدى . مجاهد : « عِينٌ » حسان العيون . الحسن : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها . والأول أشهر فى اللغة . يقال : رجل أعين واسع العين بيِّن العَيَن والجمع عِين . وأصله فُعل بالضم فكسرت العين؛ لئـلا تنقلب الواو ياء . ومنه قيـل لبقر الوحش عِين والثور أعين والبقرة عيناء . ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ أى مصون . قال الحسن وآبن زيد : شبهن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صـفرة وهو أحسن ألوان النساء . وقال آبن عبـاس وآبن جبير والسدى : شبهن ببطن البيض قبـل أن يقشر وتمسه الأيدى . وقال عطاء : شبهن بالسِّحاء الذى يكون بين القشرة العليا ولباب البيض . وسَحَاة كل شىء قشره والجمع سَحًا . قاله الجوهرى . ونحوه قول الطبرى؛ قال : هو القشر الرقيق الذى على البيضة بين ذلك . وروى نحوه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها . قال آمرؤ القيس :

وبيضةِ خِدرٍ لا يرامُ خِباؤُها * تمتعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

وتقول العرب إذا وصفت الشىء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطّى بالريش .
وقيل : المكنون المصون عن الكسر أى إنهن عذارى . وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ ؛
كقوله تعالى : « وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ » أى فى أصدافه . قاله ابن عباس
أيضا . ومنه قول الشاعر :

وهى بيضاءُ مِثلُ لُؤْلُؤةِ الغـ * ـوّاصِ ميزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع ؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم
فى الدنيا . وهو من تمام الأنس فى الجنة . وهو معطوف على معنى « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » المعنى
يشربون فيتحادثون على الشّراب كعادة الشُّراب . قال بعضهم :

وما بَقِيتْ من اللّذاتِ إلّا * أحاديثُ الكِرامِ على المُدامِ

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ؛ إلا أنه جىء به ماضيا على
عادة الله تعالى فى إخباره .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ أى من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أى صديق ملازم ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى بالبعث والجزاء . وقال سعيد بن جبير : قرينه شريكه . وقد مضى فى « الكهف » ذكرهما وقصتهما والاختلاف فى آسميهما مستوفى عند قوله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ »[1] وفيهما أنزل الله جل وعز « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ » إلى « مِنَ الْمُحْضَرِينَ » وقيل : أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث . وقرئ « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد . رواه علىّ بن كيسة عن سليم عن حمزة . قال النحاس : ولا يجوز « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » لأنه لا معنى للصدقة هاهنا . وقال القشيرى : وفى قراءة عن حمزة « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد وآعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق والاعتراض باطل؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فلا مجال للطعن فيها . فالمعنى « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بالمال طلبا فى ثواب الآخرة . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى مجزيون محاسبون بعد الموت فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لأهل الجنة ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ . وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين . وقيل : هو من قول الملائكة . وليس « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ » بآستفهام، إنما هو بمعنى الأمر أى آطلعوا؛ قاله آبن الأعرابى وغيره . ومنه لما نزلت آية الخمر، قام عمر قائما بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم قال : يا رب بيانا أشفى من هذا فى الخمر . فنزلت « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » قال: فنادى عمر آنتهينا ياربنا آنتهينا ياربنا . وقرأ آبن عباس : « هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ » بإسكان الطاء خفيفة « فَأُطْلِعَ » بقطع الألف مخففة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل . قال النحاس : « فَأُطْلِعَ فَرَآهُ » فيه قولان : أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا معناه فأطلع أنا، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام . والقول الثانى أن يكون فعلا ماضيا ويكون آطّلع وأُطلِعَ واحدا . قال الزجاج : يقال طَلَع وأَطْلع وآطّلع بمعنى واحد . وقد حكى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

« هَـلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ » بكسر النون وأنكره أبو حاتم وغيره . النحاس : وهو لحن لا يجوز ؛ لأنه جمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافا لكان هـل أنتم مُطْلِعِيّ ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله . وأنشدا :

هُمُ القـائلونَ الخـيرَ والآمِرونَهُ * إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما

وأنشد الفراء : والفاعلونه . وأنشد سيبويه وحده :

* ولم يَرْتَفِق والناسُ مُحتَضِرونَهُ [1] *

وهذا شاذ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هـذا لم يحتجّ به فى كتاب الله عز وجل ، ولا يدخل فى الفصيح . وقد قيل فى توجيهه : إنه أجرى ٱسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه ، فجرى «مُطْلِعُونِ» مجرى يطلعون . ذكره أبو الفتح عثمان بن جنى وأنشد :

أرايتَ إن جئتُ به أُمْلُودَا * مُرَجَّـلاً ويَلْبَسُ الـبُرُودَا

* أقائِلُنَّ أَحضِروا الشُّهُودَا [2] *

فأجرى أقائلنّ مجرى أَتقولُن . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ فى الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها . وكذلك قال كعب فيما ذكر ٱبن المبارك ؛ قال : إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا ٱطلع من بعض الكُوَى . قال الله تعـالى : «فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَـوَاءِ الْجَحِيمِ» أى فى وسط النار والحَسَكُ حواليه ؛ قاله ٱبن مسعود . ويقال : تعبت حتى ٱنقطع سَوائى . أى وسطى . وعن أبى عبيدة : قال لى عيسى بن عمر كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائى . وعن قتادة قال قال بعض العلماء : لولا أن الله جل وعز عرّفه إياه لمـا عرفه ، لقد تغيّر حِبْره وسِبْره [3] . فعند ذلك يقول : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَـتُرْدِينِ ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

(١) تمامه : * جميعا وأيدى المعتفين رواهقه *
يقول : غشيه المعتفون وهم السائلون ، واحتضره الناس جميعا للعطاء ، فجلس لهم جلوس متصرف متبذل غير مرتفق .
(٢) وروى : أحضرى ؛ خطاب للمرأة ، وهو الوجه ، على ما أورده الرضى فى خزانة الأدب حيث قال : ورواه العينى أحضروا بواو الجمع ولا وجه له . والرجز أورده السكرى فى أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ : أقائلون أعجلى الشهودا .
(٣) الحبر والسبر : اللون والهيئة .

تدخل على كان . ونحوه «إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا» واللام هى الفارقة بينها و بين النافية . ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فى النار . وقال الكسائى : « لَتُرْدِينِ » أى لتهلكنى والردى الهلاك . وقال المبرد : لو قيل « لتردينِ » لتوقعنى فى النار لكان جائزا . «وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى» أى عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء . وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف . «لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» قال الفراء : أى لكنت معك فى النار محضرا . وأحضر لا يستعمل مطلقا إلا فى الشر، قاله الماوردى .

قوله تعالى : ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرئ « بِمائِتِين » والهمزة فى « أَفَمَا » للاستفهام دخلت على فاء العطف، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذَّبين. ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى﴾ يكون آستثناء ليس من الأول و يكون مصدرا؛ لأنه منعوت. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت و يقال : ياأهل الجنة خلود ولا موت و ياأهل النار خلود ولا موت . وقيل : هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله فى أنهم لا يموتون ولا يعذّبون . أى هذه حالنا وصفتنا . وقيل : هو من قول المؤمن تو بيخا للكافر لما كان ينكره من البعث ، وأنه ليس إلا الموت فى الدنيا . ثم قال المؤمن مشيرا إلى ما هو فيه ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يكون «هو» مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إنّ. ويجوز أن يكون «هو» فاصلا . ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعدّ الله له فى الجنة وما أعطاه قال « لِمِثْلِ هَذَا » العطاء والفضل « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » نظير ما قال له الكافر « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » . ويحتمل أن يكون من قول الملائكة . وقيل : هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا . أى قد سمعتم ما فى الجنة من الخيرات والجزاء و « لِمِثْلِ هَذَا » الجزاء « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . النحاس : وتقدير الكلام — والله أعلم — فليعمل العاملون لمثل هذا، فإن قال قائل : الفاء فى العربية تدل على أن الثانى بعد الأول ، فكيف صار ما بعدها يُنْوى به التقديم ؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة .

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ مبتدأ وخبر وهو من قول الله جل وعز . ﴿ نُزُلًا ﴾ على البيان؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلا ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ خير نزلا . والنُّزُل فى اللغة الرزق الذى له سعة — النحاس — وكذا النُّزْل إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل باسكان الزاى لغة، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل ومنه أقيم للقوم نُزُلهم وآشتقاقه أنه الغِذاء الذى يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه . وقد مضى هذا فى آخر سورة « آل عمران[1] » وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها . قال المفسرون : وهى فى الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء، فلا بد لأهل النار من أن يتحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل . وآختلف فيها هل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا على قولين — أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا آختلفوا فيها؛ فقال قطرب : إنها شجرة مرة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل . القول الثانى : إنها لا تعرف فى شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية فى شجرة الزقوم قالت كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزُّبْد والتَّمْر . فقال ابن الزِّبَعْرى : أكثر الله فى بيوتنا الزقوم . فقال أبو جهل لجاريته : زَقِّمينا ؛ فأتته بزبد وتمر . ثم قال لأصحابه : تزقَّموا؛ هذا الذى يخوّفنا به محمد؛ يزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين ، وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة وهى تحرق الشجر ؟ وقد مضى هذا المعنى فى « سبحان »[1] وآستخفافهم فى هذا كقولهم فى قوله تعالى : «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» . ما الذى يخصص هذا العدد؟ حتى قال بعضهم : أنا أكفيكم منهم كذا فآكفونى الباقين . فقال الله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » والفتنة الآختبار ، وكان هذا القول منهم جهلا ، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار . وقيل : هذا الآستبعاد الذى وقع للكفار هو الذى وقع الآن للملحدة ، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أو عقاب تتخلله الأرواح ، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانى زوروها فى أنفسهم ، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع ، وإذا ورد خبر الصادق بشىء موهوم فى العقل ، فالواجب تصديقه وإن جاز أن يكون له تأويل ، ثم التأويل فى موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز ، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء من غير مصير الى علم الباطن . وقيل إنها فتنة أى عقوبة للظالمين ؛ كما قال : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى قعر النار ومنها منشؤها ثم هى متفرّعة فى جهنم . ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أى ثمرها ؛ سمى طلعا لطلوعه . ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ قيل : يعنى الشياطين بأعيانهم شبهها برءوسهم لقبحهم ، ورءوس الشياطين متصوَّر فى النفوس وإن كان غير مرئىّ . ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هو كصورة ملك . ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف : « مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » وهذا تشبيه تخييلى ؛ روى معناه عن آبن عباس والقُرَظى . ومنه قول آمرئ القيس :

* ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوالِ[2] *

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أراد بالمسنونة الزرق سهاما محددة الأزجة صافية . وصدر البيت :

* أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى *

وإن كانت الغُول لا تعرف؛ ولكن لما تصوّر من قبحها فى النفوس . وقد قال الله تعالى : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فمردة الإنس شياطين مرئية . وفى الحديث الصحيح " ولكأنّ نخلها رءوس الشياطين " وقد آدعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان . وقال الزجاج والفراء : الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما . قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف :

عَنْجَرِدٌ تَحْلِفُ حينَ أحلِفُ * كمِثْلِ شيطانِ الحَمَاطِ أَعْرَفُ

الواحدة حَمَاطة والأعرف الذى له عُرْف . وقال الشاعر يصف ناقته :

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرمىٍّ كأنّه * تَعَمُّجُ شيطانٍ بذى خِرْوَعٍ قَفْرِ

التَّعَمُّج الأعوجاج فى السير، وسهم عَمُوج يتلوّى فى ذهابه ، وتعَمَّجت الحية إذا تلوّت فى سيرها . وقال يصف زمام الناقة[(1)] :

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرمىٍّ كأنه * تَعَمُّجُ شيطانٍ بذى خِرْوَعٍ قَفْرِ

وقيل : إنما شبه ذلك بنبت قبيح فى اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان . قال النحاس : وليس ذلك معروفا عند العرب . الزمخشرى : هو شجر خشن منتن مرّ منكر الصورة يسمى ثمره رءوس الشياطين . النحاس : وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة . وقال فى « الغاشية » « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وسيأتى . ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أى بعد الأكل من الشجرة ﴿ لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشَّوب الخلط ، والشَّوْب والشُّوب لغتان كالفَقْر والفُقْر والفتح أشهر . قال الفراء : شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشىء يشوبهما شوبا وشيابة . فأخبر أنه يشاب لهم . والحميم الماء الحار ليكون أشنع . قال الله تعالى : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . السدى : يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم؛ تغليظا لعذابهم وتجديدا

---

(1) كذا فى الأصل ولعل العبارة والبيت هنا تكرار مع ما سبق ، وصواب العبارة الأولى « قال الشاعر يصف زمام ناقته » بزيادة لفظ زمام .

لبلائهم . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ قيل : إن هـذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم فى عذاب غير النار ثم يردّون إليها . وقال مقاتل : الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ؛ لقوله تعالى : « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وقرأ ابن مسعود « ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون « ثم » بمعنى الواو . القشيرى : ولعل الحميم فى موضع من جهنم على طرف منها .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أى صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم . ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أى يسرعون ؛ عن قتادة . وقال مجاهد : كهيئة الهرولة . قال الفراء : الإهراع الإسراع برعدة . وقال أبو عبيدة : « يُهْرَعُونَ » يُستحَثون من خلفهم . ونحوه قول المبرّد . قال : المُهْرَع المستحثّ ؛ يقال : جاء فلان يُهرَع إلى النار إذا استحثه البرد إليها . وقيل : يُزعَجون من شدّة الإسراع ؛ قاله الفضل . الزجاج : يقال هُرِع وأُهْرِع إذا استحث وأزعج .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى من الأمم الماضية . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى رسلا أنذروهم العذاب فكفروا . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين استخلصهم الله من الكفر. وقد تقدّم[1] . ثم قيل : هو استثناء من « المنذرين » . وقيل هو من قوله تعالى : « وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ » .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ من النداء الذى هو الاستغاثة ؛ ودعا قيل بمسئلة هلاك قومه . فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ قال الكسائى : أى « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » له كنا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يعنى أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين على ما تقدّم[1] . ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الغرق . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ؛ فذلك قوله : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . وقال سعيد بن المسيّب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح ، فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ، ويافث أبو الصقالبة والترك [واللان][2] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك . وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ؛ بدليل قوله : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ » . وقوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » فعلى هذا معنى الآية « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى الأصول : «والأبر» ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم والذى ذكره المسعودى وغيره واللان من ولد يافث .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى تركنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة ، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون . روى معناه عن مجاهد وغيره . وزعم الكسائى أن فيه تقديرين : أحدهما « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » يقال «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أى تركنا عليه هذا الثناء الحسن . وهذا مذهب أبى العباس المبرّد . أى تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له؛ وهو من الكلام المحكى؛ كقوله تعالى : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا » . والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه ؛ وتم الكلام ثم ابتدأ فقال : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أى سلامة له من أن يذكر بسوء « فِي الْآخِرِينَ » . قال الكسائى : وفى قراءة ابن مسعود « سلاما » منصوب بـ « تركنا » . أى تركنا عليه ثناء حسنا سلاما . وقيل : « فِي الْآخِرِين » أى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : فى الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبي إلا أمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا » . وقال سعيد ابن المسيّب : وبلغنى أنه من قال حين يمسى «سلامٌ على نوحٍ فِي العالمين» لم تلدغه عقرب . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وفى الموطأ عن خَوْلة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من نزل منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامّاتِ من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل" . وفيه عن أبى هريرة أن رجلا من أسلم قال : ما نمت هذه الليلة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أى شى" فقال : لدغتنى عقرب؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرّك" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نبقى عليهم الثناء الحسن . والكاف فى موضع نصب . أى جزاء كذلك . ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا بيان إحسانه . قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى من كفر . وجمعه أُخَر . والأصل فيه أن يكون معه «مِن» إلا أنها حذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخرا إلا وقبله شيء من جنسه . و « ثُمّ » ليس للتراخى ها هنا بل هو لتعديد النعم؛ كقوله : «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » أى ثم أخبركم أنى قد أغرقت الآخرين، وهم الذين تأخروا عن الإيمان .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أى من أهل دينه . وقال مجاهد : أى على منهاجه وسنته . قال الأصمعى : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد . وقال الكلبي والفراء : المعنى و إن من شيعة محمد لإبراهيم . فالهاء فى «شيعته» على هذا لمحمد عليه السلام . وعلى الأوّل لنوح وهو أظهر، لأنه هو المذكور أوّلا ، وما كان بين نوح و إبراهيم إلا نبيان هود وصالح، وكان بين نوح و إبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة . حكاه الزمخشرى .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى مخلص من الشرك والشك . وقال عوف الأعرابى : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح لله عز وجل فى خلقه . وذكر الطبرى عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجّاج : مسكين أبو محمد إن عذبه الله فبذنبه، و إن غفر له فهنيئا له ، و إن كان قلبه سليما فقد أصاب الذنوب من هو خير منه . قال عوف : فقلت لمحمد ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال هشام بن عروة : كان أبى يقول لنا : يا بَنِىّ لا تكونوا لَعّانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، فقال تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» . ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثانى عند إلقائه فى النار . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ وهو آزر وقد مضى الكلام[1] فيه . ﴿ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ تكون «ما» فى موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره . ويجوز أن تكون

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

«ما» و«ذا» فى موضع نصب بـ«تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به بمعنى أتريدون إفكا . قال المبرّد : والإفك أسوأ الكذب، وهو الذى لايثبت و يضطرب، ومنه ٱئتفكت بهم الأرض . ﴿آلِهَةً﴾ بدل من إفك ﴿دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ أى تعبدون . و يجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين . ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره فهو تحـذير، مثل قوله : «مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» . وقيل : أى شىء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره .

قوله تعـالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ قال ٱبن زيد عن أبيه : أرسل إليه ملكهم إن غدًا عيدُنا فٱخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمى . وكان علم النجوم مستعملا عنـدهم منظورا فيه ، فأوهمهم هو من تلك الجهـة، وأراهم من معتقدهم عذرا لنفسه ؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظـر فى النجوم . وقال ٱبن عباس : كان علم النجوم من النبوّة، فلما حبس الله تعـالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيهـا عِلمًا نبويا . وحكى جُوَيبر عن الضحاك : كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى عليه السلام ، حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منـه ، فقالت لهم مريم : من أين علمتم بموضعه ؟ قالوا : من النجوم . فدعا ربه عند ذلك فقـال : اللهم لا تفهمهم فى علمها ، فلا يعلم علم النجوم أحد ؛ فصار حكمها فى الشرع محظورا ، وعلمها فى الناس مجهولا . قال الكلبى : وكانوا فى قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هرمزجرد[1]، وكانوا ينظرون فى النجوم . فهذا قول . وقال الحسن : المعنى أنهم لمـا كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل . فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى؛ أى فيما طلع له منـه، فعلم أن كل حىّ يسقم فقال : «إِنِّى سَـقِيمٌ» . الخليل والمبرد : يقال للرجل إذا فكر فى الشىء يدبِّره نظر فى النجوم . وقيل : كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فيها الحُمّى . وقيل : المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا

(١) ذكر هذا الاسم الطبرى فى تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ليدن م ١

ومدبِّرا، وأنه يتغير كتغيرها فقال : « إِنِّى سَقِيمٌ » . وقال الضحاك : معنى « سَقِيمٌ » سأسقم سقم الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم فى الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملك لما سأله عن سارّة هى أختى؛ يعنى أخوّة الدين . وقال ٱبن عباس وٱبن جبير والضحاك أيضا : أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدى كالطاعون، وكانوا يَهرُبُون من الطاعون، « فَـ »ـلذلك « تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أى فارّين منه خوفا من العدوى . وروى الترمذى الحكيم قال : حدثنا أبى قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ٱبن عباس . وعن سَمُرة عن الهَمْدانى عن ٱبن مسعود قال قال أبو إبراهيم : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا . فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال إنى سقيم أشتكى رجلى، فوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى فى آخرهم « وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . قال أبو عبد الله : وهذا ليس بمعارِض لما قال ٱبن عباس وٱبن جبير؛ لأنه يحتمل أن يكون قد ٱجتمع له أمران .

قلت : وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "لَمْ يكذبْ إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات"[1] الحديث . وقد مضى فى سورة « الأنبياء » . وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وإنما عرّض لهم . وقد قال جلّ وعزّ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . فالمعنى إنى سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة . وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا، ومنه المثل السائر « كَفَى بالسلامة داءً »[2] وقول لبيد :

فدعوتُ ربِّى بالسَّلامَةِ جاهِدًا * لِيُصِحَّنِى فإذا السَّلامَةُ داءُ

وقد مات رجل بجأة فالتف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابى : أصحيح من الموت فى عنقه ! فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم وٱصطفائهم عُدّ هذا ذنبا؛ ولهذا قال « وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » وقد مضى هذا كله مبينا والحمد لله[3] . وقيل : أراد سقيم النفس لكفرهم . والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحدا مصدرا .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) رواه الديلمى فى مسند الفردوس حديثا عن ابن عباس بإسناد ضعيف . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٠٠ و جـ ١٣ ص ١١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ قال السدى : ذهب إليهم . وقال أبو مالك : جاء إليهم . وقال قتادة : مال إليهم . وقال الكلبى : أقبل عليهم . وقيل : عَدَل . والمعنى متقارب . فراغ يَروغ رَوْغا ورَوَغانا إذا مال . وطريق رائغ أى مائل . وقال الشاعر :

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلَاوة * ويَرُوغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ نخاطبها كما يخاطب من يعقل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة . وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ . قيل : كان بين يدى الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم . وقيل : تركوه للسَّدَنة . وقيل : قرّب هو إليها طعاما على جهة الاستهزاء؛ فقال: «أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ» . ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس . وقيل : المراد باليمين اليمين التى حلفها حين قال : «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ» . وقال الفراء وثعلب : ضربا بالقوة واليمين القوة . وقيل : بالعَدْل واليمين ها هنا العَدْل . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » أى بالعدل، فالعدل لليمين والجور للشمال . ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصى عن الشمال والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال : « إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قِبل الطاعة . فاليمين هو موضع العدل من المسلم والشمال موضع الجور . ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق؛ فالبيعة باليمين؛ فلذلك يُعطَى كتابه غدا بيمينه؛ لأنه وفى بالبيعة، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله؛ لأن الجور هناك . فقوله : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى بذلك العدل الذى كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا . فجعل تلك الأوثان جُذاذا، أى فُتاتا كالجذيذة

وهى السَّويق وليس من قبيل القوة ؛ قاله الترمذى الحكيم . ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة « يُزِفُّونَ » بضم الياء . الباقون بفتحها . أى يسرعون ؛ قاله ابن زيد . قتادة والسدى : يمشون . وقيل : المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء . وقيل: المعنى يتسللون تسللا بين المشى والعَدْو ؛ ومنه زَفِيف النعامة . وقال الضحاك : يسعون . وحكى يحيى بن سلام : يُرعَدون غضبا . وقيل : يختالون وهو مشى الخيلاء؛ قاله مجاهد . ومنه أُخذ زِفاف العروس إلى زوجها . وقال الفرزدق :

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ قبلَ إِفالِهَا * يَزِفُّ وجاءت خَلْفَه وهى زُفَّفُ[1]

ومن قرأ « يُزِفُّونَ » فمعناه يزفون غيرهم أى يحملونهم على التزفيف . وعلى هذا فالمفعول محذوف . قال الأصمعى : أزففت الإبل أى حملتها على أن تَزِفّ . وقيل : هما لغتان يقال زَفّ القومُ وأزفُّوا وزففت العروسَ وأزففتها وآزدففتها بمعنى ، والمِزفّة المِحفّة التى تُزَفّ فيها العروس . حكى ذلك عن الخليل . النحاس : « يُزِفُّونَ » بضم الياء زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبّهها بقولهم : أطردت الرجل أى صيرته إلى ذلك وطردته نحيته ؛ وأنشد هو وغيره :

تَمَنَّى حُصينٌ أن يسودَ جِذَاعَةً * فأمسى حُصينٌ قد أُذِلَّ وأُقْهِرَا[2]

أى صير إلى ذلك ؛ فكذلك « يُزِفّون » يصيرون إلى الزفيف . قال محمد بن يزيد : الزفيف الإسراع . وقال أبو إسحق : الزفيف أول عَدْو النعام . وقال أبو حاتم : وزعم الكسائى أن قوما قرءوا « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ » خفيفة من وَزَف يَزِف مثل وَزَن يَزِن . قال النحاس : فهذه حكاية أبى حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائى شيئا . وروى الفراء وهو صاحب الكسائى عن الكسائى أنه لا يعرف « يَزِفُونَ » مخففة . قال الفراء : وأنا لا أعرفها . قال

---

(١) القريع : الفحل المختار للضراب . الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس ، وهى الناقة التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر بخف لبنها . و إفالها : صغارها . ويزف : يعدو . يريد أن القريع يفر من شدة البرد وكذا الإفال .

(٢) البيت للمخبل السعدى يهجو الزبرقان وقومه ، وهم المعروفون بالجذاع . والأصمعى يرويه كما فى اللسان مادة قهر؛ قد أذل وأقهرا بالبناء للعلوم ؛ أى صار أمره إلى الذل والقهر .

أبو إسحق : وقد عرفها غيرهما [أنه يقال](١) وَزَف يَزِف إذا أسرع . قال النحاس : ولا نعلم أحدا قرأ يَزِفون .

قلت : هى قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوى . الزمخشرى : و « يُزَفُّونَ » على البناء للمفعول ؛ و « يُزْفُونَ » من زَفَاه إذا حَدَاه ؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليـه . وذكر الثعلبى عن الحسن ومجاهد وآبن السَّمَيْقع « يَرْفُونَ » بالراء [من] رفيف النعام وهو ركض بين المشى والطيران .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فيه حذف ؛ أى قالوا من فعل هـذا بآلهتنا ، فقال محتجا : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أى أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم تجرُونها . والنّحت النجـر والبرى ؛ نحته ينحِته بالكسر نحتـا أى براه والنُّحاتة البُرَاية والمِنحَت ما ينحت به . ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرهمـا . كقوله : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ » وقيل : إن « ما » آستفهام ومعناه التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه . والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا ، والتقدير والله خلقكم وعملكم . وهذا مذهب أهل السنة أن الأفعال خلقٌ لله عز وجل وآكتسابٌ للعباد . وفى هذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية . وروى أبو هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله خالق كل صانع وصنعته " ذكره الثعلبى . وخرّجه البيهقى من حديث حُذَيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله عز وجل صـنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه " وقد بيناهما فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا ﴾ أى تشاوروا فى أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدّم فى « الأنبياء »[١] بيانه فـ« قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَانًا » تملئونه حطبا فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم . قال ٱبن عباس : بنوا حائطا من حجارة طوله فى السماء ثلاثون ذراعا ، وملئوه نارا وطرحوه فيها . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار فى البنيان قال : حسبى الله ونعم الوكيل . والألف واللام فى « الجحيم » تدل على الكناية ؛ أى فى جحيمه ؛ أى فى جحيم ذلك البنيان . وذكر الطبرى أن قائل ذلك ٱسمه الهيزن[٢] رجل من أعراب فارس وهم الترك ، وهو الذى جاء فيه الحديث " بينما رجل يمشى فى حُلّة له يتبختر فيها فخسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة " والله أعلم . ﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا ﴾ أى بإبراهيم والكيد المكر أى ٱحتالوا لإهلاكه . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم .

قوله تعالى : وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى » أى مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى فإنه « سَيَهْدِينِ » فيما نويت إلى الصواب . قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة ، إلى الأرض المقدّسة وهى أرض الشام . وقيل : ذاهب بعملى وعبادتى وقلبى ونيتى . فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن . وقد مضى بيان هذا فى « الكهف »[٣] مستوفى . وعلى الأول بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٣ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) تقدم فى جـ ١١ ص ٣٠٣ أن اسمه هيزر .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وقيل : خرج إلى حرّان فأقام بها مدّة . ثم قيل : قال ذلك لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخا لهم . وقيل : قاله لمن هاجر معه من أهله فيكون ذلك منه ترغيبا . وقيل : قال هذا قبل إلقائه فى النار . وفيه على هذا القول تأويلان : أحدهما — إنى ذاهب إلى ما قضاه علىّ ربى . الثانى — إنى ميت كما يقال لمن مات قد ذهب إلى الله تعالى ؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه فى النار، على المعهود من حالها فى تلف ما يلقى فيها ، إلى أن قيل لها « كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا » فحينئذ سلم إبراهيم منها . وفى قوله « سيهدين » على هذا القول تأويلان : أحدهما — « سَيَهْدِينِ » إلى الخلاص منها. الثانى — إلى الجنة . وقال سليمان ابن صُرَد وهو ممن أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم : لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار جعلوا يجمعون له الحطب، فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول : أذهب به إلى هذا الذى يذكر آلهتنا ؛ فلما ذُهِب به ليطرح فى النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى » فلما طرح فى النار قال : (حسبى الله ونعم الوكيل) فقال الله تعالى : « يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا » فقال أبو لوط وكان ابن عمه : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته منى . فأرسل الله عنقا من النار فأحرقه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لما عرفه الله أنه مخلصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به فى غربته . وقد مضى فى «آل عمران»[(١)] القول فى هذا . وفى الكلام حذف أى هب لى ولدا صالحا من الصالحين وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ أى إنه يكون حليما فى كبره فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم فى « هود »[(٢)] . ويأتى أيضا فى « الذاريات »[(٣)] .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِى إِن

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) فى تفسير آية ٢٨ من السورة المذكورة .

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ (١٠٨) سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١١٢) وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)

فيــه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ ﴾ أى فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذى يسعى مع أبيــه فى أمور دنياه معينا له على أعمــاله ﴿ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ . وقال مجاهد : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى شب وأدرك سعيُه سعىَ إبراهيم . وقال الفراء : كان يومئذ آبن ثلاث عشرة سنة . وقال آبن عباس : هو الاحتلام . قتادة : مشى مع أبيه . الحسن ومقاتل : هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة . آبن زيد : هو السعى فى العبادة ، آبن عباس : صام وصلى ألم تسمع الله عز وجل يقول «وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا» .

وآختلف العلمــاء فى المأمور بذبحــه . فقال أكثرهم : الذبيح إسحق . وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وآبنه عبد الله وهو الصحيح عنه . روى الثورى وآبن جريج يرفعانه إلى آبن عباس قال : الذبيح إسحق . وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له : يابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم . وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم

صلى الله عليه وسلم" . وروى أبو الزبير عن جابر قال : الذبيح إسحق . وذلك مروى أيضا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وعن عبد الله بن عمر أن الذبيح إسحق . وهو قول عمر رضى الله عنه . فهؤلاء سبعة من الصحابة . وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعْبى ومجاهد وسعيد بن جُبَير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبى بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط[1] والزهرىّ والسدىّ وعبد الله بن أبى الهذيل ومالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحق . وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس[2] والطبرى وغيرهما . قال سعيد بن جبير : أُرِىَ إبراهيمُ ذبح إسحق فى المنام ، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من مِنًى ؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسيرة شهر فى رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال . وهذا القول أقوى فى النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين . وقال آخرون : هو إسمعيل . وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة . وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا ، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشّعبى ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظىّ والكلبى وعلقمة . وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد :

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسمعيلُ * نَطَقَ الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيَّنا * وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أمّتَه فلا تُنكِرْ لهُ * شرفًا به قد خَصّه التفضيلُ

وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسمعيل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم " أن الذبيح

(١) فى التهذيب قال ابن أبى خيثمة سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبدالله بن سابط ومن قال عبد الرحمن ابن سابط فقد أخطأ ، وكذا ذكره البخارى . وفى اسم أبيه خلاف .

(٢) فى نسخة : النقاش .

إسمعيل " والأول أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن التابعين . وآحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع آمرأته سارة وآبن أخيه لوط فقال : « إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ » أنه دعا فقال : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ » فقال تعالى : « فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ » ؛ ولأن الله قال : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » فذكر أن الفداء فى الغلام الحليم الذى بُشِّر به إبراهيمُ وإنما بُشِّر بإسحق ؛ لأنه قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَـٰقَ » وقال هنا : « بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد له إسمعيل ، وليس فى القرآن أنه بُشر بولد إلّا إسحق . آحتج من قال إنه إسمعيل : بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق فى قوله تعالى : « وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ » وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد فى قوله : « إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به ؛ ولأن الله تعالى قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا » فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا ، وأيضا فإن الله تعالى قال : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ » فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد فى يعقوب . وأيضا ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة ، فدل على أن الذبيح إسمعيل ، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس . وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع ؛ أما قولهم : كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبيا ، فإنه يحتمل أن يكون المعنى ؛ وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان ؛ قاله آبن عباس . وسيأتى . ولعله أُمِر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب . ويقال لم يرد فى القرآن أن يعقوب يولد من إسحق وأما قولهم : ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدّم . وقال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وهذا مذهب ثالث .

الثانية — قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات . وقال محمد بن كعب :

كانت الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظا ورقودا، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهـذا ثابت فى الخـبر المرفوع . قال صلى الله عليه وسـلم : "إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا" . وقال آبن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ؛ وآستدل بهـذه الاية . وقال السدى : لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذًا لله ذبيح . فقيل له فى منامه : قد نذرت نذرا فَفِ بنـذرك . ويقال : إن إبراهيم رأى فى ليـلة التروية كأن قائلا يقول : إن الله يأمرك بذبح آبنك، فلما أصبح رَوَّى فى نفسـه أى فَكَّر أهذا الحُلْم من الله أم من الشيطان؟ فسمّى يوم التَّرْوية . فلما كانت الليلة الثانيـة رأى ذلك أيضا وقيل له الوعد ، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمى يوم عرفة . ثم رأى مثـله فى الليلة الثالثـة فهَمَّ بنحره فسمى يوم النَّحْر . وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر . فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر . فقال إبراهـيم : الله أكبر والحمـد لله . فبقى سُنة . وقد آختلف الناس فى وقوع هذا الأمر وهى :

الثالثـة — فقال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقـع الذبح، ولو وقع لم يتُصوَّر رفعه ، فكان هـذا من باب النسخ قبـل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من آمتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفِداء . وقوله تعـالى : ﴿ قَـدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ : أى حققت ما نبهناك عليه، وفعلت ما أمكنك ثم آمتنعت لما منعناك . هذا أصح ما قيل به فى هـذا الباب . وقالت طائفة : ليس هـذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشىء قطعته . وآستدل على هـذا بقول مجاهد : قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إلىّ فترحمنى ، ولكن آجعـل وجهى إلى الأرض ، فأخذ إبراهيم السكين فأمرها على حلقه فانقلبت . فقال له مالَكَ ؟ قال : آنقلبت السكين . قال آطعنّى بها طعنا . وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءا التأم . وقالت طائفة : وجد حلقه نحاسا أو مغشًّى بنحاس ، وكان كلما أراد قطعا وجد منعا . وهذا كله جائز فى القدرة الإلهية، لكنه يفتقر الى نقل صحيح، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر . ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعـالى تعظيما لرتبة إسمعيـل

وإبراهيم صلوات الله عليهما ، وكان أولى بالبيان من الفداء . وقال بعضهم : إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فرى الأوداج وإنهار الدم ، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي ، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم . وأيضا لو صحت هذه الأشياء لما احتيج الى الفداء .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم « مَاذَا تُرِى » بضم التاء وكسر الراء من أرى يُرِى . قال الفراء : أي فانظر ماذا ترى من صبرك وجزعك . قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره ، وإنما قال العلماء ماذا تشير ؛ أي ما تريك نفسك من الرأي . وأنكر أبو عبيد « تُرِى » وقال : إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة . وكذلك قال أبو حاتم . النحاس : وهذا غلط ، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور ، يقال : أريت فلانا الصواب وأريته رشده ، وهذا ليس من رؤية العين . الباقون « تَرَى » مضارع رَأَيْتَ . وقد روى عن الضحاك والأعمش « تُرَى » غير مسمى الفاعل . ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله ، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله ، أو لتقر عينه إذا رأى من ابنه طاعة في أمر الله ف﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بِهِ *

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء ؛ كقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » أي اصطفاهم على ما تقدم[1] . و « ما » بمعنى الذي . ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ قال بعض أهل الإشارة : لما استثنى وفقه الله للصبر . وقد مضى الكلام في « يا أبتِ » وكذلك في « يَا بُنَيَّ » في « يوسف »[2] وغيرها .

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية . وج ٢ ص ١٣٦ طبعة ثانية .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أى انقادا لأمر الله . وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعلىّ رضوان الله عليهم « فَلَمَّا سَلَّمَا » أى فوضا أمرهما إلى الله . وقال ابن عباس : استسلما . وقال قتادة : أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ابنه . ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال قتادة : كبه وحول وجهه إلى القبلة . وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » فديناه بكبش . وقال الكوفيون : الجواب « نَادَيْنَاهُ » والواو زائدة مقحمة، كقوله : « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا » أى أوحينا . وقوله : « وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ » أى اقترب . وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ » أى قال لهم . وقال امرؤ القيس :

* فلما أجزنا ساحة الحىّ وانتحى (١) *

أى انتحى والواو زائدة . وقال أيضا :

حتى إذا حملت بطونكم * ورأيتم أبناءكم شبوا
وقلبتم ظهر المجن لنا * إن اللئيم الفاجر الخب

أراد قلبتم . النحاس : والواو من حروف المعانى لا يجوز أن تزاد . وفى الخبر : إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن، وأسرع مرّ السكين على حلقى ليكون الموت أهون علىّ واقذفنى للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهى فترحمنى؛ ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع، وإذا أتيت إلى أمى فأقرئها منى السلام . فلما جرّ إبراهيمُ عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس، فلم تعمل السكين شيئا ، ثم ضرب به على جبينه وحزّ فى قفاه فلم تعمل السكين شيئا . فذلك قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » كذلك قال ابن عباس : معناه كبه على وجهه فنودى « يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » فالتفت فإذا بكبش . ذكره المهدوى . وقد تقدمت الإشارة إلى عدم صحته، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل ؛ هذا بهيئة

---

(١) تمامه : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

الذبح ، وهذا بصورة المذبوح، أعطيا محلا للذبح فداء ولم يكن هناك مر سكين . وعلى هذا يتصور النسخ قبل الفعل على ما تقدم. والله أعلم. قال الجوهري: "وتلّه للجبين" أى صرعه؛ كما تقول : كبه لوجهه. الهروى : والتل الدفع والصرع ؛ ومنه حديث أبي الدرداء، رضى الله عنه: "وتركوك لمتلّك" أى لمصرعك. وفى حديث آخر: "فجاء بناقة كوماء فتلّها" أى أناخها. وفى الحديث "بينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلّت فى يدى" قال ابن الأنبارى: أى فألقيت فى يدى؛ يقال: تللت الرجل إذا ألقيته. قال ابن الأعرابى : فصبّت فى يدى؛ والتلّ الصبّ ، يقال : تلّ يتُلّ إذا صبّ ، وتلّ يتِلّ بالكسر إذا سقط . قلت : وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ ؛ فقال للغلام : " أتأذن لى أن أعطى هؤلاء " فقال الغلام : لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا . قال : فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده؛ يريد جعله فى يده. وقال بعض أهل الإشارة: إن إبراهيم ادعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة؛ فقيل له : يا إبراهيم اذبح ولدك فى مرضاتى، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال : اللهم تقبله منى فى مرضاتك . فأوحى الله إليه : يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا ، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك . وقال كعب وغيره : لما أرى إبراهيم ذبح ولده فى منامه، قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا . فتمثل الشيطان لهم فى صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت لا . قال : إنه يذهب به ليذبحه. قالت : كلا هو أرأف به من ذلك. فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه . ثم أتى الغلام فقال : أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لا . قال : فإنه يذهب بك ليذبحك . قال ولم ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره الله به ، سمعا وطاعة لأمر الله . ثم جاء إبراهيم فقال : أين تريد ؟ والله إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك

بذبح آبنك . فعرفه إبراهيم فقال : إليك عنى يا عدوّ الله فوالله لأمضين لأمر ربى . فلم يصب ، الملعون منهم شيئا . وقال آبن عباس : لما أمر إبراهيم بذبح آبنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى . وآختلف فى الموضع الذى أراد ذبحه [فيه] فقيل : بمكة فى المقام . وقيل : فى المنحر بمنى عند الجمار التى رمى بها إبليس لعنه الله ، قاله آبن عباس وآبن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيّب . وحكى عن سعيد بن جبير أنه ذبحه على الصخرة التى بأصل ثَبِير بِمِنًى . وقال آبن جُرَيج : ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين . والأول أكثر ؛ فإنه ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة ، فدل على أنه ذبحه بمكة . وقال آبن عباس : فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام ، و إن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس . أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام : لعل الرأس حمل من الشام الى مكة . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نجزيهم بالخلاص من الشدائد فى الدنيا والآخرة . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى النعمة الظاهرة . يقال : أَبلاه الله إِبْلاءً وبَلاءً إذا أنعم عليه . وقد يقال : بَلاهُ . قال زهير :

* فأَبْلاهما خيرَ البلاءِ الذى يَبْلُو[1] *

فزعم قوم أنه جاء باللغتين . وقال آخرون : بل الثانى من بَلاهُ يَبْلُوه إذا آختبره ، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه ، ولا يقال من الابتلاء يبلوه . وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر ؛ قال الله عز وجل : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . وقال أبو زيد : هذا من البلاء الذى نزل به فى أن يذبح آبنه ؛ قال : وهذا من البلاء المكروه .

(١) صدر البيت : * جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم *

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذِّبح اسم المذبوح وجمعه ذبوح، كالطِّحْن اسم المطحون . والذَّبح بالفتح المصدر . « عَظِيمٍ » أى عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح ؛ أو لأنه متقبل . قال النحاس : عظيم فى اللغة يكون للكبير وللشريف . وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف ، أو المتقبّل . وقال ابن عباس : هو الكبش الذى تقرّب به هابيل، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله به إسمعيل . وعنه أيضا : إنه كبش أرسله الله من الجنة كان قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال الحسن : ما فدِى إسمعيل إلا بتيس من الأروى هبط عليه من ثَبِير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه، وهذا قول على رضى الله عنه . فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ابنه . وقال : يا بنى اليوم وُهِبت لى . وقال أبو إسحق الزجاج : قد قيل أنه فدى بوعل والوعل التيس الجبلى . وأهل التفسير على أنه فُدِى بكبش .

الثامنة — فى هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر . وهذا مذهب مالك وأصحابه . قالوا : أفضل الضحايا الفحول من الضأن، وإناث الضأن أفضل من فحول المعز، وفحول المعز خير من إناثها، وإناث المعز خير من الإبل والبقر . وحجتهم قوله سبحانه وتعالى : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أى ضخم الجثة سمين، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة . وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل إنى نذرت أن أنحر ابنى فقال : يجزيك كبش سمين ثم قرأ « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » . وقال بعضهم : لو علم الله حيوانا أفضل من الكبش لفدى به إسحق . وضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين . وأكثر ما ضحى به الكباش . وذكر ابن أبى شيبة عن ابن عُلَيّة عن الليث عن مجاهد قال : الذِّبح العظيم الشاة .

التاسعة — واختلفوا أيما أفضل الأضحية أو الصدقة بثمنها . فقال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية . حكاه أبو عمر . وقال ابن المنذر : وروينا عن بلال أنه قال : ما أبالى ألا أضحى إلا بديك ولأن أضعه فى يتيم قد ترِب فيه —

هكذا قال المحدث — أحب إلىّ من أن أضحى به . وهذا قول الشعبي إن الصدقة أفضل .
وبه قال مالك وأبو ثور . وفيه قول ثانٍ : إن الضحية أفضل؛ هذا قول ربيعة وأبي
الزناد . وبه قال أصحاب الرأى . زاد أبو عمر وأحمد بن حنبل قالوا : الضحية أفضل
من الصدقة؛ لأن الضحية سنّة مؤكدة كصلاة العيد . ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من
سائر النوافل . وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كله . قال أبو عمر : وقد روى
فى فضل الضحايا آثار حسان، فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبي زَنْبَر عن مالك عن ثور بن
زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من نفقة بعد
صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم" قال أبو عمر : وهو حديث غريب من حديث
مالك . وعن عائشة قالت : يأيها الناس ضحوا وطيبوا أنفسا؛ فإنى سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : "ما من عبد توجه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها
حسناتٍ محضراتٍ فى ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع فى التراب فإنما يقع فى حِرْز الله حتى
يوفيه صاحبه يوم القيامة" ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد . وخرجه الترمذى أيضا عنها أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما عمِل آدميٌّ من عملٍ يوم النحرِ أحبَّ إلى الله من
إهراق الدم إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها وإنّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ
قبل أن يقع إلى الأرض فطِيبوا بها نفسا" قال : وفى الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن
أَرْقَم . وهذا حديث حسن .

العاشرة — إن الضحية ليست بواجبة ولكنها سنّة ومعروف . وقال عكرمة : كان
ابن عباس يبعثنى يوم الأضحى بدرهمين أشترى له لحما، ويقول : من لقيتَ فقل هذه أضحية
ابن عباس . قال أبو عمر : ومحمل هذا وما روى عن أبي بكر وعمر أنهما لا يضحيان عند
أهل العلم؛ لئلا يعتقد فى المواظبة عليها أنها واجبة فرض، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم
ممن ينظر فى دينه إليهم؛ لأنهم الواسطة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين أمته، فساغ لهم
من الاجتهاد فى ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم . وقد حكى الطحاوى فى مختصره : وقال

أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. قال : وتجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذى تجب عليه عن نفسه . وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها فى تركها . قال : وبه نأخذ . قال أبو عمر : وهذا قول مالك؛ قال : لا ينبغى لأحد تركها مسافرا كان أو مقيما ، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنى . وقال الإمام الشافعى : هى سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنى وليست بواجبة . وقد احتج من أوجبها بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بُرْدة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى ؛ لأن ما لم يكن فرضا لا يؤمر فيه بالإعادة . احتج آخرون بحديث أمّ سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحى " قالوا فلو كان ذلك واجبا لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّى . وهو قول أبى بكر وعمر وأبى مسعود البدرىّ وبلال .

الحادية عشرة — والذى يضحى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية؛ وهى الضأن والمعز والإبل والبقر . قال ابن المنذر : وقد حكى عن الحسن بن صالح أنه قال : يضحى ببقرة الوحش عن سبعة وبالظبى عن رجل . وقال الإمام الشافعى : لو نزا ثور وحشى على بقرة أنسية أو ثور أنسى على بقرة وحشية لا يجوز شىء من هذا أضحية . وقال أصحاب الرأى : جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه . وقال أبو ثور : يجوز إذا كان منسوبا إلى الأنعام .

الثانية عشرة — قد مضى فى سورة « الحج »[1] الكلام فى وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : " ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما " فى رواية قال " ويقول بسم الله والله أكبر " وقد مضى فى آخر « الأنعام »[2] حديث عِمران بن حُصَين ومضى فى « المائدة »[3] القول فى التذكية وبيانها وما يُذكّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمّه مستوفى . وفى صحيح مسلم

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمر بكبش أقرن يطأ فى سواد و يبرك فى سواد وينظر فى سواد فأتى به ليضحى به" فقال لها : "يا عائشة هَلُمِّى المدية" ثم قال "أشحذيها بحجر" ففعلت ، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : "بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد" ثم ضحى به . وقد آختلف العلماء فى هذا فكان الحسن البصرى يقول فى الأضحية : بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان . وقال مالك : إن فعل ذلك فحسن، و إن لم يفعل وسمى الله أجزأه . وقال الشافعى : والتسمية على الذبيحة بسم الله، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر الله ، أو صلى على محمد عليــه السلام لم أكرهه ، أو قال اللهم تقبل منى، أو قال تقبل من فلان فلا بأس . وقال النعمان : يكره أن يذكر مع آسم الله غيره؛ يكره أن يقول : اللهم تقبل من فلان عنــد الذبح . وقال : لا بأس إذا كان قبــل التسمية وقبل أن يضجع للذبح . وحديث عائشة يرد هــذا القول . وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لمـا أراد ذبح آبنه : الله أكبر والحمد لله . فبقى سنة .

الثالثة عشرة — روى البَراء بن عازِب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل؛ ماذا يُتَّقَى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : "أربعا — وكان البراء يشير بيده و يقول يدى أقصر من يد رســول الله صلى الله عليه وسلم — العرجاء البيِّن ظَلَعُها والعوراء البيِّن عَوَرُها والمريضة البيِّن مرَضُها والعجفاء التى لا تُنْقِى[1]" لفظ مالك ولا خلاف فيه . وآختلف فى اليسير من ذلك . وفى الترمذى عن علىّ رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نَستَشرِف[2] العين والأذن وألّا نضحّى بمقابَلة ولا مُدابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء . قال : والمقابَلة ما قطع طرف أذنها ، والمدابَرة ما قطِع من جانب الأذن ، والشَّرقاء المشقوقة ، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح . وفى الموطإ عن نافع : أن عبد الله بن عمر كان يَتَّقِى من الضحايا والبــدن التى لم تُسْنَن والتى نقص من خَلْقها . قال مالك : وهذا أحبّ ما سمعت إلى . قال

(١) النقى : مخ العظام وشحمها . يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها .

(٢) نستشرف ؛ يعنى نتطلع العين والأذن ، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب .

القتبي : لم تُسنَّن أى لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَ أسنانا . وهذا كما يقال : فلان لم يُلْبَن أى لم يُعطَ لبنا ، ولم يُسمَن أى لم يُعطَ سمنا ، ولم يُعسَل أى لم يُعطَ عسلا[1] . وهذا مثل النهى فى الأضاحى عن الهتماء . قال أبو عمر : ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة ، فإن كانت ساقطة الأسنان وهى فتية لم يجز أن يضحى بها ؛ لأنه عيب غير خفيف . والنقصان كله مكروه وشرحه وتفصيله فى كتب الفقه . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم "استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم" ذكره الزمخشرى .

الرابعة عشر — ودلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فَدَى به إبراهيم ابنه ؛ قاله ابن عباس . وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فَدَى بها عبد المطلب ابنه . روى الروايتين عنه الشعبي . وروى عنه القاسم بن محمد : يجزيه كفارة يمين . وقال مسروق : لا شيء عليه . وقال الشافعى : هو معصية يستغفر الله منها . وقال أبو حنيفة : هى كلمة يلزمه بها فى ولده ذبح شاة ولا يلزمه فى غير ولده شيء . وقال محمد : عليه فى الحلف بنحر عبده مثل الذى عليه فى الحلف بنحر ولده إذا حنث . وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال أنا أنحر ولدى عند مقام إبراهيم فى يمين ثم حنث فعليه هديٌ . قال : ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراده فلا شيء عليه . قال : ومن جعل ابنه هديا أهدى عنه ؛ قال القاضى ابن العربى : يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة ؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا ، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة ، وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة ؛ لأن الله تعالى قال :

---

(١) عقب صاحب لسان العرب فى مادة « سنن » على رواية القتبي وتفسيره بقوله : « وقد وهم القتبي فى الرواية والتفسير ؛ لأنه روى الحديث "لم تسنن" بفتح النون الأولى ، وإنما حفظه من محدّث لم يضبطه ، وأهل الثبت والضبط رووه "لم تسنن" بكسر النون وهو الصواب فى العربية ، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف لسكون النون الأخيرة ، كما يقال : لم يجلل . وإنما أراد ابن عمر أنه يضحى بأضحية لم تثن ؛ أى لم تصر ثنية وإذا أثنت فقد أسنت . ثم قال : وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقوله : سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح ، وقوله : لم يلبن ولم يسمن أى لم يعط لبنا وسمنا غير صحيح ، وإنما معناهما لم يطعم سمنا ولم يسق لبنا » .

« مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » والإيمان التزام أصلى والنذر التزام فرعى فيجب أن يكون محمولا عليه . فإن قيل كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز . قلنا هذا اعتراض على كتاب الله ، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام ، فكيف بمن يفتى فى الحلال والحرام ، وقد قال الله تعالى : « آفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » والذى يجلو الإلباس عن قلوب الناس فى ذلك أن المعاصى والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان ، و إنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال ، والمعصية عبارة عما تعلق به النهى من الأفعال ، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسمعيل من إبراهيم صار طاعة وآبتلاء ، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » فى الصبر على ذبح الولد والنفس ، ولما تعلق النهى بنا فى ذبح أبنائنا صار معصية . فإن قيل : كيف يصير نذرا وهو معصية . قلنا إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوى الفداء ؟ فإن قيل : فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء ؟ قلنا : لو قصد ذلك لم يضره فى قصده ولا أثر فى نذره ؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى على إبراهيم ثناء جميلا فى الأمم بعده ، فما من أمة إلا تصلى عليه وتحبه . وقيل : هو دعاء إبراهيم عليه السلام « وَآجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » . وقال عكرمة : هو السلام على إبراهيم أى سلاما منا . وقيل : سلامة له من الآفات مثل « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » حسب ما تقدم . ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال آبن عباس : بشر بنبوته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين[1] ؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحق بشر بنبوته جزاء على صبره و رضاه بأمر ربه وآستسلامه له . ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ﴾ أى ثنينا عليهما النعمة . وقيل كثرنا ولدهما ؛ أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده ، وعلى إسحق حين أخرج أنبياء بنى

---

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين .

إسرائيل من صلبه . وقد قيل : إن الكناية فى « عَلَيْهِ » تعود على إسمعيل وأنه هو الذبيح . قال المفضل : الصحيح الذى يدل عليه القرآن أنه إسمعيل وذلك أنه قصّ قصّة الذبيح، فلما قال فى آخر القصّة : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » قال : « وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إسمعيل « وَعَلَى إِسْحَقَ » كنى عنه؛ لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا » فدل على أنها ذرية إسمعيل و إسحق، وليس تختلف الرواة فى أن إسمعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة .

قلت : قد ذكرنا أوّلا مايدل على أن إسحق أكبر من إسمعيل، وأن المبشر به هو إسحق بنص التنزيل؛ فإذا كانت البشارة باسحق نصّا فالذبيح لاشك هو إسحق ، و بشر به إبراهيم مرتين؛ الأولى بولادته والثانية بنبوّته؛ كما قال ابن عباس، ولا تكون النبوّة إلا فى حال الكبر و« نبيا » نصب على الحال والهاء فى « عليه » عائدة إلى إبراهيم وليس لإسمعيل فى الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه . وأما ماروى من طريق معاوية قال : سمعت رجلا يقول للنبى صلى الله عليه وسلم يابن الذبيحين؛ فضحك النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قال معاوية : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله ، فسهّل الله عليه أمرها، فوقع السّهم على عبد الله، فمنعه أخواله بنو مخزوم؛ وقالوا : أفد ابنك ؛ ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح ، و إسمعيل هو الذبيح الثانى فلا حجة فيه؛ لأن سنده لايثبت على ماذكرناه فى كتاب «الأعلام فى معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام» ؛ ولأن العرب تجعل العم أبا؛ قال الله تعالى : « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ » وقال تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » وهما أبوه وخالته . وكذلك ماروى عن الشاعر الفرزدق عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم لو صح إسناده فكيف والفرزدق فى نفسه مقال .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لما ذكر البركة فى الذرية والكثرة قال : منهم محسن ومنهم مسىء، وأن المسىء لاتنفعه بنوة النبوّة، فاليهود والنصارى

و إن كانوا من ولد إسحق ، والعرب و إن كانوا من ولد إسمعيل ، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسىء والمؤمن والكافر ، وفى التنزيل : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُه » الآية ؛ أى أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلا . وقد تقدّم.[1]

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَـٰرُونَ ﴾ لما ذكر إنجاء إسحق من الذبح ، وما منّ به عليه بعد النبوة ، ذكر ما منّ به أيضا على موسى وهرون من ذلك . وقوله : ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ قيل : من الرق الذى لحق بنى إسرائيل . وقيل من الغرق الذى لحق فرعون . ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ قال الفراء : الضمير لموسى وهرون وحدهما ؛ وعلى هذا إن الآثنين جمع ؛ دليله قوله : « وَآتَيْنَاهُمَا » « وَهَدَيْنَاهُمَا » . وقيل : الضمير لموسى وهرون وقومهما وهذا هو الصواب ؛ لأن قبله « وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا » . و ﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ التوراة ؛ يقال آستبان كذا أى صار بيّنا ، وآستبانه فلان مثل تبين الشىء بنفسه وتبينه فلانٌ . و ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الدّين القويم الذى لا آعوجاج فيه وهو دين الإسلام . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ يريد الثناء الجميل . ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَـٰرُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون : إلياس نبيّ من بني إسرائيل . وروى عن ابن مسعود قال : إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس . وقرأ « وَإِنَّ إِدْرِيسَ » وقاله عكرمة . وقال : هو في مصحف عبد الله « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وانفرد بهذا القول . وقال ابن عباس : هو عمّ اليسع[1] . وقال ابن إسحق وغيره : كان القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل ، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه ، فبعث الله إليهم إلياس نبيا وتبعه اليسع وآمن به ، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له : آخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما آستقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه . فخرج ومعه اليسع فقال : يا إلياس ما تأمرني . فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى ، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل ، وكان ذلك آخر العهد به . وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب ، وكساه الريش وألبسه النور ، فطار مع الملائكة ، فكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا . قال ابن قتيبة : وذلك أن الله تعالى قال لإلياس « سلني أعطك » . قال : ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت . فصار يطير مع الملائكة . وقال بعضهم : كان قد مرض وأحس الموت فبكى ، فأوحى الله إليه ، لم تبك ؟ حرصا على الدنيا ، أو جزعا من الموت ، أو خوفا من النار ؟ قال : لا ولا شيء من هذا وعزتك ، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمدك ، و يذكرك

(١) قال بعض المفسرين هو ابن عم اليسع .

الذاكرون بعدى ولاأذكرك، و يصوم الصائمون بعدى ولاأصوم، و يصلّى المصلون ولاأصلّى. فقيل له : « يا إلياس وعزتى لأؤخرنك إلىوقت لا يذكرنى فيه ذاكر» . يعنى يوم القيامة. وقال عبدالعزيز بن أبى روّاد : إنّ إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم فى كل عام . وذكر ابن أبى الدنيـا ؛ إنهما يقولان عنـد افتراقهما عن الموسم : ما شاءالله ماشاء الله، لا يسوق الخير إلا الله؛ ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله؛ ما شـاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله؛ ما شـاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد مضى فى «الكهف»(١) . وذكر من طريق مكحول عن أنس قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم حتى إذا كنا بفجّ الناقة عند الحِجر، إذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة ، المغفور لها ، المتوب عليها، المستجاب لهـا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أنس آنظر ما هذا الصوت" فدخلت الجبل ، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس ، عليـه ثياب بيض ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما نظـر إلىّ قال : أنت رسـول النبى ؟ قلت نعم ؛ قال : ارجع إليه فأقرئه منى السلام وقل له : هـذا أخوك إلياس يريد لقاءك . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كنا قريبا منـه ، تقدّم النبى صلى الله عليه وسـلم وتأخرت ، فتحدثا طويلا ، فنزل عليهما شىء من السماء شبه السُّفرة فدعوانى فأكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به؛ فقلت للنبى صلى الله عليه وسـلم : بأبى أنت وأمى ! هذا الطعام الذى أكلنا أمن السماء نزل عليه ؟ فقال النبى صلى الله عليـه وسلم : "سألته عنه فقال يأتينى به جبريل فى كل أربعين يوما أكلة وفى كل حول شربة من ماء زمزم وربما رأيتـه على الجبّ يملأ بالدلو فيشرب وربما سقانى" .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعنى لبنى إسرائيل . ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعنى الله عز وجل وتخافون عقابه . ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك .

(١) راجع جـ ١١ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

قال ثعلب : اختلف الناس فى قوله عز وجل هاهنا « بَعْـلًا » فقالت طائفة : البعل هاهنا الصنم . وقالت طائفـة : البعل هاهنا ملك . وقال آبن إسحق : آمرأة كانوا يعبـدونها . والأول أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن آبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن آبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : ربًّا . النحاس : والقـولان صحيحان ؛ أى أتدعون صنما عملتموه ربًّا . يقال : هـذا بعل الدار أى ربّها . فالمعنى أتدعون ربًّا آختلقتموه ، و« أتدعون » بمعنى أتُسمُّون . حكى ذلك سيبويه . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : البعل الربّ بلغـة اليمن . وسمع آبن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمنى فقال : من بعل هـذه ؟ . أى من ربّها ومنه سمى الزوج بعلا . قال أبو دؤاد[(١)] :

ورأيتُ بَعْـلَكِ فى الوغَى * مُتقـلِّدًا سـيفًا ورُمْحَـا

مقاتل : صنم كسره إليـاس وهرب منهم . وقيـل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظّموه حتى أخدموه أربعمائة سادِن وجعـلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسَّدَنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَـالِقِينَ ﴾ أى أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون . ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بالنصب فى الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وآبن أبى إسحق وآبن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى . وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى أبو عبيد أنها على النعت . النحاس : وهو غلط وإنمـا هو على البـدل ولا يجوز النعت هاهنا ؛ لأنه ليس بتحليـة . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع . قال أبو حاتم : بمعنى هو الله ربكم . قال النحاس : وأولى ممـا قال إنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف . ورأيت على بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

(١) هكذا فى كل نسخ الأصـل ونسبه فى الكامل لعبـد الله بن الزبعرى ورواه كما فى المعاجم : ياليت زوجك فى الوغى الخ وقد مضى للصنف .

أولى وأحسن؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى . ابن الأنبارى : من نصب أو رفع لم يقف على « أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » على جهة التمام؛ لأن الله عز وجل مترجم عن « أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » من الوجهين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى فى العذاب . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى من قومه فإنهم نجوا من العذاب . وقرئ « المخلِصين » بكسر اللام وقد تقدّم . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ تقدم . ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع . وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائى : «سلام على إلياسِين» . وقرأ الحسن « سلام على الياسِين » بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التى للتعريف . والمراد إلياس عليه السلام وعليه وقع التسليم ولكنه اسم أعجمى . والعرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها . قال ابن جِنى : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا؛ فياسين وإلياس والياسين شىء واحد . الزمخشرىّ : وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع . وقرئ « على إلياسِين » و « إِدْرِيسين وإِدْرَسِينَ وإِدْرَاسِينَ » على أنها لغات فى إلياس وإدريس . ولعل لزيادة الياء والنون فى السريانية معنى . النحاس : ومن قرأ « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » فكأنه والله أعلم جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله؛ أى أهل دينه ومن كان على مذهبه ، وعلِم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل فى السلام؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "اللهم صلّ على آل أبى أوفى" وقال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . ومن قرأ « إلياسِين» فللعلماء فيه غير قول . فروى هرون عن ابن أبى إسحق قال : إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له . وأبو عبيدة يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم؛ وأنشد :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِى (١) *

---

(١) تمامه : * ليس الإمام بالشحيح الملحد *

والبيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان ، ويعرض بعبد الله بن الزبير ؛ يرميه بالبخل والإلحاد فى الحرم . وقيل هو لأبى بحدلة .

يقال : قِدنى وقَدِى لغتان بمعنى حَسْب . وإنما يريد أبا خُبَيْب عبدالله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه . وغير أبى عبيدة يرويه : الخُبَيْبِين على التثنية ، يريد عبدالله ومُصْعبا . ورأيت علىّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا ؛ [قال](١) فإن العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون : المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلَّب. قال : فعلى هذا « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » سمّى كل رجل منهم بإلياس . وقد ذكر سيبويه فى كتابه شيئا من هذا ، إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة ، فيقولون : الأشعرون يريدون به النسب . المهدوى : ومن قرأ « إلياسِين » فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسىّ فحذفت ياء النسبة ؛ كما حذفت ياء النسبة فى جمع المكسَّر فى نحو المهالبة فى جمع مهلبىّ ، كذلك حذفت فى المسلَّم فقيل المهلَّبون . وقد حكى سيبويه : الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين . السهيلىّ : وهذا لا يصح بل هى لغة فى إلياس ، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل فى المهالبة والأشعريين ؛ فكان يقول : « سَلَامٌ على الإلياسِين » لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام ؛ لا تقول : سلام على زيدين ، بل على الزيدين بالألف واللام . فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات . النحاس : واحتج أبو عبيد فى قراءته « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » وأنه اسمه كما أن اسمه إلياس ؛ لأنه ليس فى السورة سلام على « آل » لغيره من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، فكما سُمِّىَ الأنبياء كذا سُمِّى هو . وهذا الاحتجاج أصله لأبى عمرو وهو غير لازم ؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه . والقول بأن اسمه « إلياسين » يحتاج إلى دليل ورواية ؛ فقد وقع فى الأمر إشكال . قال الماوردى : وقرأ الحسن « سَلَامٌ على يَاسِينَ » بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان : أحدهما أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . الثانى أنهم آل ياسين ؛ فعلى هذا فى دخول الزيادة فى ياسين وجهان : أحدهما أنها زيدت لتساوى الآى ، كما قال فى موضع : « طورِسيناء » وفى موضع آخر « طورِسينين » فعلى هذا يكون

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

السلام على أهله دونه وتكون الإضافة إليه تشريفا له . الثانى أنها دخلت للجمع فيكون داخلا فى جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم . قال السهيلى : قال بعض المتكلمين فى معانى القرآن آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال فى تفسير « يسۤ » يا محمد ؛ وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة : أحدها أن سياقة الكلام فى قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هى فى قصة إبراهيم ونوح وموسى وهرون وأن التسليم راجع عليهم ، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل فى تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضا؛ فإن « يس » و « حمۤ » و « آلمۤ » ونحو ذلك القول فيها واحد، إنما هى حروف مقطّعة ، إما مأخوذة من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس ، وإما من صفات القرآن ، وإما كما قال الشعبى : لله فى كل كتاب سرّ، وسرّه فى القرآن فواتح القرآن . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لى خمسة أسماء " ولم يذكر فيها « يسۤ » . وأيضا فإن « يسۤ » جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف ، ولو كان آسما للنبى صلى الله عليه وسلم لقال « يسُنَ » بالضم ؛ كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » وإذا بطل هذا القول لما ذكرناه فـ« إلياسين » هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مثل إدريس وإدراسين ، وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود «وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ثم قال : « سلام على إدراسِين» . ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ﴾ تقدم قصة لوط[(١)] . ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى بالعقوبة . ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ و جـ ٩ ص ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

خاطب العـرب أى تمرون على منازلهم وآثارهم « مُصْبِحِينَ » وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْـلِ ﴾ تمرون عليهم أيضا . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى تعتبرون وتتدبرون .

قوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

فيــه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يونس هو ذو النون ، وهو ابن متّى ، وهو ابن العجوز التى نزل عليها إلياس ، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبىّ يرضع ، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه ، ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها . ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال ، ومات ابن المرأة يونسُ ، فخرجت فى إثر إلياس تطوف وراءه فى الجبال حتى وجدته ، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيى لها ولدها ، فجاء إلياس إلى الصبى بعد أربعة عشر يوما من موته ، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله يونس ابن متّى بدعوة إلياس عليه السلام . وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل ، وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا ، حسب ما تقدّم بيانه فى سورة « يونس »[1] ومضى فى « الأنبياء »[2] قصة يونس فى خروجه مغاضبا . واختلف فى رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده . قال الطبرى عن شهر بن حَوْشَب : إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال : انطلق إلى أهل نِينَوَى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم . قال : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : ألتمس حِذاء . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : فغضب فانطلق إلى السفينة فركب ، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر . قال : فتساهموا ،

(١) جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) جـ ١١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قال : فسُهِم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه؛ فنودى الحـوت : أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقا؛ إنمـا جعلناك له حرزا ومسجدا . قال : فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مر به الى الأُبُلَّة، ثم آنطلق به حتى مر به على دجلة، ثم آنطلق حتى ألقاه فى نِينوى . حدّثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حَوْشَب عن ابن عبـاس قال : إنمـا كانت رسالة يونس بعـد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبا لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوّة . وقال آخرون : كان ذلك منه بعـد دعائه من أرسـل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه ، وتبليغـه إياهم رسالة ربه ، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله فى وقت وقّته لهم، ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظل القوم العذاب وغشيهم — كما قال الله تعالى فى تنزيله — تابوا إلى الله ، فرفع الله العذاب عنهـم ، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال : وعدتهم وعدا فكذب وعدى . فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهـم ، وقد جرّبوا عليه الكذب . رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . وقد مضى هـذا فى «الأنبياء» وهو الصحيح على ما يأتى عند قوله تعـالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . ولم ينصرف يونس؛ لأنه آسم أعجمى ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت فى أوّله اليـاء؛ لأنه ليس فى الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سميت بِيُعْفُر صرفته(١) وإن سميت بِيَعْفُر لم تصرفه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ قال المبرد : أصل أبق تباعد ومنه غلام آبق . وقال غيره : إنمـا قيل ليونس أبق؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستترا من النـاس . ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى المملوء . « والفلك » يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدّم(٢) . قال الترمذى الحكيم : سماه آبقا لأنه أبق عن العبودية ، وإنمـا العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله، فلما لم يبذل النفس عند ما اشتدّت عليه العزمة من الملك حسب ما تقدّم بيانه فى « الأنبيـاء » ، وآثر هواه لزمه اسم الآبق، وكانت عزمة الملك فى أمر الله

(١) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فانه على وزن يقتل فمنع الصرف .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

لا فى أمر نفسه، وبحظّ حقّ الله لا بحظ نفسه ، فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذى عند الله فسماه آبقا ومُليما .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قال المبرد : فقارع قال : وأصله من السهام التى تُجَال . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ قال : من المغلوبين . قال الفرّاء : دحضت حجّته وأدحضها الله . وأصله من الزلق؛ قال الشاعر :

قَتَلْنا الْمُدْحَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ　　　فقد قرّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أى المغلوبين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى أتى بما يلام عليه . فأما الملوم فهو الذى يلام آستحق ذلك أو لم يستحق . وقيل : المليم المعيب . يقال لام الرجل إذا عمل شيئا فصار معيبا بذلك العمل. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائى : لم تكسر أن لدخول اللام ؛ لأن اللام ليست لها . النحاس : والأمر كما قال ؛ إنما اللام فى جواب لولا . « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى عقوبة له ؛ أى يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة . وآختلف كم أقام فى بطن الحوت . فقال السدى والكلبي ومقاتل بن سليمان : أربعين يوما . الضحاك : عشرين يوما. عطاء : سبعة أيام . مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . وقيل : ساعة واحدة . والله أعلم .

الخامسة — روى الطبرى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لما أراد الله — تعالى ذكره — حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر فلما آنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دوابّ البحر" قال : " فسبح وهو فى بطن الحوت" قال : " فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة" قال: " ذلك عبدي يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان

يصعد إليك منـه فى كل يوم وليلة عمـل صالح قال نعم فشفعوا له عنـد ذلك فأمر الحوت بقذفه فى الساحل كما قال تعالى « وَهُوَ سَقِيمٌ ». وكان سقمه الذى وصفه به الله تعالى ذكره أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبى المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روى: أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسـه يتنفس فيه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى آنتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يتغير منه شىء فأسلموا؛ ذكره الزمخشرى فى تفسيره. وقال ابن العربى: أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى أنه سئل عن البارى فى جهة؟ فقال: لا؛ هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم: "لا تفضلونى على يونس بن متّى" فقيل له: ما وجه الدليل فى هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دينا. فقام رجلان فقالا: هى علينا. فقال: لا يتبع بها آثنين؛ لأنه يشق عليه. فقال واحد: هى علىّ. فقال: إن يونس بن متّى رمى بنفسه فى البحر فآلتقمه الحوت، فصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث، ونادى « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسـلم حين جلس على الرفرف الأخضر وآرتقى به صعدا، حتى آنتهى به إلى موضع يسمع فيه صَرِيف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر.

السـادسة — ذكر الطبرى: أن يونس عليـه السلام لمـا ركب فى السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هـذه خطيئتى فألقونى فى البحر، وأنهـم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبى. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه فى البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه فى البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحـوت. وروى أنه لمـا ركب فى السفينة تقنّع ورقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

ريح كادت السفينة أن تغرق ، فآجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا : أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا ؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح ، ثم آنطلق يونس إلى مكانه فرقد ، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق ، فأيقظوه ودعوا الله فآرتفعت الريح . قال : فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة ، فقال لهم يونس : يا قوم! هذا من أجلى فلو طرحتمونى فى البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والروع . قالوا : لا نطرحك حتى نتساهم فمن وقعت عليه رميناه فى البحر . قال : فتساهموا فوقع على يونس ، فقال لهم : يا قوم آطرحونى فمن أجلى أوتيتم ؛ فقالوا . لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى . ففعلوا فوقع على يونس . فقال لهم : يا قوم آطرحونى فمن أجلى أوتيتم . فذلك قول الله عز وجل : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى وقع السهم عليه؛ فآنطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه فى البحر ، فإذا الحوت فاتح فاه ، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة ، فإذا بالحوت ، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر فإذا بالحوت فاتح فاه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فآلتقمه الحوت ؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت : إنى لم أجعله لك رزقا ولكن جعلت بطنك له وعاء . فمكث فى بطن الحوت أربعين ليلة فنادى فى الظلمات « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَآسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » وقد تقدم ويأتى . ففى هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولا بها فى شرع من قبلنا ، وجاءت فى شرعنا على ما تقدم فى « آل عمران »[(١)] قال آبن العربى : وقد وردت القُرْعة فى الشرع فى ثلاثة مواطن ؛ الأول — كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، الثانى — أن النبى صلى الله عليه وسلم رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم ، فأقرع بينهم ؛ فأعتق آثنين وأرقّ أربعة . الثالث — أن رجلين آختصما إليه فى مواريث قد درست فقال : "آذهبا وتوخَّيا الحق وآستهِما وليحلل كل واحد منكما صاحبه" . فهذه ثلاثة مواطن ، وهى القَسْم فى النكاح والعِتق والقسمة ، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

وحسم داء التشهى . وآختلف علماؤنا فى القرعة بين الزوجات فى الغزو على قولين ؛ الصحيح منهما الإقراع . وبه قال فقهاء الأمصار ؛ وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن ، وآختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة . وكذلك فى مسألة الأعبد الستة ؛ فإن كل اثنين منهما ثلث ، وهو القدر الذى يجوز له فيه العتق فى مرض الموت ، وتعيينهما بالتشهى لا يجوز شرعا ، فلم يبق إلا القرعة . وكذلك التشاجر إذا وقع فى أعيان المواريث لم يميز الحق إلا القُرْعة ، فصارت أصلا فى تعيين المستحق إذا أشكل . قال : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل ، فذلك أبين لها ، وأقوى لفصل الحكم فيها ، وأجلى لرفع الإشكال عنها ؛ ولذلك قلنا إن القرعة بين الزوجات فى الطلاق كالقرعة بين الإماء فى العتق .

السابعة — الآقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر لا يجوز . وإنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه ، وزيادة فى إيمانه ، فإنه لا يجوز لمن كان عاصيا أن يقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته . وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فآضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم ، فيطرح بعضهم تخفيفا ؛ وهذا فاسد ؛ فإنها لا تخفّ برمى بعض الرجال وإنما ذلك فى الأموال ، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل .

الثامنة — أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبِّحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ؛ ولذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر . قال آبن عباس : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين . قال قتادة : كان يصلّى قبل ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجّاه . وقال الربيع بن أنس : لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح «لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» قال : ومكتوب فى الحكمة — إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر . وقال مقاتل : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين المطيعين قبل المعصية . وقال وهب : من العابدين . وقال الحسن : ما كان له صلاة فى بطن الحوت ، ولكنه قدّم عملا صالحا فى حال الرخاء فذكره الله به فى حال البلاء ، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه ، وإذا عثر وجد متكأ .

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " من آستطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل " فيجتهد العبد، ويحرص على خَصْلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه . وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بينما ثلاثة نفر — في رواية ممن كان قبلكم — يتماشون أخذهم المطر فآووا إلى غار في جبل فآنحطت على فم الغار صخرة من الجبل فآنطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض آنظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فآدعوا الله بها لعله يفرجها عنكم " الحديث بكماله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه . وقال سعيد بن جبير : لما قال في بطن الحوت «لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قذفه الحوت . وقيل : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلّين في بطن الحوت .

قلت : والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدل حديث أبي هريرة المذكور قبل الذي ذكره الطبري . قال : فسبح في بطن الحوت . قال : فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . وتكون « كان » على هذا القول زائدة . أي فلولا أنه من المسبِّحين . وفي كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعاء ذي النون في بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا آستجيب له " وقد مضى هذا في سورة « الأنبياء »[(١)] فيونس عليه السلام كان قبل مصلّيا مسبحا، وفي بطن الحوت كذلك . وفي الخبر: فنودي الحوت، إنا لم نجعل يونس لك رزقا، إنما جعلناك له حِرْزا ومسجدا . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ روى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل . وقال ابن قُسَيْط عن أبى هريرة : طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يقطينة ؛ فقلنا يا أبا هريرة : وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدُّبَّاء ؛ هيأ الله له أُرْوِيَّة (١) وحشية تأكل من خَشَاش الأرض — أو هَشَاش الأرض — فتَفْشِج (٢) عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج به — يعنى الحوت — حتى لَفَظه فى ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء . وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهى فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته . ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست ، فحزن وبكى عليها فعوتب؛ فقيل له : أحزنت على شجرة وبكيت عليها ، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بنى إسرائيل ، من أولاد إبراهيم خليلى ، أسرى فى أيدى العدو، وأردت إهلاكهم جميعا . وقيل : هى شجرة التين . وقيل : شجرة الموز تَغطَّى بورقها، واستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها . والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتى . ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين . ثم أمره أن يأتى قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم ، فعمد إليهم حتى لقى راعيا فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم ، فأخبره أنهم بخير ، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم . فقال له : فأخبرهم أنى قد لقيت يونس . فقال : لا أستطيع إلا بشاهد . فسمى له عنزا من غنمه فقال : هذه تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه البقعة التى أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس . وأنه رجع الراعى إلى قومه فأخبرهم أنه لقى يونس فكذبوه وهمّوا به شرا فقال : لا تعجلوا علىّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التى لقى فيها يونس ، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقى يونس ، واستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقى يونس ، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك .

(١) الأروية : الأنثى من الوعول . (٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها .

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله . «فَنَبَذْنَاهُ» طرحناه . وقيل : تركناه . «بِالْعَرَاءِ» بالصحراء ؛ قاله ابن الأعرابي . الأخفش : بالفضاء . أبو عبيدة : الواسع من الأرض . الفراء : العراء المكان الخالي . قال وقال أبو عبيدة : العراء وجه الأرض ؛ وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعتُ رِجْلًا لا أخافُ عِثارَها * ونَبَذْتُ بالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيابِي

وحكى الأخفش في قوله : «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سقمى و](1) سقامى وسِقام . وقال في هذه السورة : «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم» : «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» والجواب أن الله عز وجل خبرها هنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم ؛ قاله النحاس . وقوله : «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعني «عَلَيْهِ» أي عنده ؛ كقوله تعالى : «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» أي عندي . وقيل : «عليه» بمعنى له . «شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين شجر الدُّبَّاء : وقيل : غيرها ؛ ذكره ابن الأعرابي . وفي الخبر : "الدُّبَّاء والبطيخ من الجنة" وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وقال المبرّد : يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدُّبَّاء والبطيخ والحنظل ، فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط ، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم . قال الله تعالى : «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» وروى نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل . قالوا : كل نبت يمتد ويبسط على الأرض ولا يبقى على استواءٍ وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين . وقال سعيد بن جبير : هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز .

قلت : وهو مما له ساق . الجوهري : واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه . الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يَفعيل . وقيل : هو اسم أعجمي . وقيل : إنما خص اليقطين بالذكر ؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب . وقيل : ما كان ثَمَّ يقطين

(1) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس ، وهي عبارته عن الأخفش .

فأنبته الله فى الحال . القشيرى : وفى الآية ما يدل على أنه كان مفروشا ليكون له ظل .
الثعلبى : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يتحزّن عليها ؛ فقيل له : يايونس
أنت الذى لم تخلق ولم تَسقِ ولم تُنبت تحزن على شجيرة، فأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس
أو يزيدون تريد منى أن آستأصلهم فى ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم ! فأين رحمتى
يا يونس أنا أرحم الراحمين . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل الثريد باللحم
والقرع وكان يحب القرع ويقول : "إنها شجرة أخى يونس" وقال أنس : قدم للنبىّ صلى
الله عليه وسلم مَرَق فيه دُبّاء وقَديد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالى القَصْعة . قال أنس : فلم أزل
أحبّ الدُّبّاء من يومئذ . أخرجه الأئمة .

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدّم عن آبن عباس أن رسالة
يونس عليه السلام إنما كانت بعد مانبذه الحوت. وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب .
النحاس : وأجود منه إسنادا وأصح ما حدّثناه عن علىّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن بن
محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزِىّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال
حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال عن يونس النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس
وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرّقوا بين كلّ والدة وولدها، وخرجوا
فجأروا إلى الله عز وجل وآستغفروا، فكفّ الله عز وجل عنهم العذاب، وغدا يونس عليه
السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئا — وكان من كَذَب ولم تكن له بينة قُتِل — فخرج يونس مغاضبا،
فأتى قوما فى سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينا
وشمالا، فقالوا : ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندرى . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبدا
آبقا من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبىّ الله فإنا لا نلقيك .
قال : فآقترِعوا فمن قُرِع فليقع، فآقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فآقترعوا
ثلاثا فمن قُرِع فليقع . فآقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثا فوقع . وقد وكل
الله به جل وعز حوتا فآبتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام

تسبيح الحصى « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت ، فكان يستظل بها و يصيب منها ، فيبست فبكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه : أتبكى على شجرة يبست ، ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى ؛ قال : ياغلام من أنت؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس . قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كَذَب قُتِل إذا لم تكن له بَينة فمن يشهد لى؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فمرهما ؛ فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له . قالتا نعم . قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان فى منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إنى قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال : فأمر به أن يقتل ؛ فقالوا : إن له بيّنة فارسلوا معه . فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أنى لقيت يونس؟ قالتا : نعم ! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض ! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه فى مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان منى . قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين فى هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذى لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل . وهذا هو الصحيح فى الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه فى غيرهم فى قوله عز وجل : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » وقوله عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ » الآية .

وقال بعض العلمـاء : إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا . وهذا لا يمتنع ، وقد تقدّم ما للعلماء في هذا في سورة « يونس »(١) فلينظر هناك .

قوله تعـالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » قد مضى في « البقـرة »(٢) محامل « أو » في قوله تعالى : « أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » . وقال الفراء : « أو » بمعنى بل . وقال غيره : إنها بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر :

فلمّا اشتد أمرُ الحربِ فينا تأمّلنا رِياحا أو رِزَامَا

أي ورزاما . وهـذا كقوله تعـالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » . وقرأ جعفر بن محمد «إلى مِائةِ ألفٍ ويزِيدون» بغير همز فـ«يزِيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدإ محذوف أي وهم يزيدون . النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين ، وأنكروا كون « أو » بمعنى بل وبمعنى الواو ؛ لأن بل للاضراب عن الأول والإيجاب لما بعـده ، وتعـالى الله عز وجل عن ذلك ، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هـذا موضع ذلك ؛ والواو معناه خلاف معنى « أو » فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني ؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلنـاه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر ، وإنمـا خوطب العباد على ما يعرفون . وقيـل : هو كما تقول : جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب . وقال الأخفش والزجاج : أي أو يزيدون في تقديركم . قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا . ورواه أبيّ بن كعب مرفوعا . وعن ابن عباس أيضا : ثلاثين ألفا . الحسن والربيع : بضعا وثلاثين ألفا . وقال مقاتل بن حيان : سبعين ألفا . ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي إلى منتهى آجالهم .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم آحتج على كفار قريش في قولهم : إن الملائكة بنات الله ؛ فقال : « فَٱسْتَفْتِهِمْ » . وهو معطوف على مثله في أول السورة و إن تباعدت بينهم المسافة؛ أى فسل يا محمد أهل مكة « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ ».وذلك أن جُهينة وخُزاعة و بنى مُلَيح و بنى سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله . وهذا سؤال توبيخ.﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أى حاضرون لخلقنا إياهم إناثا . وهذا كما قال الله عز وجل: « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم إن لله ولدا وهو الذى لا يلد ولا يولد . و « إنّ » بعد « أَلَا » مكسورة؛ لأنها مبتدأة . وحكى سيبويه أنها تكون بعد أَمَا مفتوحة أو مكسورة ؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقًّا والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى أَلَا . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد أَلَا تشبيها بأَمَا ، وأمّا فى الآية فلا يجوز إلا كسرها؛ لأن بعدها الرفع . وتمام الكلام « لَكَاذِبُونَ » ثم يبتدئ ﴿ أَصْطَفَى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال : ويحكم « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » أى آختار البناتِ وترك البنين . وقراءة العامة « أَصْطَفَى » بقطع الألف ؛ لأنها ألف آستفهام دخلت على ألف الوصل ، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الآستفهام مفتوحة مقطوعة على

حالها مثل « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » على ما تقدّم[1] . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة « ٱصْطَفَى » بوصل الألف على الخبر بغير آستفهام . وإذا آبتدأ كسر الهمزة . وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ؛ لأن بعدها ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين : إحداهما أن يكون تبيينا وتفسيرا لما قالوه من الكذب ويكون « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » منقطعا مما قبله . والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون — منهم الفراء — أن التوبيخ يكون بآستفهام وبغير آستفهام كما قال جل وعز « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » . وقيل : هو على إضمار القول؛ أي ويقولون « ٱصْطَفَى الْبَنَاتِ » . أو يكون بدلا من قوله : « وَلَدَ اللهُ » لأن ولادة البنات وآتخاذهنّ اصطفاء لهنّ ، فأبدل مثال الماضى من مثال الماضى فلا يوقف على هذا على « لَكَاذِبُونَ » . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فى أنه لا يجوز أن يكون له ولد . ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ حجة وبرهان . ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أى بحججكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى قولكم .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنة ها هنا الملائكة . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : قالوا — يعنى كفار قريش — الملائكة بنات الله ؛ جل وتعالى . فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فمن أمهاتهن . قالوا : مخدّرات الجنّ . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم جِنّة لأنهم لا يُرَوْن . وقال مجاهد : إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجِنّة . وروى عن ابن عباس . وروى إسرائيل عن السدى عن أبى مالك قال : إنما قيل لهم جِنّة لأنهم خُزّان على الجنان والملائكة كلهم جِنّة . « نَسَبًا » مصاهرة ؛ قال قتادة والكلبى ومقاتل : قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجنّ فكانت

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

الملائكة من بينهم. وقال مجاهد والسدى ومقاتل أيضا : القائل ذلك كنانة وخُزاعة؛ قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سَرَوات بنات الجنّ . وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله فهو النّسب الذى جعلوه .

قلت : قول الحسن فى هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى : « إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادة . وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضا : هو قولهم إن الله تعالى و إبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى قائل هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى النار؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : للحساب . الثعلبى : الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر فى هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب . ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تنزيها لله عما يصفون . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم ناجون من النار .

قوله تعالى : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ «ما» بمعنى الذى . وقيل : بمعنى المصدر، أى فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام . وقيل : أى فإنكم مع ما تعبدون من دون الله . يقال : جاء فلان وفلان . وجاء فلان مع فلان . ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضلّين . النحاس . أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى ؛ ما أنتم بمضلّين أحدا إلا من قدّر الله عز وجل عليه أن يضل . وقال الشاعر :

فَرَدّ بنعمته كيدَهُ * عليه وكان لنا فاتنا

أى مضلا .

الثانيـة ــ فى هذه الآية ردٌّ على القَدَرية . قال عمـرو بن ذرّ : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر ، فقال عمر : لو أراد الله ألّا يُعصَى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، وإن فى ذلك لعلماً فى كتاب الله جل وعز ، عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ؛ ثم قرأ " فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ " إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلى الجحيم . وقال : فصَلَت هذه الآية بين الناس ، وفيها من المعانى أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدى ، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدى لحال بينه وبينهم . وعلى هـذا قوله تعالى : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أى لست تصل منهم إلى شىء إلا إلى ما فى علمى . وقال لَبيد بن ربيعة فى تثبيت القدَرِ فأحسن :

إنّ تَقْـوَى ربِّنا خير نَفَـلْ * وبإذنِ الله رَيْثِى وعَجَـلْ

أحْمَـدُ الله فـلا نِـدَّ لهُ * بيـديه الخـيرُ ما شاء فَعَلْ

مَنْ هَداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدَى * ناعِم البالِ ومَنْ شاء أَضَلّ

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل وأهل نجد يقولون أفتنته .

الثالثـة ــ روى عن الحسن أنه قرأ « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ » بضم اللام . النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن ؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ . ومن أحسن ما قيل فيـه ما سمعت على بن سليمان يقوله ؛ قال : هو محمول على المعنى ؛ لأن معنى « من » جماعة ، فالتقدير صالون ، فحذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . وقيل : أصله فاعل إلا أنه قلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل « شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » . ووجه ثالث أن تحذف لام صال تخفيفا وتجـرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة . وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى ؛ ونظيره قراءة من قرأ « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ » « وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَئَاتُ » أجرى الإعراب على العين . والأصل فى قراءة الجماعة صالِى بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها فى اللفظ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

هذا من قول الملائكة تعظيما لله عز وجل، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم. ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ قال مقاتل : هذه الثلاث الآيات نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سِدْرة المنتهى، فتأخر جبريل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أهنا تفارقني" فقال : ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني. وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » الآيات . والتقدير عند الكوفيين : وما منا إلا من له مقام معلوم . فحذف الموصول . وتقديره عند البصريين : وما منا ملك إلا له مقام معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبَير . وقال ابن عباس : ما في السموات موضع شبرٍ إلا وعليه ملَك يصلّي ويسبّح. وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم". وعن أبي ذرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماءُ وحقّ لها أن تئِطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد" خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث [حسن][1] غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال : لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد . ويروى عن أبي ذرّ موقوفا . وقال قتادة : كان يصلي الرجال والنساء جميعا حتى نزلت هذه الآية «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» . قال : فتقدّم الرجال وتأخر النساء . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » قال الكلبي : صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض . وفي صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد؛ فقال : " ألا تَصُفّون كما تصُفّ الملائكة عند ربها" فقلنا يا رسول الله كيف تصفّ الملائكة عند ربها ؟ قال ؟

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

"يُتمون الصفوف الأوَل ويتراصُّون فى الصفّ" وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هَدْى الملائكة عند ربها ويقرأ « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » تأخر يافلان تقدم يافلان؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد مضى فى سورة « الحجر »(١) بيانه . وقال أبو مالك : كان الناس يصلون متبدّدين فأنزل الله تعالى «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا . وقال الشعبي : جاء جبريل أو ملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه؛ إن الملائكة لتصلى وتسبح ما فى السماء ملك فارغ . وقيل : أى لنحن الصافّون أجنحتنا فى الهواء وقوفا ننتظر ما نؤمر به . وقيل : أى نحن الصافّون حول العرش . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المصلّون؛ قاله قتادة : وقيل : أى المنزّهون الله عما أضافه إليه المشركون . والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله . وقيل : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للمشركين؛ أى لكل واحد منا ومنكم فى الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب . وقيل : أى منّا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومنا من له مقام الإخلاص، ومنّا من له مقام الشكر . إلى غيرها من المقامات .

قلت : والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين ، أى كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إذا عُيِّروا بالجهل قالوا : «لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ» أى لو بُعث إلينا نبيّ ببيان الشرائع لاتبعناه . ولمّا خففت « إن » دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقا بين النفى والإيجاب . والكوفيون

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يقولون : «إنْ» بمعنى ما واللام بمعنى إلا . وقيل : معنى « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا » أى كتابا من كتب الأنبياء ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله . ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أى بالذكر . والفراء يقدره على حذف؛ أى فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به . وهذا تعجيب منهم؛ أى فقد جاءهم نبيّ وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الزجاج : يعلمون مغبة كفرهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال الفراء : أى بالسعادة . وقيل : أراد بالكلمة قوله عز وجل « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » قال الحسن : لم يقتل من أصحاب الشرائع قط أحد. ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أى سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة . ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ » . وقال الشيباني : جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم . ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ قال قتادة : إلى الموت . وقال الزجاج : إلى الوقت الذى أمهلوا إليه . وقال ابن عباس : يعنى القتل ببدر . وقيل يعنى فتح مكة . وقيل : الآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة : سوف يبصرون حين لاينفعهم الإبصار . وعسى من الله للوجوب وعبر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أى عن قريب يبصرون : وقيل : المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم

القيامة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هـذا العذاب ، أى لا تستعجلوه فإنه واقع بكم .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أى العذاب . قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتل . ومعنى « بِسَاحَتِهِمْ » أى بدارهم؛ عن السدى وغيره . والساحة والسَّحْسَة فى اللغة فِناء الدار الواسع . الفراء : « نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » ونزل بهم سواء . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب . وفيه إضمار أى فساء الصباح صباحهم . وخصّ الصباح بالذكر ؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيـه . ومنه الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : لمـا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المسَاحى، فقالوا : محمد والخميس(١)، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر خَرِبت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين" وهو يبين معنى « فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ كرر تأكيدا وكذا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد أيضا .

قوله تعـالى : سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون . ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ على البـدل . ويجوز النصب على المـدح ، والرفع بمعنى هو ربّ العـزة . ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى من الصاحبة والولد . وسـئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن معنى « سبحان الله » فقال : "هو تنزيه الله عن كل سوء" وقد مضى فى « البقرة(٢) » مستوفى .

الثانيـــة — سـئل محمد بن سُحْنون عن معنى « رَبِّ الْعِزَّةِ » لِمَ جاز ذلك والعـزّة من صفات الذات، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال : العزة تكون

(١) الخميس الجيش . (٢) راجع جـ١ ص ٢٧٦ و ٢٨٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة وجـ٢ ص ٧٦ وما بعدها طبعة ثانية .

صفة ذات وصفة فعل ، فصفة الذات نحو قوله : « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وصفة الفعل نحو قوله : « رَبِّ الْعِزَّةِ » والمعنى ربّ العزّة التى يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهى من خلق الله عز وجل . قال وقد جاء فى التفسير : إن العزة هاهنا يراد بها الملائكة . قال وقال بعض علمائنا : من حلف بعزّة الله فإن أراد عزّته التى هى صفته فحنث فعليه الكفارة ، وإن أراد التى جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه . الماوردى : « رَبِّ الْعِزَّةِ » يحتمل وجهين ، أحدهما مالك العزّة ، الثانى ربّ كل شىء متعزّز من ملِك أو متجبّر .

قلت : وعلى الوجهين فلا كفّارة إذا نواها الحالف .

الثالثة — روى من حديث أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يُسلِّم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » إلى آخر السورة ؛ ذكره الثعلبى .

قلت : قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد ابن عمروك البكرىّ بالجزيرة قُبَالة المنصورة من الديار المصرية ، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعرى بنيسابور فى المرة الأولى ، أخبرنا أبو محمد إسمعيل ابن أبى بكر القارئ ، قال حدّثنا أبو الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسىّ ، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الاسفراينى ، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقى ، قال حدّثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمى النيسابورى ، قال حدّثنا هُشَيم عن أبى هرون العبدى عن أبى سعيد الخدرىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول فى آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الماوردى : روى الشعبى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ذكره الثعلبى من حديث علىّ رضى الله عنه مرفوعا .

الرابعة — قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا سلّمتم علىّ فسلّموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين " وقيل : معنى « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى أَمْن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين . وقيل : أى على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين . وقيل : أى على هلاك المشركين ؛ دليله « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قلت : والكل مراد والحمد يعم . ومعنى . « يَصِفُونَ » يكذبون ، والتقدير عما يصفون من الكذب . تم تفسير سورة الصافات .

سورة ص

مكية فى قول الجميع ، وهى ست وثمانون آية . وقيل ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿صٓ﴾ قراءة العامة « صٓ » بجزم الدال على الوقف ؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل «الٓمٓ» و «الٓمٓر» . وقرأ أُبىّ بن كعب والحسن وابن أبى إسحق ونصر ابن عاصم « صادِ » بكسر الدال بغير تنوين . ولقراءته مذهبان : أحدهما أنه من صادى يصادى إذا عارض ، ومنه « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى » أى تعرّض . والمصاداة المعارضة ، ومنه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الخالية . فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك ؛ أى عارضه بعملك وقابله به ، فاعمل بأوامره ، وانته عن نواهيه . النحاس : وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة . وعنه أن المعنى اتله وتعرّض لقراءته . والمذهب

الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين . وقرأ عيسى بن عمر « صادَ » بفتح الدال ومثله « قافَ » و « نونَ » بفتح آخرها . وله فى ذلك ثلاثة مذاهب : أحدهنّ أن يكون بمعنى آتلُ . والثانى أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وآختار الفتح للإتباع ؛ ولأنه أخفّ الحركات . والثالث أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف ؛ كقولك : اللهَ لأفعلنّ ، وقيل : نصب على الإغراء . وقيل : معناه صادَ محمدٌ قلوبَ الخلق وآستمالها حتى آمنوا به . وقرأ آبن أبى إسحق أيضا « صادٍ » بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم ، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله . ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « صادُ » و « قافُ » ونونُ » بضم آخرهن ؛ لأنه المعروف بالبناء فى غالب الحال ، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ . و « صٓ » إذا جعلته آسما للسورة لم ينصرف ؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلّت حروفه . وقال آبن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن « صٓ » فقالا : لا ندرى ما هى . وقال عكرمة : سأل نافع آبن الأزرق آبن عباس عن « صٓ » فقال : « صٓ » كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار . وقال سعيد بن جبير : « صٓ » بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين . وقال الضحاك : معناه صدق الله . وعنه أن « صٓ » قَسَمٌ أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقاله السدى ، وروى عن آبن عباس . وقال محمد بن كعب : هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدُ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد . وقال قتادة : هو آسم من أسماء الرحمن . وعنه أنه آسم من أسماء القرآن . وقال مجاهد : هو فاتحة السورة . وقيل : هو مما آستأثر الله تعالى بعلمه ، وهو معنى القول الأول . وقد تقدّم جميع هذا فى « البقرة »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء ؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره ؛ فإن فيه بيان كل شىء ، وشفاء لما فى الصدور ، ومعجزة للنبى صلى الله عليه وسلم . ﴿ ذِى الذِّكْرِ ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء ، وهو آسم معتل والأصل فيه ذَوَى على فَعَل . قال آبن عباس ومقاتل : معنى « ذِى الذِّكْرِ » ذى البيان . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥ طبعه ثانية أو ثالثة .

ذى الشرف أى من آمن به كان شرفا له فى الدارين؛ كما قال تعالى: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» أى شرفكم. وأيضا القرآن شريف فى نفسه لإعجازه وآشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره. وقيـل: «ذِى الذِّكْرِ» أى فيه ذكر ما يحتاج إليـه من أمر الدين. وقيـل: «ذِى الذكرِ» أى فيه ذكر أسماء الله وتمجيده. وقيل: أى ذى الموعظة والذكر. وجواب القسم محذوف. وآختلف فيه على أوجه: فقيل جواب القسم «صٓ»؛ لأن معناه حقّ فهى جواب لقوله: «وَالْقُرْآنِ» كما تقول: حقًّا واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ، فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله: «وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ» حسنا وعلى «فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» تماما. قاله آبن الأنبارى. وحكى معناه الثعلبى عن الفراء. وقيـل: الجواب «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» لأن «بل» نفى لأمر سبق وإثبات لغـيره؛ قاله القتبى؛ فكأنه قال: «وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» عن قبول الحق وعداوة لمحمد صلى الله عليه وسـلم. أو «وَالْقُرْآنِ ذِى الذكرِ» ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصـدق والأمانة بل هم فى تكبر عن قبول الحق. وهو كقوله: «قٓ. وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا» وقيل: الجواب «كَمْ أَهْلَكْنَا» كأنه قال: والقرآن لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخرت «كم» حذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا» ثم قال: «قَدْ أَفْلَحَ» أى لقد أفلح. قال المهدوى: وهذا مذهب الفراء. آبن الأنبارى: فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله: «فِى عِزَّةٍ وشِـقَاقٍ». وقال الأخفش: جواب القسم «إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ» ونحو منه قوله تعالى: «تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» وقوله: «وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. إِنْ كُلُّ نَفْسٍ». آبن الأنبارى: وهـذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهـما وكثرت الآيات والقصص. وقال الكسائى: جواب القسم قوله: «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ». آبن الأنبارى: وهذا أقبح من الأول؛ لأن الكلام أشـدّ طولا فيما بين القسم وجوابه. وقيل الجواب قـوله: «إِنَّ هَـذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ». وقال قتادة: الجواب محذوف تقديره «وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ» لتبعثنّ ونحوه.

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ أى فى تكبر وآمتناع من قبول الحق ؛ كما قال جل وعز : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » والعزّة عند العرب الغَلَبة والقَهْر. يقال : من عَزَّ بَزَّ يعنى من غَلَبَ سَلَبَ . ومنه « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أراد غلبنى . وقال جرير :

يَعُزُّ على الطّريقِ بمَنْكِبيه * كما ٱبْتَرَكَ الخَلِيعُ على القِداحِ (1)

أراد يغلب . ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أى فى إظهار خلاف ومباينة . وهو من الشّق كأنّ هذا فى شَقّ وذلك فى شَقّ . وقد مضى فى « البقرة » مستوفى (2) .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من قوم كانوا أمنع من هؤلاء . و « كم » لفظة التكثير ﴿ فَنَادَوْا ﴾ أى بالآستغاثة والتوبة . والنداء رفع الصوت ؛ ومنه الخبر: " ألقِه على بلالٍ فإنه أَنْدى منكَ صوتا " أى أرفع . ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل . النحاس : وهذا تفسير منه لقوله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » فأما إسرائيل فروى عن أبى إسحق عن التميمى عن آبن عباس « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال : ليس بحين نَزْوٍ (3) ولا فِرار ؛ قال : ضُبِط القوم جميعا قال الكلبى : كانوا إذا قاتلوا فآضطروا قال بعضهم لبعض مناص ؛ أى عليكم بالفِرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص ؛ فقال الله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال القشيرى : وعلى هذا فالتقدير ؛ فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه ؛ أى ليس الوقت وقت ما تنادون به . وفى هذا نوع تحكم ؛ إذ يبعد أن يقال : كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار . وقيل : المعنى « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه . قال القشيرى : وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو فى « وَلَاتَ حِينَ

---

(1) البيت فى وصف جمل ؛ يقول : يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق ؛ فشبه حرصه على لزوم الطريق وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله . والخليع المخلوع المقمور ماله . (2) راجع ج ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

(3) النزو : ضرب من العدو .

مَناصٍ » وقال الجرجانى : أى فنادوا حين لا مناص ؛ أى ساعة لا منجىً ولا فوت ، فلما قدم « لا » وأخر « حين » ٱقتضى ذلك الواو ، كما يقتضى الحال إذا جعل ابتداء وخبرا ؛ مثل قولك : جاء زيد راكبا ؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبرا ٱقتضى الواو مثل جاءنى زيد وهو راكب ، فحين ظرف لقوله « فَنَادَوْا » والمناص بمعنى التأخر والفِرار والخلاص ؛ أى نادوا لطلب الخلاص فى وقت لا يكون لهم فيه خلاص . قال الفرّاء :

* أَمِنْ ذكر ليلى إذ نَأتكَ تَنُوصُ (١) *

يقال : ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصا ومَناصا أى فَرَّ وزاغ . النحاس : ويقال : ناص ينوص إذا تقدم .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، والنَّوْص الحمار الوحشى وٱستناص أى تأخر ؛ قاله الجوهرى . وتكلم النحويون فى « وَلَاتَ حِينَ » وفى الوقف عليه ، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلّام فى كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيرا مردود . فقال سيبويه : «لات» مشبهة بليس والاسم فيها مضمر ؛ أى ليست أحياننا حين مناص . وحكى أن من العرب من يرفع بها فيقول : ولات حِينُ مناصٍ . وحكى أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفا كما كان الاسم محذوفا فى النصب ؛ أى ولات حينُ مناصٍ لنا . والوقف عليها عند سيبويه والفراء «ولات» بالتاء ثم تبتدئ «حِينَ مَنَاصٍ» وهو قول ٱبن كيسان والزجاج . قال أبو الحسن بن كيسان : والقول كما قال سيبويه ؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات . والوقوف عليها عند الكسائى بالهاء ولَاهْ . وهو قول المبرّد محمد بن يزيد . وحكى عنه على بن سليمان أن الحجة فى ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة ، كما يقال ثُمَّهْ ورُبَّهْ . وقال القشيرى : وقد يقال ثُمَّتْ بمعنى ثُمّ ، ورُبَّتْ بمعنى رُبَّ ؛ فكأنهم زادوا فى لاهاء فقالوا لَاهْ ، كما قالوا فى ثم ثُمَّهْ ثم عند الوصل صارت تاء . وقال الثعلبى : وقال أهل اللغة و « لَاتَ حِينَ » مفتوحتان كأنهما

(١) تمامه : * فتقصر عنها خطوة وتبوص *

والبوص بالباء الموحدة التقدّم .

كلمة واحدة ، وإنما هى « لا » زيدت فيها التاء نحو ربّ ورُبّتْ وثمّ وثُمّتْ . قال أبو زبيد الطائى :

طَلَبُوا صُلْحَنا ولَاتَ أَوَانٍ * فَأَجَبْنا أَنْ ليس حينَ بقاءِ

وقال آخر :

تذكَّرَ حُبَّ ليلى لَاتَ حِينَا * وأمسى الشَّيْبُ قدقَطَعَ الْقَرِينا

ومن العرب من يخفض بها، وأنشد الفراء :

فَلَتَعْرِفَنّ خَلَائقًا مَشْمُولَةً * وَلَتَنْدَمَنّ ولاتَ ساعةِ مَنْدَمِ

وكان الكسائى والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن « ولات حين » التاء منقطعة من حين ، ويقولون معناها وليست . وكذلك هو فى المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين . وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلّام . الوقف عندى على هذا الحرف « ولا » والابتداء « تَحِينَ مَنَاصٍ » فتكون التاء مع حين . وقال بعضهم : « لات » ثم يبتدئ فيقول « حِينَ مَنَاصٍ » . قال المهدوى : وذكر أبو عبيد أن التاء فى المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين ، وهو خلاف قول المفسرين . ومن حجة أبى عبيد أن قال : إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا فى حين وأوان والآن . وأنشد لأبى وَجْزَةَ السعدىّ :

العاطفونَ تَحِينَ مامِنْ عاطِفٍ * والمُطْعِمون زَمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ

وأنشد لأبى زبيد الطائى :

طلبوا صلحنا ولا تأوانٍ * فأجبنا أن ليس حين بقاءِ

فأدخل التاء فى أوان . قال أبو عبيد : ومن إدخالهم التاء فى الآن ، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فذكر مناقبه ثم قال : اذهبْ بها تَلَانَ معك . وكذلك قول الشاعر[1] :

نَوِّلِي قَبْلَ نَأْيِ دَارِى جُمَانَا * وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلَانَا

(١) هو جميل بن معمر وبعده : إن خير المواصلين صفاء * من يوافى خليله حيث كانا

قال أبو عبيد : ثم مع هذا كله إنى تعمدت النظر فى الذى يقال له الإمام — مصحف عثمان — فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين . قال أبو جعفر النحاس : أما البيت الأول الذى أنشده لأبى وَجْزَة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفى أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

* العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفِ *

والرواية الثانية :

* العاطِفونَ ولاتَ حِينَ تَعاطُفِ *

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

* العاطِفونةَ حِينَ ما مِن عاطِفٍ *

جعلها هاء فى الوقف وتاء فى الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث .

والرواية الرابعة :

* العاطِفونهُ حِينَ ما مِن عاطِفٍ *

وفى هذه الرواية تقديران : أحدهما وهو مذهب إسمعيل بن إسحق أن الهاء فى موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيدا فإذا كنيت قلت الضاربوهُ . وأجاز سيبويه فى الشعر الضاربونهُ، فجاء إسمعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه فى إجازته مثله . والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة، كما تقول : مرّ بنا المسلمونهْ فى الوقف، ثم أجريت فى الوصل مجراها فى الوقف؛ كما قرأ أهل المدينة « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ » وأما البيت الثانى فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئا مشكلا؛ لأنه يروى (ولات أوانٍ) بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا . وإن كان قد روى عن عيسى بن عمر أنه قرأ « ولاتِ حِينَ مناصٍ » [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ « ولاتِ حينَ مناص »] (١) فبنى « لاتِ » على الكسر ونصب « حينَ » فأما (ولَاتَ أوانٍ) ففيه تقديران ؛ قال الأخفش : فيه مضمر أى ولات حين أوان .

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

قال النحاس : وهذا القول بيّن الخطإ . والتقدير الآخر عن أبي إسحق قال : تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين . وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانُ) بالرفع . وأما البيت الثالث فبيت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة . على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الان) . وقال غيره : المعنى كما زعمت أنت الآن . فأسقط الهمزة من أنت والنون . وأما احتجاجه بحديث ابن عمر ، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : اذهب بها تَلَانَ إلى أصحابك فلا حجة فيه ؛ لأن المحدّث إنما يروى هذا على المعنى . والدليل على هذا أن مجاهدا يروى عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه : اذهب فاجهد جهدك . ورواه آخر : اذهب بها الآن معك . وأما احتجاجه بأنه وجدها فى الإمام « تَحِينَ » فلا حجة فيه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفا لها فليس بإمام لها ، وفى المصاحف كلها « ولات » فلو لم يكن فى هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعا . وجمع مناص مناوص .

قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أن » فى موضع نصب والمعنى من أن جاءهم . قيل : هو متصل بقوله « فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أى فى عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : « كَمْ أَهْلَكْنَا » معترض . وقيل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أى ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم . ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ أى يجىء بالكلام المموّه الذى يخدع به الناس ؛ وقيل : يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أى فى دعوى النبوّة .

قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ مفعولان أى صيّر الآلهة إلها واحدا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أى عجيب . وقرأ السلمى « عُجَّابٌ » بالتشديد . والعُجَاب والعجاب

والعَجَب سواء . وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجاب فقال : العَجِيب العَجَب ، والعُجَاب الذى قد تجاوز حدّ العَجَب ، والطويل الذى فيه طول ، والطُّوَال ، الذى قد تجاوز حدّ الطُّول . وقال الجوهرى : العَجِيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال مقاتل : «عُجَّابٌ» لغة أزد شنوءة . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند رأس أبى طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كى يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبى طالب ، فقال : يٱبن أخى ما تريد من قومك؟ فقال : "ياعمّ إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّى إليهم بها الجزية العجم" فقال : وما هى ؟ قال : " لا إله إلا الله " قال : فقالوا « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » قال : فنزل فيهم القرآن « صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِى ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » حتى بلغ « إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ » خرّجه الترمذى أيضا بمعناه . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقيل : لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه شق على قريش إسلامه فٱجتمعوا إلى أبى طالب وقالوا : ٱقض بيننا وبين ٱبن أخيك . فأرسل أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء[1] ، فلا تمل كل الميل على قومك . قال : "وماذا يسألونى" قالوا : ٱرفضنا وٱرفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "أتعطوننى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم" فقال أبو جهل : لله أبوك ! لنعطينكها وعشر أمثالها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا إله إلا الله " فنفروا من ذلك وقاموا ؛ فقالوا : « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا » فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد . فأنزل الله فيهم هذا الآيات إلى قوله : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ » .

---

(١) فى نسخ الأصل : يسألك ذا السواء . وفى أبى السعود : يسألونك السواء والإنصاف . وفى البيضاوى كما فى الكشاف : يسألونك السؤال . وعلق عليه الشهاب بقوله : والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أى العدل كما وقع فى غيره من التفاسير اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ « الملأ » الأشراف ، والانطلاق الذهاب بسرعة ؛ أى انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض « أَنِ ٱمْشُوا » أى امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا فى دينه ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ . وقيل : هو إشارة إلى مشيهم إلى أبى طالب فى مرضه كما سبق . وفى رواية محمد بن إسحق أنهم أبو جهل بن هشام ، وشيبة وعُتبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس ، وأمية بن خلف ، والعاص ابن وائل ، وأبو معيط ؛ جاءوا إلى أبى طالب فقالوا : أنت سيدنا وأنصفنا فى أنفسنا ، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه ، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا . فأرسل أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة " فقال أبو جهل وعشرا . قال : " تقولون لا إله إلا الله " فقاموا وقالوا : « أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا » الآيات . « أَنِ ٱمْشُوا » « أن » فى موضع نصب والمعنى بأن امشوا . وقيل : « أن » بمعنى أى ؛ أى « وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى امشوا ؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ . وقيل : المعنى وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : « ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ » أى على عبادة آلهتكم « إِنَّ هَـٰذَا » أى هذا الذى جاء به محمد عليه السلام ﴿ لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ أى يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

وغير تنزل بهم . وقيل : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » كلمة تحذير ؛ أى إنمـا يريد محمد بمـا يقول الانقياد له ليعـلو علينا، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بمـا يريد، فآحذروا أن تطيعوه . وقال مقاتل : إن عمر لمـا أسلم وقوى به الإسلام شقّ ذلك على قريش فقالوا : إن إسـلام عمر فى قوّة الإسلام لشىء يراد .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ قال ابن عباس والقرظىّ وقتادة ومقاتل والكلبىّ والسدىّ : يعنون ملّة عيسى النصرانية وهى آخر الملل . والنصارى يجعلون مع الله إلها . وقال مجاهد وقتادة أيضا : يعنون ملة قريش . وقال الحسن : ما سمعنا أن هذا يكون فى آخر الزمان . وقيل : أى ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسول حقّ . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أى كذب وتخرص ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : خلق وآختلق أى آبتـدع ، وخلق الله عز وجل الخلق من هذا ؛ أى آبتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ هو استفهام إنكار، والذكر ها هنا القرآن. أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم ؛ فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أى من وحيى وهو القرآن . أى قد علموا أنك لم تزل صدوقا فيما بينهم ، وإنما شكّوا فيما أنزلته عليك هل هو من عنـدى أم لا . ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أى إنمـا آغتروا بطـول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابى على الشرك لزال عنهم الشـك ، ولمـا قالوا ذلك ؛ ولكن لا ينفع الإيمـان حينئذ . و « لَمَّـا » بمعنى لم وما زائدة كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ » و « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَـةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ قيـل : أم لهم هـذا فيمنعوا محمدا عليه السلام ممـا أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة . و « أم » قـد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبله ؛ كقوله تعـالى : « الٓمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » . وقد قيل إن قوله : « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » متصل بقوله : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء ؛ لأن خزائن السموات والأرض له . ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

أى فإن آدعوا ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ ﴾ أى فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحى على محمد . يقال : رَقِىَ يرقَى وآرتقى إذا صَعِد . ورَقَى يَرْقِى رَقْيا مثل رَمَى يَرْمِى رَمْيا من الرقيـة . قال الربيع بن أنس : الأسباب أرق من الشعر وأشـدّ من الحديد ولكن لا ترى . والسبب فى اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره . وقيل : الأسباب أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها ؛ قاله مجاهد وقتادة . قال زهير :

* ولَوْ رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُـلَّمِ (١) *

وقيـل : الأسـباب السموات نفسها ؛ أى فليصعدوا سمـاء سماء . وقال السـدى : « فى الْأَسْبَابِ » فى الفضل والدين . وقيل : أى فليعلوا فى أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة . وهو معنى قول أبى عبيدة . وقيل : الأسباب الحبال ؛ يعنى إن وجدوا حبلا أو سببا يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا ؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز . ثم وعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر عليهم فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ ﴾ « ما » صلة وتقديره هم جند ؛ فـ « جُنْدٌ » خبر ابتداء محذوف . ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ أى مقموع ذليل قد آنقطعت حجتهم ؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا . ويقال : هُزِمت القـرية إذا آنكسرت ، وهزمتُ الجيش كسرته . والكلام مرتبط بما قبـل ؛ أى « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِـقَاقٍ » وهم جند من الأحزاب مهزومون ، فلا تغمك عزتهـم وشقاقهم ، فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزهم . وهـذا تأنيس للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد فُعِل بهم هذا فى يوم بَدْر . قال قتادة : وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلهـا يوم بَدْر . و « هُنَالِكَ » إشارة لبدر وهو موضع تحـزبهم لقتال محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزّبوا على النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى ذلك فى « الأحزاب (٢) » . والأحزاب الجند ، كما يقال جند من قبائل شتّى . وقيـل : أراد بالأحزاب القرون المـاضية من الكفّار . أى هؤلاء جنـد على طريقة أولئك ؛ كقوله

---

(١) صدر البيت : * ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ وما بعدها طبعة أو ثانية .

تعـالى : « فَمَنْ شَرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » أى على دينى ومذهبى . وقال الفراء : المعنى هم جندٌ مغلوب ؛ أى ممنوع عن أن يصعد إلى السماء . وقال القتبى : يعنى أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم ، فهم لا يقدرون على أن يدّعوا الشىء من آلهتهم ، ولا لأنفسهم شيئا من خزائن رحمة الله ، ولا من ملك السمواتِ والأرض .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُـودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُولَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكرها تعزية للنبى صلى الله عليه وسلم وتسلية له ، أى هؤلاء من قومك يامحمد جند من الأحزاب المتقدّمين الذين تحزّبوا على أنبيائهم ، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا . وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث ، وٱختلف أهل العربية فى ذلك على قولين : أحدهما ــ أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث . الثانى ــ أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه ، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة ، فيغلب فى اللفظ حـكم المعنى المضمر تنبيها عليه ؛ كقوله تعـالى : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ » ولم يقل ذكرها ؛ لأنه لمـا كان المضمر فيه مذكرا ذكره ، وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث . ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد . وقد ٱختلف فى تأويل ذلك ؛ فقال ٱبن عباس : المعنى ذو البناء المحكم . وقال الضحاك : كان كثير البنيان والبنيان يسمى أوتادا . وعن ٱبن عباس أيضا وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلْعَب له عليها . وعن الضحاك أيضا : ذو القوّة والبطش . وقال الكلبى ومقاتل : كان يعذّب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقيا بين أربعة أوتاد فى الأرض ، ويرسل عليـه العقارب والحيات حتى يموت . وقيـل : كان يشبح المعذب بين أربع سـوارٍ ؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيـه وَتِد من حديد ويتركه حتى يموت . وقيل : ذو الأوتاد أى ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا ؛

لأنهم يقوّون أمره كما يقـوّى الوتد البيت . وقال ابن قتيبة : العرب تقول هم فى عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائما شديدا . وأصل هذا أن البيت من بيوت الشّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد . قال الأسود بن يَعْفُر :

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَم عيشــةٍ * فى ظـلّ مُلْكٍ ثابتِ الأوتادِ

وواحد الأوتاد وَتِد بالكسر ، و بالفتح لغة . وقال الأصمعى : يقال وَتد واتِد كما يقال شغل شاغل . وأنشد(١) :

لاقتْ على المـاءِ جُذَيْلا وَاتِدَا * ولم يكن يُخْلِفُــها المَــوَاعِدَا

قال : شبه الرجل بالجذْل . ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أى الغيضة . وقد مضى ذكرها فى « الشعراء »(٢) . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « لَيْكَةَ » بفتح اللام والتـاء من غير همز . وهمز الباقون وكسروا التاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ أُولَٰئِـكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى هم الموصوفون بالقوّة والكثرة ؛ كقولك فلان هو الرجل . ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ بمعنى ما كلّ. ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أى فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب. وأثبت يعقوب الياء فى « عذابِى » و « عِقابِى » فى الحالين وحذفها البـاقون فى الحالين . ونظير هـذه الآية قوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْـلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْـلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ » فسمى هذه الأمم أحزابا .

قوله تعـالى : وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْظُـرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ « يَنْظُرُ » بمعنى ينتظر ؛ ومنـه قوله تعـالى : « انْظُـرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . « هٰؤُلَاءِ » يعنى كفار مكة . « إِلَّا صَيْحَةً

(١) البيت لأبى محمد الفقعسى . والضمير فى لاقت ضمير الإبل . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وَاحِدَةً » أى نفخة القيامة . أى ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة . وقيل : ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التى هى النفخة فى الصور، كما قال تعالى : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت . وقيل : أى ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهى النفخة . وقال عبد الله بن عمرو : لم تكن صيحة فى السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض . ﴿ مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى من ترداد؛ عن ابن عباس . مجاهد : مالها رجوع . قتادة : مالها من مثنوية . السدّى : مالها من إفاقة . وقرأ حمزة والكسائى «مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ» بضم الفاء . الباقون بالفتح . الجوهرى : والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت ؛ لأنها تُحلَب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرَّ ثم تُحلَب . يقال : ما أقام عنده إلا فُوَاقا؛ وفى الحديث : "العيادة قدر فواق الناقة" . وقوله تعالى : « مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ » يقرأ بالفتح والضم أى مالها من نظرة وراحة و إفاقة . والفِيقة بالكسر آسم اللبن الذى يجتمع بين الحَلْبتين : صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ قال الأعشى يصف بقرة :

حتى إذا فِيقَـةٌ فى ضَرعِها آجتمعتْ * جاءتْ لِترُضِع شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعا

والجمع فِيَق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق . قال آبن همّام السَّلُولىّ :

وذَمُّوا لنا الدُّنيا وهُمْ يَرْضَعُونَها * أَفَاوِيقَ حتى ما يَدِرُّ لها ثُعْلُ (١)

والأفاويق أيضا ما آجتمع فى السحاب من ماء ، فهو يمطر ساعة بعد ساعة . وأفاقت الناقة إفاقة أى آجتمعت الفِيقــة فى ضرعها، فهى مُفِيـقٌ ومُفِيقَةٌ — عن أبى عمرو — والجمع مفاويق . وقال الفرّاء وأبو عبيـدة وغيرهما : « مِنْ فَوَاقٍ » بفتح الفاء أى راحة لا يفيقون فيها ، كما يفيق المريض والمغشىّ عليه . و « مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء من آنتظار . وقد تقدّم أنهما بمعنى وهو ما بين الحَلْبتين .

---

(١) البيت فى ذم علماء الدنيا . والثعل زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة ؛ وهو لا يدرو إنما ذكره للمبالغة .

قلت : والمعنى المراد أنها ممتدّة لا تقطيع فيها . وروى أبو هريرة قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى طائفة من أصحابه ؛ الحديث . وفيه " يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول آنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدّها ويديمها ويطوّلها يقول الله عز وجل « مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ » وذكر الحديث ، خرجه على بن معبد وغيره كما ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ قال مجاهد : عذابنا . وكذا قال قتادة : نصيبنا من العذاب . الحسن : نصيبنا من الجنة لنتنعم به فى الدنيا . وقاله سعيد بن جبير . ومعروف فى اللغة أن يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِطٌّ . قال الفراء : القِطّ فى كلام العرب الحظّ والنصيب . ومنه قيل للصك قِطّ . وقال أبو عبيدة والكسائى : القِطّ الكتاب بالجوائز والجمع القطوط ؛ قال الأعشى :

ولا المَلِكُ النّعمانُ يومَ لَقِيتُـهُ * بِغِبْطتِهِ يُعطِى القُطوطَ ويَأْفِقُ

يعنى كتب الجوائز . ويروى : بأُمَّتِهِ بدل بغبطته ، أى بنعمته وحاله الجليلة ، ويأفق يصلح . ويقال فى جمع قِط أيضا قِطَطة وفى القليل أقط وأَقْطاط . ذكره النحاس . وقال السدى : سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به . وقال إسمعيل بن أبى خالد : المعنى عجل لنا أرزاقنا . وقيل : معناه عجل لنا ما يكفينا ؛ من قولهم : قَطْنِي ؛ أى يكفيني . وقيل : إنهم قالوا ذلك آستعجالا لكتبهم التى يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلى عليهم بذلك القرآن . وهو قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » . « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » . وأصل القِطّ القَطّ وهو القطع ، ومنه قَطّ القلم ؛ فالقِط آسم للقطعة من الشىء كالقَسْم والقِسْم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره ، إلا أنه فى الكتاب أكثر آستعمالا وأقوى حقيقة . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

قومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما * يُجْبَى إليهِ والقِطُّ والقَـلَمُ

﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى قبل يوم القيامة فى الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد . وكل هذا آستهزاء منهم .

قوله تعالى : ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لما آستهزءوا به . وهذه منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم ، وسلّاه بكل ما تقدّم ذكره . ثم أخذ فى ذكر داود وقصص الأنبياء ؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم ؛ وليعلم أن له فى الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء . وقيل : المعنى آصبر على قولهم ، وآذكر لهم أقاصيص الأنبياء ؛ لتكون برهانا على صحة نبوّتك . « ذَا الْأَيْدِ » ذا القوّة فى العبادة . وكان يصوم يوما و يفطر يوما ، وذلك أشد الصوم وأفضله ؛ وكان يصلى نصف الليل ، وكان لا يفر إذا لاقى العدوّ ، وكان قويا فى الدعاء إلى الله تعالى . وقوله : « عَبْدَنَا » إظهارا لشرفه بهذه الإضافة . ويقال : الأَيْدُ والآدُ كما تقول العيب والعاب . قال[1] :

* لم يَكُ يَنْآدُ فَأَمْسَى آنْآدا *

ومنه رجل أَيِّدٌ أى قوىّ . وتَأَيَّدَ الشيء تقوّى ؛ قال الشاعر :

إذا القوسُ وَتَّرها أَيِّدٌ * رَمَى فأصابَ الكُلَى والذُّرا

يقول : إذا الله وَتَّر القوسَ التى فى السحاب رَمَى كُلى الإبل وأسنمتها بالشحم . يعنى من النبات الذى يكون من المطر . ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ قال الضحاك : أى توّاب . وعن غيره : أنه كلما ذكر

(١) هو العجاج . وآنآد العود ينآد آنئيادا فهو منآد إذا انثنى وآعوج . وصدر البيت :

* من أن تبدلت بآدى آدا *

ذنبه أو خطر على باله آستغفر منـه ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم : "إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة" . ويقال آب يؤوب إذا رجع ؛ كما قال[1] :

وكلُّ ذِى غَيْبَـةٍ يؤوبُ * وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ « يُسَبِّحْنَ » فى موضع نصب على الحال . ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معـه . قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقـه تسبيح الجبال . وقال ابن عباس : « يُسَـبِّحْنَ » يصلين . وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه النـاس وعرفوه . وقال محمد بن إسحق : أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن، وما تصغى لحسنه [الطير[2]] وتصوت معه، فهـذا تسبيح الجبال والطير . وقيـل : سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها ؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين . وقد مضى القول فى هذا فى « سبإ[3] » وفى « سبحان[4] » عند قوله تعالى « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وأن ذلك تسبيح مقـال على الصحيح من الأقوال . والله أعلم . ﴿ بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ الإشراق أيضا آبيضاض الشمس بعد طلوعها . يقال : شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها .

الثانيـة — روى عن آبن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية « بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ » ولا أدرى ما هى ، حتى حدّثتنى أم هانئ أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم دخل عليها ،

---

(١) هو عبيد بن الأبرص . (٢) زيادة يقتضيها المعنى . (٣) راجع ج ١٤ ص ٢٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال : " يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق " .
وقال عكرمة قال ابن عباس : كان فى نفسى شىء من صلاة الضحى حتى وجدتها فى القرآن
« يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » . قال عكرمة : وكان ابن عباس لا يصلى صلاة الضحى
ثم صلاها بعد . وروى أن كعب الأحبار قال لابن عباس : إنى أجد فى كتب الله صلاة
بعد طلوع الشمس هى صلاة الأوابين . فقال ابن عباس : وأنا أوجدك فى القرآن ؛ ذلك
فى قصة داود « يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » .

الثالثة — صلاة الضحى نافلة مستحبة ، وهى فى الغداة بإزاء العصر فى العشى ،
لا ينبغى أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة ، ويرتفع كدرها ، وتشرق بنورها ؛ كما لا تصلى
العصر اذا اصفرت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : " صلاة الأوابين حين تَرْمَض الفصالُ " الفصال والفصلان جمع فَصيل ، وهو
الذى يفطم من الرضاعة من الإبل . والرمضاء شدّة الحر فى الأرض . وخصّ الفصال هنا
بالذكر ؛ لأنها هى التى تَرْمَض قبل انتهاء شدّة الحر التى تَرْمَض بها أمهاتها لقلة جلَدها ، وذلك
يكون فى الضحى أو بعده بقليل ، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها ؛ قاله
القاضى أبو بكر بن العربى . ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك استعجالا ؛ لأجل شغله
فيخسر عمله ؛ لأنه يصليها فى الوقت المنهى عنه ويأتى بعمل هو عليه لا له .

الرابعة — روى الترمذى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " من صلى الضحى ثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب فى الجنة " قال
حديث غريب . وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يصبح
على كل سُلامَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة
وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى " .
وفى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على شَفْعة
الضحى غُفر له ذنوبُه وإن كانت مثل زَبَد البحر " . وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة

قال : " أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر" لفظ البخاري . وقال مسلم : "وركعتي الضحى" وخرّجه من حديث أبي الدرداء كما خرّجه البخاري من حديث أبي هريرة . وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة . والله أعلم . وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل ، ثم آستعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله . وروى من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله وآستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار" قال أبو توبة : وربما قال "يمسى" كذا خرجه مسلم . وقوله : "ويجزى من ذلك ركعتان" أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان . وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد ؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال . قال الفراء : ولو قرئ « وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ » لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل . قال ابن عباس : كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال وآجتمعت إليه الطير فسبحت معه . فآجتماعها إليه حشرها . فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبيح الله معه . وقيل : أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبيح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور . ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ ﴾ أي لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيع ؛ أي تأتيه وتسبح معه . وقيل : الهاء لله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ أي قويناه حتى ثبت . قيل : بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب . وقيل : بكثرة الجنود . وقيل : بالتأييد والنصر . وهذا آختيار ابن العربي.

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان داود أشدّ ملوك الأرض سلطانا . كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضى عنكم نبىّ الله . والمُلْك عبارة عن كثرة المِلك ؛ فقد يكون للرجل مِلك ولكن لا يكون ملِكا حتى يكثر ذلك ؛ فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف فى المنافع التى يفتقر إليها لضرورته الآدمية . وقد مضى هذا المعنى فى « براءة »[1] وحقيقة الملك فى « النمل » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أى النبوة ؛ قاله السدى . مجاهد : العدل . أبو العالية : العلم بكتاب الله تعالى . قتادة : السنة . شريح : العلم والفقه . ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمى وقتادة : يعنى الفصل فى القضاء . وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس : بيان الكلام . علىّ بن أبى طالب : هو البينة على المدّعى واليمين على من أنكر . وقاله شُرَيح والشَّعْبىّ وقتادة أيضا . وقال أبو موسى الأشعرى والشَّعبى أيضا : هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها . وقيل : «فَصْلُ الْخِطَابِ» البيان الفاصل بين الحق والباطل . وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وقول علىّ رضى الله عنه يجمعه ؛ لأن مدار الحكم عليه فى القضاء ما عدا قول أبى موسى .

الثانيـة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فأما علم القضاء فلَعَمْرُ إلهك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام ؛ ففى الحديث "أقضاكم علىّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل" وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال، عارفا بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء . يروى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زُبْيَة للأسد،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٧١ طبعة أولى أو ثانية .

فوقع فيها الأسد، وٱزدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا ، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال ؛ قال فأتيتهم فقلت : أتقتلون مائتى رجل من أجل أربعة أناس ! تعالوا أقض بينكم بقضاء؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم ، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء . فجعل للأول ربع الدية، وجعل للثانى ثلث الدية ، وجعل للثالث نصف الدية ، وجعل للرابع الدية ، وجعل الدياتِ على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربع ؛ فسخط بعضهم ورضى بعضهم، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة ؛ فقال : "أنا أقضى بينكم" فقال قائل : إن عليا قد قضى بيننا . فأخبروه بما قضى علىّ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القضاء كما قضى علىّ" فى رواية : فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علىّ . وكذلك يروى فى المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال : إن ٱبن أبى ليلى — وكان قاضيا بالكوفة — جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يآبن الزانيين حدّين فى المسجد وهى قائمة . فقال : أخطأ من ستة أوجه . قال ٱبن العربى : وهذا الذى قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء . فأما قضية علىّ فلا يدركها الشادى ، ولا يلحقها بعد التمرن فى الأحكام إلا العاكف المتمادى . وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولون خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها ، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثةٍ بالمجاذبة ، فله الديةُ بما قُتِل ، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم . وأما الثانى فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالٱثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة . وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف ؛ لأنه قتل واحدا بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجارى فيه . وهذا من بديع الٱستنباط . وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعانى المتعلقة فرآها ستة : الأول أن المجنون لا حدّ عليه ؛ لأن الجنون يسقط التكليف . وهذا إذا كان القذف فى حالة الجنون ، وأما إذا كان يجنّ مرة ويفيق أخرى فإنه يحدّ بالقذف فى حالة إفاقته . والثانى قولها يآبن الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه فى أن حدّ

القذف يتداخل ؛ لأنه عنده حق الله تعالى كحدّ الخمر والزنى ، وأما الشافعى ومالك فإنهما يريان أن الحدّ بالقذف حقّ للآدمى ، فيتعدد بتعدد المقذوف . الثالث أنه جَلَدَ بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامة حدّ القذف بإجماع من الأمة ، إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حقّ لله تعالى ، ومن يقول إنه حقّ الآدمى . وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقّ للآدمى ؛ إذ لو كان حقّا لله لما توقف على المطالبة كحدّ الزنى . الرابع أنه والى بين الحدّين ، ومن وجب عليه حدّان لم يُوالَ بينهما ، بل يحدّ لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، [أو يستبل المضروب][1] ثم يقام عليه الحدّ الآخر . الخامس أنه حدّها قائمة ، ولا تحدّ المرأة إلا جالسة مستورة ؛ قال بعض الناس : فى زنبيل . السادس أنه أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعا . وفى القضاء فى المسجد والتعزير فيه خلاف . قال القاضى : فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء ، الذى وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات فى الحديث المروى " أقضاكم على " . وأما من قال : إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم دون العرب ؛ وقد بين هذا بقوله : " وأوتيت جوامع الكلم " . وأما من قال : إنه قوله أما بعد ؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته " أما بعد " . ويروى أن أول من قالها فى الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أول من آمن بالبعث ، وأوّل من توكأ على عصا، وعُمِّر مائة وثمانين سنة . ولو صح أن داود عليه السلام قالها ، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم، وإنما كان بلسانه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ

(١) الزيادة من ابن العربى .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

فيه أربع وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ « الْخَصْمُ » يقع على الواحد والاثنين والجماعة ؛ لأن أصله المصدر . قال الشاعر :

وَخَصْمٌ غِضَابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ * كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيَا

النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا مَلَكان . وقيل : « تَسَوَّرُوا » وإن كانا اثنين حملًا على الخصم ، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له ، مثل الركب والصحب . وتقديره للاثنين ذوا خصمٍ وللجماعة ذوو خصمٍ . ومعنى « تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أتوه من أعلى سوره . يقال : تسوّر الحائط تسلّقه ، والسور حائط المدينة وهو بغير همز ، وكذلك السُّوَر جمع سورةٍ مثل بُسْرةٍ وبُسَرٍ وهى كل منزلة من البناء . ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . وقد مضى فى مقدمة الكتاب بيان هذا[1] . وقول النابغة :

ألم تَرَ أنَّ الله أعطاكَ سُورةً * تَرى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يتَذَبْذَبُ

يريد شرفا ومنزلة . فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام فى الإناء . ابن العربى : والسؤر الوليمة بالفارسى . وفى الحديث : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب "إن جابرا قد صنع لكم سؤرا فَحَيَّهَلًا بكم" والمحراب هنا الغرفة ؛ لأنهم تسوّروا عليه فيها ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد . وقد مضى القول فيه فى غير موضع[2] . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ ﴾ جاءت « إِذْ » مرتين ؛ لأنهما فعلان . وزعم

(١) راجع جـ ١ ص ٦٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٧١ و جـ ١١ ص ٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الفرّاء : أن إحداهما بمعنى لمـا . وقول آخر أن تكون الثانيـة مع ما بعدها تبيينا لمـا قبلها . قيـل : إنهما كانا إنسيين ؛ قاله النقاش . وقيـل : ملَكين ؛ قاله جماعة . وعينهما جماعة فقالوا : إنهما جبريل وميكائيل . وقيـل : ملَكين فى صورة إنسيين بعثهما الله إليه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس الدخول ، فتسوّروا المحراب عليـه ، فما شعر وهو فى الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين ؛ وهو قوله تعـالى : « وَهَـلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وسبب ذلك ماحكاه ابن عباس أن داود عليه السـلام حدّث نفسه إن ابتلى أن يعتصم . فقيل له : إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حِذرك . فأخذ الزَّبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليـه ، فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير ، فجعل يَدرُج بين يديه ، فهمّ أن يتناوله بيده ، فاستدرج حتى وقع فى كوّة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فطار ، فاطلع ليبصره فأشرف على امرأة تغتسل ، فلما رأته غطت جسـدها بشعرها . قال السـدى : فوقعت فى قلبه . قال ابن عباس : وكان زوجها غازيا فى سبيل الله وهو أورِيا بن حنان ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها فى حَمَلة التابوت ، وكان حَمَـلة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا ، فقدّمه فيهم فقتل ، فلما انقضت عدّتها خطبها داود ، واشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده ، وكتبت عليه بذلك كتابا ، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بنى إسرائيل ، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشبَّ ، وتسوّر الملَكان وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه . ذكره المـاوردى وغيره . ولا يصح . قال ابن العربى : وهو أمثل ما روى فى ذلك[1] .

---

(١) ما أورده القرطبى هنا فى حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لهـا ، وهو هراء وافتراء كما قال البيضاوى ، ومما يقدح فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول : ويعلم قطعا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ، ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فمـا حكى الله تعالى فى كتابه يمر على ما أراده تعالى ، وما حكى القصاص ممـا فيه غض من منصب النبوة طرحناه ؛ ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل فى كل شـبهة * إذا آثر الأخبار جلاس قصاص

والرقاشى مطروح الرواية عند التحقيق . وسيأتى للؤلف أن ينقل عن النحاس فى صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أوردناه .

قلت : ورواه مرفوعا بمعناه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيد الرقاشي ، سمع أنس بن مالك يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثا وأوصى صاحب البَعْث فقال إذا حضر العدوّ قَرِّب فلانا وسماه قال فقرّبه بين يدي التابوت — قال — وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يُستنصَر به فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقُدِّم فقُتِل زوجُ المرأة ونزل الملكان على داود فقصّا عليه القصّة " . وقال سعيد عن قتادة : كتب إلى زوجها وذلك في حِصار عَمَّان مدينة بلقاء(١) أن يأخذوا بحلقة الباب ، وفيه الموت الأحمر، فتقدّم فقتل . وقال الثعلبي قال قوم من العلماء : إنما آمتحن الله داود بالخطيئة؛ لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم و إسحق و يعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو ما آمتحنهم، و يعطيه نحو ما أعطاهم . وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه ، و يوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله . وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم و إسحق و يعقوب . فقال : يارب ! إن الخير كله قد ذهب به آبائي ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إنهم آبتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها ؛ آبتلي إبراهيم بنمروذ و بالنار و بذبح آبنه ، وآبتلي إسحق بالذبح وآبتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فآبتلني بمثل ما آبتليتهم، وأعطني مثل ما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة . فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه، وأغلق بابه ، وجعل يصلي و يقرأ الزبور . فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فيها من كل لون حسن ، فوقفت بين رجليه، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لآبن له صغير ، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة، فذهب ليأخذها فطارت ونَظَرُ داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها، فنظر آمرأة في بستان على شط بركة

---

(١) مدينة بلقاء يريد بها قصبة البلقاء .

تغتسل ؛ قاله الكلبي . وقال السدى : تغتسل عريانة على سطح لها ؛ فرأى أجمل النساء خَلْقا، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده إعجابا بها . وكان زوجها أوريا بن حنان ، فى غزوة مع أيوب بن صوريا ٱبن أخت داود، فكتب داود إلى أيوب أن ٱبعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا ، وقَدِّمه قبل التابوت ، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد. فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك . قال الكلبي : وكان أوريا سيف الله فى أرضه فى زمان داود ، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهى ذلك إلى العرش ، فتكبّر ملائكة العرش بتكبيره . قال : وكان سيوف الله ثلاثة [1] ؛ كالب بن يوفنا فى زمن موسى، وأوريا فى زمن داود، وحمزة بن عبد المطلب فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه : أن ٱبعثه فى بعث كذا وقدّمه قبل التابوت ؛ ففتح الله عليه ، فقتل فى الثالثة شهيدا . فتزوج داود تلك المرأة حين ٱنقضت عدّتها . فهى أم سليمان بن داود . وقيل : سبب ٱمتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يومٍ بغير مقارفة شيء . قال الحسن : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء ؛ جزءا لنسائه، وجزءا للعبادة ، وجزءا لبنى إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوما للقضاء، فتذاكروا هل يمر على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك، فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته ، وأمر ألا يدخل عليه أحد ، وأكب على قراءة الزبور ، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه . وذكر نحو ما تقدّم . قال علماؤنا : وفى هذا دليل وهى .

الثانية — على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم ، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولا بالعبادة . وقد مضى هذا المعنى فى « النساء » [2] . وحكم كعب بذلك فى زمن عمر بحضره رضى الله عنهما . وقد قال عليه السلام

(١) فى النسخة الخيرية : وكان سيوف الله هكذا ثلاثة. (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩ طبعة أولى أو ثانية.

لعبد الله بن عمر : " إنّ لزوجك عليك حقا " الحديث . وقال الحسن أيضا ومجاهد : إن داود عليه السلام قال لبنى إسرائيل حين آستخلف : والله لأعدلنّ بينكم ، ولم يستثن فابتلى بهذا . وقال أبو بكر الورّاق : كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال : هل فى الأرض أحد يعمل كعملى . [فأرسل][1] الله إليه جبريل ، فقال إن الله تعالى يقول لك: عجبتَ بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب ، فإن أعجبتَ ثانية وكَلْتك إلى نفسك . قال : يا رب كِلْنى إلى نفسى سنة . قال : إن ذلك لكثير . قال : فشهرا . قال : إن ذلك لكثير . قال : فيوما . قال: إن ذلك لكثير . قال : يا رب فكِلْنى إلى نفسى ساعة . قال : فشأنك بها . فوكّل الأحراس ، ولبس الصوف ، ودخل المحراب ، ووضع الزّبور بين يديه ؛ فبينما هو فى عبادته إذ وقع الطائر بين يديه ، فكان من أمر المرأة ما كان . وقال سفيان الثورى قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم ، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم . فأوحى الله إليه : يا داود منك ذلك أو منى ؟ وعزتى لأكلنك إلى نفسك . قال : يا رب آعف عنّى . قال : أكلك إلى نفسك سنة . قال : لا بعزّتك . قال : فشهرا . قال : لا بعزّتك . قال : فأسبوعا . قال : لا بعزّتك . قال : فيوما . قال : لا بعزّتك . قال : فساعة . قال : لا بعزّتك . قال : فلحظة . فقال له الشيطان : وما قدر لحظة . قال : كِلْنى إلى نفسى لحظة . فوكله الله إلى نفسه لحظة . وقيل له : هى فى يوم كذا فى وقت كذا . فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة ، ووكل الأحراس حول مكانه . قيل : أربعة آلاف . وقيل : ثلاثين ألفا أو ثلاثة وثلاثين ألفا . وخلا بعبادة ربه ، ونشر الزّبور بين يديه ، فجاءت الحمامة فوقعت له ، فكان من أمره فى لحظته مع المرأة ما كان . وأرسل الله عز وجل إليه الملَكين بعد ولادة سليمان ، وضربا له المثل بالنعاج ، فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجدا أربعين ليلة على ما يأتى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم . وقيل : لدخولهم عليه بغير إذنه . وقيل : لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب .

(١) فى الأصول : « فأوحى » .

قال ابن العربى : وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرا بحسب طاقته، مع أعوان يكثر عددهم، وآلات جمة مختلفة الأنواع . ولو قلنا : إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك «تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» إذلا يقال تسور المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازا؛ وإذا شاهدت الكوة التى يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا عُلْوى . قال الثعلبى : وقد قيل كان المتسوران أخوين من بنى إسرائيل لأب وأم . فلما قضى داود بينهما بقضية قال له ملك من الملائكة : فهلا قضيت بذلك على نفسك ياداود . قال الثعلبى : والأول أحسن أنهما كانا ملكين نبها داود على ما فعل .

قلت : وعلى هذا أكثر أهل التأويل . فإن قيل : كيف يجوز أن يقول الملكان «خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ» وذلك كذب والملائكة عن مثله منزهون . فالجواب عنه أنه لا بد فى الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا : قدرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق؛ وعلى ذلك يحمل قولهما : « إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم .

الرابعة — إن قيل : لِمَ فزع داود وهو نبى، وقد قويت نفسه بالنبوة، واطمأنت بالوحى، ووثقت بما أتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة؟ قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والإذاية ومنهما كان يخاف . ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالا : « إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى » فقال الله عز وجل «لَا تَخَافَا» . وقالت الرسل للوط : « لَا تَخَفْ » . «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » وكذا قال الملكان هنا : « لَا تَخَفْ» . قال محمد بن إسحق : بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو فى محرابه — مثلا ضربه الله له ولأوريا — فرآهما واقفين على رأسه؛ فقال : ما أدخلكما على؟ قالا : «لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ» فجئناك لتقضى بيننا .

الخامسة — قال ابن العربى : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأول — أنا لم نعلم كيفية شرعه فى الحجاب والإذن ، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام ، وقد كان ذلك فى ابتداء شرعنا مهملا فى هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان . الثانى — أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب ، لاحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب فى ذلك له . الثالث — أنه أراد أن يستوفى كلامهما الذى دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه،ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا؟وهل يقترن بذلك عذرلهما أم لايكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة ، ومثل ضرب به الله فى القصة، وأدب وقع على دعوى العصمة . الرابع — أنه يحتمل أن يكون فى مسجد ولا إذن فى المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشيرى ؛ وهو أنهما قالا : لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسوّر، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا . فقبل داود عذرهم ، وأصغى إلى قولهم .

السادسة — قوله تعالى : « خَصْمَانِ » إن قيل : كيف قال « خَصْمَانِ » وقبل هذا « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » فقيل : لأن الاثنين جمع ؛ قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين . وقال الكسائى : جمع لما كان خبرا، فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبّر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان . وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان . وقال غيره : القول محذوف ؛ أى يقول « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » قال الكسائى : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز . الماوردى : وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغيين، ولا يأتى منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض. وقيل: أى نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض . وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع . ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة

مع كل واحد من الفريق الآخر ، فخضروا الخصومات ولكن ٱبتدأ منهم ٱثنان ، فعرف داود بذكر النكاح القصة . وأغنى ذلك عن التعرّض للخصومات الأخر . والبغى التعدّى والخروج عن الواجب . يقال بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش ، ومنه بغت المـرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعــة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أى لا تجُـرْ ؛ قاله السدّى . وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أى جُرت . وفى حديث تَميم الدارِىّ : (إنكَ لَشَاطِّى) أى جائر علىّ فى الحكم . وقال قتادة : لا تَمِل . الأخفش : لا تُسرِف . وقيـل : لا تفرط . والمعنى متقارب . والأصل فيـه البعد من شطتِ الدارُ أى بعدت ؛ شطّتِ الدارُ تَشِطّ وتَشُطّ شطًّا وشُطُوطا بعدت . وأَشطَّ فى القضية أى جار ، وأَشطَّ فى السَّوْم وٱشتط أى أبعد ، وأشطُّوا فى طلبى أى أمعنوا . قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر فى كل شىء . وفى الحديث : "لهـا مهر مثلها لا وَكْس ولا شَطَط" أى لا نقصان ولا زيادة . وفى التنزيل : « لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » أى جورًا من القول وبُعدًا عن الحقّ . ﴿ وَٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ ﴾ أى أرشدنا إلى قصد السبيل .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أى قال المَلك الذى تكلم عن أُوريا « إنّ هَذَا أَخِى » أى على دينى ، وأشار إلى المدّعَى عليه . وقيل : أخى أى صاحبى . « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » وقرأ الحسن : « تَسْعٌ وتَسْعُونَ نَعْجَةً » بفتح التاء فيهما وهى لغة شاذة ، وهى الصحيحة من قراءة الحسن ؛ قاله النحاس . والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة ؛ لمـا هى عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب . وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة ؛ لأن الكل مركوب قال ٱبن عون :

أنا أبوهنّ ثلاثٌ هُنَّـــهْ * رابعةٌ فى البيت صُغْرا هُنّهْ

ونعجتى خمسا تُوفِّيهِنّـــهْ * ألَا فتًى سمحٌ يغذِّيهِنّـــهْ

طَىُّ النَّقَا فى الجوع يَطْوِيهِنّهْ * ويلُ الرَّغيف ويلَهُ مِنهُنّهْ

وقال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمن حَلَّتْ لَهُ * حَرُمتْ علىَّ وليتَها لم تَحْرُمِ
فبَعَثْتُ جاريتي فقلتُ لها آذْهَبِي * فتجَسَّسِي أخبارَها لى وآعْلَمِ
قالتْ رأيْتُ مِن الأعادى غِرَّةً * والشّاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنّما الْتفتتْ بجِيدِ جِدايةٍ * رَشَإٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٍّ أرْثَمِ

وقال آخر (١) :

فرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شاتِه * فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَهَا

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء . قال الحسين بن الفضل : هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمرا، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال نحن خصمان هذه حالنا . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل فى هذا أن المعنى؛ يقول خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسئلة؛ كما تقول: رجل يقول لآمرأته كذا؛ ما يجب عليه ؟

قلت : وقد تأول المزنىّ صاحب الشافعى هذه الآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث آبن شهاب الذى خرجه « الموطأ » وغيره : "هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَةَ" على نحو هذا ؛ قال المزنى : يحتمل هذا الحديث عندى — والله أعلم — أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عن المسئلة فأعلمهم بالحكم أنّ هذا يكون إذا آدعى صاحب فراش وصاحب زنى ، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد ، ولا على زَمْعَة قول آبنه إنه ولد زنى (٢) ، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره . وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره . وقد ذكر الله سبحانه فى كتابه مثل ذلك فى قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم، قالوا لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة، ولكنهم كلموه على المسئلة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه . فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) هو الأعشى .   (٢) قوله : « إنه ولد زنى » أولى بقول سعد بن أبى وقاص . راجع الحديث فى « الموطأ » ج ٦ ص ٤ طبعة السلطان عبد الحفيظ .

حكم فى هذه القصة على المسئلة، و إن لم يكن أحد يؤنسنى على هذا التأويل فى الحديث؛ فإنه عندى صحيح . والله أعلم .

التاســعة — قال النحاس : وفى قراءة ٱبن مسعود « إِنَّ هَٰذَا أَخِى كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى » و « كان » هنا مثل قوله عز وجل : « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » فأما قوله « أنثى » فهو تأكيد، كما يقال : هو رجل ذكر وهو تأكيد . وقيل : لما كان يقال هذه مائة نعجة، و إن كان فيها من الذكور شىء يسير، جاز أن يقال أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها . وفى التفسير : له تسع وتسعون ٱمرأة . قال ٱبن العربى : إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه، و إن كن إماء فذلك شرعنا . والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد، و إنما الحصر فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، لضعف الأبدان وقلة الأعمار . وقال القشيرى : ويجوز أن يقال لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول : لو جئتنى مائة مرة لم أقض حاجتك، أى مرارا كثيرة . قال ٱبن العــربى : قال بعض المفسرين لم يكن لداود مائة ٱمرأة، و إنما ذكر التسعة والتسعين مثلا؛ المعنى : هــذا غنىّ عن الزوجة وأنا مفتقر إليها، وهــذا فاسد من وجهين : أحدهما — أن العدول عن الظاهر بغــير دليل لا معنى له، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما فى شرعنا . الثانى — أنه روى البخارى وغيره أن سليمان قال : " لأطوفن الليلة على مائة ٱمرأة تلد كل ٱمرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله ونسى أن يقول إن شاء الله " وهذا نص .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى ٱمرأة واحدة : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أى ٱنزل لى عنها حتى أكفلها . وقال ٱبن عباس : أعطنيها . وعنه : تحوّل لى عنها . وقاله ٱبن مسعود . وقال أبو العالية : ضمها إلىّ حتى أكفلها . وقال ٱبن كيسان : ٱجعلها كِفلى ونصيبى . ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴾ أى غلبنى . قال الضحاك : إن تكلم كان أفصــح منى، و إن حارب كان أبطش منى . يقــال : عزّه يعُزّه (بضم العين فى المستقبل) عزًّا غلبــه . وفى المثل : مَن عَزَّ بَزَّ؛ أى من غَلَب سَلَب . والاسم العِزة وهى القوّة والغلبة . قال الشاعر :

قَطــاةٌ عَزّها شَركٌ فباتت * تُجاذِبُه وقــد عَلِقَ الجَناحُ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير « وَعَازَّنِي فِي الْخِطَابِ » أى غالبنى؛ من المعازّة وهى المغالبة؛ عازّه أى غالبه . قال آبن العربى : وآختلف فى سبب الغلبة ؛ فقيل : معناه غلبنى ببيانه . وقيل : غلبنى بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه . كان ببلادنا أمير يقال له سير بن أبى بكر[1] فكلمته فى أن يسأل لى رجلا حاجة ، فقال لى : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها . فقلت : أما إذا كان عدلا فلا . فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابى له وآستغر به .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام ؛ لأنه قال : لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة ، ولا إقرار من الخصم ؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن . فهذا قول .

وسيأتى بيانه فى المسئلة بعد هذا ، وهو حسن إن شاء الله تعالى . قال أبو جعفر النحاس : فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم ؛ منهم عبد الله بن مسعود وآبن عباس ، فإنهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل آنزل لى عن آمرأتك . قال أبو جعفر : فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبّهه عليه ، وليس هذا بكبير من المعاصى ، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتى بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم . كذا قال فى كتاب «إعراب القرآن» . وقال فى كتاب «معانى القرآن» له بمثله . قال رضى الله عنه : قد جاءت أخبار وقصص فى أمر داود عليه السلام وأوريا ، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده ، ولا ينبغى أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها . وأصح ما روى فى ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال « أَكْفِلْنِيهَا » أى آنزل لى عنها . وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال : ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أى تحوّل لى عنها وضمها إلىّ ، قال أبو جعفر : فهذا أجل ما روى فى هذا ، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق آمرأته ، كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يبيعه جاريته ، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده . اهـ نفح الطيب .

عز وجل على ذلك ، وعاتبه لمـا كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها، فأما غير هذا فلا ينبغى الاجتراء عليه . قال ٱبن العربى : وأما قولهم إنها لمـا أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل فى سبيل الله فهذا باطل قطعا؛ فإن داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه فى غرض نفســه ، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه : ٱنزل لى عن أهلك وعزم عليــه فى ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صـادقة ؛ كانت فى الأهل أو فى المـال . وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : إن لى زوجتين أنزل لك عن أحسنهما؛ فقال له : بارك الله لك فى أهلك . وما يجوز فعله ٱبتداء يجوز طلبه، وليس فى القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يروى هـذا ويسند ؟ ! وعلى من فى نقله يعتمد، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد . أمَا أن فى سورة «الأحزاب» نكتة تدل على أن داود قــد صارت له المرأة زوجة، وذلك قوله : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْـلُ » يعنى فى أحد الأقوال تزويج داود المرأة التى نظر إليها، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسـلم زينب بنت جحش، إلا أن تزويج زينب كان من غير سـؤال للزوج فى فراق ، بل أمره بالتمسك بزوجته، وكان تزويج داود للمـرأة بسؤال زوجها فراقها . فكانت هـذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسـلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية صلى الله عليه وسلم . ولكن قد قيل : إن معنى «سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق . وقيل : أراد بقوله : «سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه فى النكاح وغيره. وهذا أصح الأقوال. وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة آمرأة؛ وهذا نص القرآن . وروى أن سليمان كانت له ثلاثمائة آمرأة وسبعمائة جارية؛ وربك أعلم . وذكر الكيا الطبرى فى أحكامه فى قول الله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» الآية ؛ ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السـلام عن الكبائر، أن داود عليــه

السلام كان قد أقدم على خطبة آمرأة قد خطبها غيره ، يقال هو أوريا ؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه ، وزاهدين فى الخاطب الأول، ولم يكن بذلك داود عارفا ، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد ؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير ، وذلك الخاطب لا آمرأة له ، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسور الملكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض ؛ لكى يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة ، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ فيه الفتوى فى النازلة بعد السماع من أحد الخصمين، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول . قال آبن العربى : وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا فى ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر . وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين آدعى والآخر سلم فى الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى آعترف صاحبه بذلك . وقيل : تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك . والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه .

قلت : ذكر هذين الوجهين القشيرى والماوردى وغيرهما . قال القشيرى : وقوله «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ» من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال : إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد آعترافه . وقد روى هذا وإن لم تثبت روايته، فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه . قال ويحتمل أن يقال : كان من شرعهم التعويل على قول المدّعى عند سكوت المدّعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول . وقال الحليمى أبو عبد الله فى كتاب منهاج الدين له : ومما جاء فى شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت ، أو كانت خافية فظهرت السجود لله عز وجل . قال والأصل فى ذلك قوله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

الخَصْم » إلى قوله : « وَحُسْنَ مَآبٍ » . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام، أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى فى المتكلم مخايل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول ، ودعاه ذلك إلى ألا يسأل الخصم ؛ فقال له مستعجلا : « لَقَدْ ظَلَمَكَ » مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول : كانت لى مائة نعجة ولا شىء لهذا، فسرق منى هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له آرددها، وما قلت له أكفلنيها، وعلم أنى مرافعه إليك، فجرّنى قبل أن أجرّه، وجاءك متظلما من قبل أن أحضره، لتظنّ أنه هو المحق وأنى أنا الظالم . ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه فى ذلك الوقت ، وهو الفتنة التى ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فآستغفر ربه وخر راكعا لله تعالى شكرا على أن عصمه، بأن آقتصر على تظليم المشكو، ولم يزده على ذلك شيئا من آنتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصور فى القلب أنه ظالم، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه؛ فقال : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة ، التى توخاه بها بعد المغفرة ، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ فى الحكم ، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه . ثم جاء عن آبن عباس أنه قال سجدها داود شكرا، وسجدها النبى صلى الله عليه وسلم آتباعا ، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أى بسؤاله نعجتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال؛ وهو كقوله تعالى: « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ » أى من دعائه الخير .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ يقال : خليط وخلطاء ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة فى الواو . وفيه وجهان : أحدهما أنهما الأصحاب . الثانى أنهما الشركاء .

قلت : إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد آختلف العلماء فى صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء : هو أن يأتى كل واحد بغنمه فيجمعها راع واحد والدّلو والمراح. وقال طاوس وعطاء : لا يكون الخلطاء إلا الشركاء . وهذا خلاف الخبر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "لا يُجمع بين مفترق ولا يُفَرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية" وروى "فإنهما يترادّان الفضل" ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء ؛ فآعلمه . وأحكام الخلطة مذكورة فى كتب الفقه . ومالك وأصحابه و جمع من العلماء لا يرون [الصدقة] [1] على من ليس فى حصته ما تجب فيه الزكاة . وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعى : إذا كان فى جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة . قال مالك : وإن أخذ المصَدِّق بهذا ترادّوا بينهم للآختلاف فى ذلك، وتكون كحكم حاكم آختلف فيه .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى يتعدّى و يظلم . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا . ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ يعنى الصالحين أى وقليل هم فـ « ما » زائدة . وقيل : بمعنى الذى وتقديره وقليل الذين هم . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقول فى دعائه : اللهم آجعلنى من عبادك القليل . فقال له عمر : ما هذا الدعاء؟ . فقال أردت قول الله عز وجل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أى آبتليناه . « وظن » معناه أيقن . قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز فى المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين . والقراءة « فَتَنَّاهُ » بتشديد النون دون التاء . وقرأ عمر آبن الخطاب رضى الله عنه « فَتَّنَّاهُ » بتشديد التاء والنون على المبالغة . وقرأ قتادة وعبيد آبن عمير وآبن السَّمَيْقَع « فَتَنَاه » بتخفيفهما . ورواه علىّ بن نصر عن أبى عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

السادسة عشرة — قيل : لما قضى داود بينهما فى المسجد ، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، فلم يفطن داود ، فأحبا أن يعرفهما ، فصعدا إلى السماء حيال وجهه ، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى آبتلاه بذلك ، ونبهه على ما آبتلاه .

قلت : وليس فى القرآن ما يدل على القضاء فى المسجد إلا هذه الآية ، وبها آستدل من قال بجواز القضاء فى المسجد ، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعى لما أقرهم داود على ذلك . ويقول : آنصرفا إلى موضع القضاء . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء يقضون فى المسجد ، وقد قال مالك : القضاء فى المسجد من الأمر القديم . يعنى فى أكثر الأمور . ولا بأس أن يجلس فى رحبته ، ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض ، ولا يقيم فيه الحدود ، ولا بأس بخفيف الأدب . وقد قال أشهب : يقضى فى منزله وأين أحب .

السابعة عشرة — قال مالك رحمه الله : وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأول من آستقضى معاوية . قال مالك : وينبغى للقضاة مشاورة العلماء . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يستقضى حتى يكون عالما بآثار من مضى ، مستشيرا لذوى الرأى ، حليما نزها . قال : ويكون ورعا . قال مالك : وينبغى أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالما بالشروط ، عارفا بما لا بد له منه من العربية ، فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التى تتضمن حقوق المحكوم له . وينبغى له أن يقول قبل إنجاز الحكم للطلوب : أبقيتْ لك حجةٌ ؟ فإن قال لا حكم عليه ، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتى بما له وجه أو بينة . وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة فى غير هذا الموضع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ آختلف المفسرون فى الذنب الذى آستغفر منه على أقوال ستة ، الأول أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها . قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة . قال أبو إسحق : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، فصارت الأولى له والثانية عليه . الثانى أنه أغزى زوجها فى حملة التابوت . الثالث

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها . الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة ، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة . الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا ، كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهى عظيمة عند الله . السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر . قال القاضى ابن العربى : أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل ؛ وأما من قال : إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندى بحال ؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب ! وحكى السدى عن علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه قال : لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرما لجلدته ستين ومائة ؛ لأن حدّ [قاذف] الناس ثمانون وحدّ [قاذف] الأنبياء ستون ومائة . ذكره الماوردى والثعلبى أيضا . قال الثعلبى وقال الحرث الأعور عن علىّ : من حدث بحديث داود على ماترويه القصاص معتقدا جلدته حدّين ؛ لعظم ما ارتكب برمى من قد رفع الله محله ، وارتضاه من خلقه رحمة للعالمين ، وحجة للمجتهدين . قال ابن العربى : وهذا مما لم يصح عن علىّ . فإن قيل : فما حكمه عندكم ؟ قلنا : أما من قال إن نبيا زنى فإنه يقتل ، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملامسة ، فقد اختلف [نقل][1] الناس فى ذلك ؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته ، فإنه يناقض التعزير المأمور به ، فأما قولهم : إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة ، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأئمة ؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها . وأما قولهم : إنه [نوى][1] إن مات زوجها تزوجها فلا شىء فيه إذ لم يعرّضه للموت ، وأما قولهم : إنه خطب على خِطبة أوريا فباطل يردّه القرآن والآثار التفسيرية كلها .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

وقد روى أشهب عن مالك قال : بلغنى أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود عليه السلام وهى من ذهب ، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده ، ثم صنع مثل ذلك مرتين ، ثم طارت وأتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهى تغتسل ولها شعر طويل ؛ فبلغنى أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينيه . قال ابن العربى وأما قول المفسرين : إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه واتبعه فهذا لا يناقض العبادة ؛ لأنه مباح فعله ، لاسيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة ، وإنما اتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لامنفعة له فيه ، وإنما ذكرهم لحسن الطائر خُرْقٌ فى الجهالة . أما أنه روى أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه ؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روى فى الصحيح : « إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عريانا فخر عليه رِجل من جراد [من ذهب][1] فجعل يحثى منه ويجعل فى ثوبه » . فقال الله تعالى له : « يا أيوب ألم أكن أغنيتك » قال : « بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك » وقال القشيرى : فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كوّة البيت ؛ وقاله الثعلبى أيضا وقد تقدّم .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ أى خر ساجدا ، وقد يعبر عن السجود بالركوع . قال الشاعر :

فخرَّ على وَجْهِهِ راكِعًا * وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذَنْبِ

قال ابن العربى : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود ؛ فإن السجود هو الميل ، والركوع هو الانحناء ، وأحدهما يدخل على الآخر ، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته ، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر ، فسمى السجود ركوعا . وقال المهدوى : وكان ركوعهم سجودا . وقيل : بل كان سجودهم ركوعا . وقال مقاتل . فوقع من ركوعه ساجدا لله عز وجل . أى لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة ، ثم وقع من الركوع إلى السجود ؛ لاشتمالهما جميعا على الانحناء . ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أى تاب من خطيئته ورجع إلى الله .

---

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

وقال الحسين بن الفضل : سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالى عن قول الله عز وجل : «وَخَرَّ رَاكِعًا» فهل يقال للراكع خرّ ؟ . قلت : لا . قال : فما معنى الآية؟ قلت : معناها فخر بعد أن كان راكعا أى سجد .

الموفية عشرين — واختلف فى سجدة داود هل هى من عزائم السجود المأمور به فى القرآن أم لا ؟ فروى أبو سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأ بها فتشزن(١) الناس للسجود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها توبة نبيّ ولكنى رأيتكم تشزّنتم للسجود " ونزل وسجد . وهذا لفظ أبى داود . وفى البخارى وغيره عن ابن عباس أنه قال : «صٓ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسجد فيها . وقد روى من طريق عن ابن مسعود أنه قال : « صٓ » توبة نبيّ ولا يسجد فيها ؛ وعن ابن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به . قال ابن العربى : والذى عندى أنها ليست موضع سجود، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالاقتداء به . ومعنى السجود أن داود سجد خاضعا لربه ، معترفا بذنبه ، تائبا من خطيئته ، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذى اتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ؟ فإن هذا أمر مشروع فى كل أمة لكل أحد . والله أعلم .

الحادية والعشرون — قال ابن خُوَيْز منداد : قوله « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » فيه دلالة على أن السجود للشكر مفردا لا يجوز ؛ لأنه ذكر معه الركوع ، وإنما الذى يجوز أن يأتى بركعتين شكرا فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده ، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا ، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة .

---

(١) التشزن التأهب والتهيؤ للشيء .

قلت : وفى سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يوم بُشِّر برأس أبى جهل ركعتين . وخرّج من حديث أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسرّه — أو يسرّ به — خر ساجدا شكرا لله . وهذا قول الشافعى وغيره .

الثانية والعشرون — روى الترمذى وغيره واللفظ للغير : أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة ، فسمعها وهى تقول : اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا ، وارزقنى بها شكرا .

قلت : خرّج ابن ماجه فى سننه عن ابن عباس قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتاه رجل فقال : إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم ، كأنى أصلى إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدة [فسجدت](١) فسجدتْ الشجرةُ لسجودى ، فسمعتها تقول : اللهم احطط بها عنى وزرا ، واكتب لى بها أجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « السجدة » فسجد ، فسمعته يقول فى سجوده مثل الذى أخبره الرجل عن قول الشجرة . ذكره الثعلبى عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قلت يا رسول الله رأيتُنى فى النوم كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ « صٓ » فلما بلغت السجدة سجدتْ فيها ، فسمعتها تقول فى سجودها : اللهم اكتب لى بها أجرا ، وحُطَّ عنّى بها وزرا ، وارزقنى بها شكرا ، وتقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود سجدته . فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : " أفسجدت أنت يا أبا سعيد " فقلت : لا والله يا رسول الله . فقال : " لقد كنت أحق بالسجود من الشجرة " ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم « صٓ » حتى بلغ السجدة فسجد ، ثم قال مثل ما قالت الشجرة .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى فغفرنا له ذنبه . قال ابن الأنبارى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ » تام ، ثم تبتدئ « وإنّ له » وقال القشيرى : ويجوز الوقف على « فَغَفَرْنَا لَهُ » ثم تبتدئ « ذَلِكَ وإنّ لَهُ » كقوله : « هَذَا وإنّ لِلطَّاغِينَ » أى الأمر ذلك .

---

(١) الزيادة من سنن ابن ماجه .

وقال عطاء الخراسانى وغيره : إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه ، فنودى : أجائع فتطعَم وأعارٍ فتكسَى ؟ فنحب نحبة هاج المرعى من حرّ جوفه ، فغفر له وستر بها . فقال : يا رب هـذا ذنبي فيما بيني و بينك قد غفرته ، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بني إسرائيل ، تركت أولادهم أيتاما ، ونساءهم أرامل ؟ قال : يا داود لا يجاوزنى يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة . قال : يارب هكذا تكون المغفرة الهينة . ثم قيل : يا داود آرفع رأسك . فذهب ليرفع رأسـه فإذا به قد نَشِب فى الأرض ، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن آبن جابر عن عطاء . قال الوليد : وأخبرنى مُنِير بن الزبير ، قال : فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله . قال الوليد قال ابن لَهِيعة : فكان يقول فى سجوده سبحانك هـذا شرابى دموعى ، وهذا طعامى فى رماد بين يدى . فى رواية : إنه سجـد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة ، فبكى حتى نبت العشب من دموعه . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده : يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبـه حديثا فى الخلق من بعده فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهَمّ الذى هَمَمْتَ به " وقال وهب : إن داود عليه السلام نودى إنى قد غفرت لك . فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال : لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك ؟ قال : يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا . فقال الله لجبريل : آذهب إلى داود فقـل له يذهب إلى قـبر أوريا فيتحلل منه ، فأنا أسمعه نداءه . فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ، ونادى يا أوريا فقال : لبيك ! من هـذا الذى قطع علىّ لذتى وأيقظنى ؟ فقال : أنا أخوك داود أسألك أن تجعلنى فى حلٍّ فإنى عرّضتك للقتل ؛ قال : عرّضتنى للجنة فأنت فى حلّ . وقال الحسن وغيره : كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ، و يقول : تعالوا إلى داود الخطّاء ، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه . وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قَصْعة فلا يزال

يبكى حتى يبتل بدموعه، وكان يذرّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين .
وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل و يصوم نصف الدهر ، ثم صام بعده الدهر كله وقام
الليل كله ، وقال : يارب آجعل خطيئتى فى كفّى فصارت خطيئته منقوشة فى كفّه ، فكان
لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شىء إلا رآها فأبكته ، وأن كان ليؤتى بالقـدح ثلثاه ماء ،
فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه . وروى الوليد بن مسلم :
حدثنى أبو عمرو الأوزاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل عينى داود مثل
القِربتين تَنْطُفان ولقد خدّد الدموع فى وجه داود خديد الماء فى الأرض " . قال الوليد :
وحدثنا عثمان بن أبى العاتكة أنه كان فى قـول داود إذ هو خِلْوٌ من الخطيئة شـدة قوله
فى الخاطئين أن كان يقول : اللهم لا تغفر للخاطئين . ثم صار إلى أن يقول : اللهم رب آغفر
للخاطئين لكى تغفر لداود معهم؛ سبحان خالق النـور . إلهى ! خرجت أسأل أطباء عبادك
أن يداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى . إلهى ! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها
عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها ؛ سبحان خالق النور . إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت
الأرض برحبها علىّ، و إذا ذكرت رحمتك آرتد إلىّ روحى . وفى الخبر : إن داود عليه السلام
كان إذا علا المنبر رفع يمينه فآستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته؛ فكان ينادى : إلهى !
إذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الأرض برحبها، و إذا ذكرت رحمتك آرتد إلىّ روحى؛ رب !
آغفر للخاطئين كى تغفر لداود معهم . وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ،
فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها . وكان إذا كان يوم نَوْحه
نادى مناديه فى الطرق والأسـواق والأودية والشّعاب وعلى رءوس الجبال وأفواه الغيران :
ألا إن هذا يوم نَوْح داود، فمن أراد أن يبكى على ذنبه فليأت داود فيسعده؛ فيهبط السياح من
الغيران والأودية، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكَّفٌ ، و بنو إسرائيل
حول منـبره ؛ فإذا أخذ فى العـويل والنوح، وأثارت الحـرقات منابع دموعه ، صـارت
الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء، حتى يموت حول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم . ومات
داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة ؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد فى محرابه و ينزل؛

فقال : جئت لأقبض روحك . فقال : دعني حتى أنزل أو أرتقى . فقال : مالى إلى ذلك سبيل ؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثرا . قال : فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال . وكان بينه و بين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة . وقيل : تسع وسبعون ، وعاش مائة سنة ، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ قربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قالا : والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود . وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر : الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة . وعن مجاهد : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة فى يده ؛ فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى . قال : ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له ها هنا ؛ ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا ، ثم يرى فيقلق فيقال له هاهنا ؛ [حتى يقترب فيسكن][(1)] فذلك قوله عز وجل : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » ذكره الترمذى الحكيم . قال : حدثنا الفضل بن محمد ، قال حدثنا عبد الملك بن الأصبغ ، قال حدثنا الوليد بن مسلم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى عن عبد الملك بن أبى سليمان عن مجاهد فذكره . قال الترمذى : ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لى المراد والمعنى من قوله : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا » والقط الصحيفة فى اللغة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وقال لهم " إنكم ستجدون هذا كله فى صحائفكم تعطونها بشمائلكم " فقالوا : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا » أى صحيفتنا «قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» قال الله تعالى : « اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ » فقص قصة خطيئته إلى منتهاها ، فكنت أقول : أمره بالصبر على ماقالوا ، وأمره بذكر داود فأى شىء أريد من هذا الذكر؟ وكيف أتصل هذا بذاك ؟ فلا أقف على شىء يسكن قلبى عليه ، حتى هدانى الله له

(1) هذه الزيادة يقتضيها المقام ويدل عليها ما ورد فى آخر القصة .

يوما فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهــم يعطون كتبهم بشمائلهم ، فيها ذنو بهــم وخطاياهم آستهزاء بأمر الله؛ وقالوا : «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» فأوجعه ذلك من آستهزائهم ، فأمره بالصــبر على مقالتهم ، وأن يذكر عبــده داود ؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة فى كفه ، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها آضطرب وامتلأ القــدح من دموعه ، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ(١) سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فإنمــا سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعــة الخصم ، وأن الله تبارك وتعالى آسمه يستوهبه منــه ، وهو حبيبه ووليه وصفيه ؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا ، فكيف كان يحل بأعداء الله و بعصاته من خلقه وأهــل خزيه ، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التى عملوها على الكفر والجحود ، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها فى تلك الصحائف ، وقد أخبر الله عنهم فقال : «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها . وقد روينا فى الحديث : إذا رآها يوم القيامة منقوشة فى كفه قلق حتى يقال له ها هنا ، ثم يرى فيقلق ثم يقال له هاهنا ، ثم يرى فيقلق حتى يُقرب فيسكن .

قوله تعالى : يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فيــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أى ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين . وقد مضى فى «البقرة»(٢) القول فى الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله .

---

(١) لعل الأصل : حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ .

(٢) راجع ج١ ص ٢٦٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أى بالعدل . وهو أمر على الوجوب وقد ٱرتبط هذا بما قبله ؛ وذلك أن الذى عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقيل له بعد هذا فٱحكم بين الناس بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أى لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى عن طريق الجنة . ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى يحيدون عنها و يتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى النار ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أى بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله : « نَسُوا » أى تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين . ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوّة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة — الأصل فى الأقضية قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ » وقوله : « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ » وقوله تعالى : « لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ » وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ » الآية . وقد تقدّم الكلام فيه (١) .

الرابعة — قال ٱبن عباس فى قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » قال : إن ٱرتفع لك الخصمان فكان لك فى أحدهما هوًى ، فلا تشته فى نفسك الحق له ليفلُج (٢) على صاحبه ، فإن فعلتَ محوتُ ٱسمك من نبوّتى ، ثم لا تكون خليفتى ولا أهل كرامتى . فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وألّا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة ، أو غيرهما . وقال ابن عباس : إنما ٱبتلى سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوِى أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبى روّاد : بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل ، بلغ من ٱجتهاده أن طلب إلى ربه

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٧٥ وما بعدها و جـ ٦ ص ١٠٩ وما بعدها وص ٢١٢ طبعة أو ثانية .

(٢) يفلج على صاحبه : يظفر و يفوز .

أن يجعل بينه و بينه علما، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك؛ و إذا هو قصّر عرف ذلك ، فقيل له : آدخل منزلك ، ثم مدّ يدك فى جدارك ، ثم آنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فآخطط عندها خطا؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فآرجع إلى ذلك الخط فأمدد يدك إليه ، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه ، و إن قصّرت عن الحق قصّر بك ، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحق، و إذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا ، ولم يفض إلى أهله بشىء من الأمور حتى يأتى ذلك الخط ، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب . فلما كان ذات يوم وهو فى مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه، فوقع فى نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما له صديق وخدن، فتحرك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له ، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمد يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمّر إلى السقف ، و إذا هو لا يبلغه فخر ساجدا وهو يقول : يا ربّ شيئا لم أتعمده ولم أردْه فبينه لى . فقيل له : أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به ، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره . وعن ليث قال : تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له فى ذلك فقال : تقدّما إلىّ فوجدت لأحدهما مالم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك ، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما . وقال الشعبي : كان بين عمر وأُبىّ خصومة، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر : هذا أول جورك؛ أجلسنى و إياه مجلسا واحدا؛ فجلسا بين يديه .

الخامسة — هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه ويهلك عدوه إلا آدعى علمه فيما حكم به . ونحو ذلك روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود

الله ، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري . وروى أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له : احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم مالي عنده . فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرسا فجحده البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال : " من يشهد لي " فقام خزيمة فشهد فحكم . خرج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في « البقرة »(1) .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَاتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أي هزلا ولعبا . أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا . ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ثم وبخهم فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والميم صلة تقديره ؛ أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فكان في هذا رد على المرجئة؛ لأنهم يقولون : يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه . وبعده أيضا : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ابن عباس . وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن ، وهو رد على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد .

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أى هذا كتاب ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ يا محمد ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ أى ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال . وفى هذا دليل على وجوب معرفة معانى القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهَذِّ[(١)]، إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه فى كتاب التذكار . وقال الحسن : تدبر آيات الله ٱتباعها . وقراءة العامة « لِيَدَّبَّرُوا » . وقرأ أبو جعفر وشيبة « لِتَدَبَّرُوا » بتاء وتخفيف الدال، وهى قراءة علىّ[(٢)] رضى الله عنه ، والأصل لتتدبروا فخذف إحدى التائين تخفيفا ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول واحدها لُبّ، وقد جمع على أَلُبٍّ، كما جمع بُؤْسٌ على أبؤسٍ، ونُعْم على أنعم؛ قال أبو طالب :

* قلبى إليه مُشرِفُ الأَلُبِّ *

وربما أظهروا التضعيف فى ضرورة الشعر؛ قال الكُميت :

إليكم ذوِى آلِ النبىّ تطلّعت * نوازِعُ من قلبِى ظِماءٌ وأَلْبُبُ

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان . و « أَوَّابٌ » معناه مطيع . ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ يعنى الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر، كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها ؛ يقال : قوم أجواد وخيل جِياد، جاد الرجلُ بماله يجود جُودا فهو جَواد، وقوم جُود مثال

(١) الهذ : سرعة القراءة .

(٢) وفى الألوسى أن عليا قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء آخر الحروف وكذا فى البحر لأبى حيان .

قَذَالٍ وقُذُلٍ، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك آمرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر (١) :

صَناعٌ بِإشْـفاها حَصانٌ بِشَكْرِها * جوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول : سِرنا عُقْبَـةً جَوَادا، وعُقْبتين جَوَادين ، وعُقَبا جِيادا . وجاد الفرس أى صار رائعا يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جِياد وأجياد وأجاويد . وقيـل : إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجِيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [في] الخيل من صفات فَرَاهتها . وفى الصافنات أيضا وجهان : أحدهما أن صفونها قيامها . قال القتبى والفراء : الصافن فى كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها . ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأْ مقعده من النار" أى يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضا وأنشد قول النابغة :

لنـا قُبَّـةٌ مضْروبةٌ بِفِنائهـا * عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن

وهـذا قول قتادة . الثـانى أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقـوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فمـا يَزَالُ كأنَّهُ * ممَّـا يقـومُ على الثَّـلاثِ كَسِيرَا (٢)

وقال عمرو بن كُلْثوم :

تَركْنا الخَيْـلَ عاكِفَةً عليْـهِ * مُقَـلَّدَةً أَعِنَّتَهـا صُـفونَا

وهـذا قول مجاهد . قال الكلبي : غزا سـليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهـم ألف فرس . وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيـه داود ألف فرس ، وكان أبوه أصابها من العمالقة . وقال الحسن : بلغنى أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة . وقاله الضحاك . وأنهـا كانت خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشـة ذات أجنحة . آبن زيد : أخرج

(١) هو أبو شهاب الهذلى ورواه آبن السكيت : والعرض وافر، وروى : جواد بزاد الركب والعرق زاخر. وآمرأة صناع أى ماهرة حاذقة عمل اليدين، والإشفى المخصف للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفى . والشكر الفرج . والعرق زاخر أراد به الجوع يعنى تجود بقوتها مع شدة الجوع . (٢) ورد فى اللسان فى مادة صفن أن قوله مما يقوم لم يرد من قيامه، وإنما أراد من الجنس الذى يقوم على الثلاث، وجعل « كسيرا » حالا من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور.

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال على رضى الله عنه : كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة. وقيل : كانت مائة فرس. وفى الخبر عن إبراهيم التيمى : أنها كانت عشرين ألفا؛ فالله أعلم. فقال : ﴿إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى﴾ يعنى بالخير الخيل والعرب تسميها كذلك، وتعاقب بين الراء واللام؛ فتقول : انهملت العين وانهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت. قال الفراء : الخير فى كلام العرب والخيل واحد. النحاس : فى الحديث "الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة" فكأنها سميت خيرا لهذا. وفى الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له : "أنت زيد الخير" وهو زيد بن مهلهل الشاعر. وقيل : إنما سميت خيرا لما فيها من المنافع. وفى الخبر : إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له : اختر منها واحدا فاختار الفرس؛ فقيل له : اخترت عزك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسمى خيلا؛ لأنها موسومة بالعز. وسمى فرسا لأنه يفترس مسافات الجوّ افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطا وتناولا. وسمى عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسمعيل عربى فصارت له نِحْلة من الله؛ فسمى عربيا. و « حُبَّ » مفعول فى قول الفراء. المعنى إنى آثرت حبّ الخير. وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول؛ أى أحببت الخير حبا فألهانى عن ذكر ربى. وقيل : إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدت وتأخرت من قولهم : أَحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر. وأحب فلان أى طأطأ رأسه. قال أبو زيد : يقال بعير مُحِبٌّ وقد أحبّ إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب : يقال أيضا للبعير الحسير مُحِبٌّ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربى. و « حُبَّ » على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْدانى فى كتاب التبيان: أحببت بمعنى لزمت من قوله (١) :

* مِثْـلَ بَعِيرِ السَّوْءِ إِذْ أَحَبَّا *

---

(١) هو أبو محمد الفقعسى؛ وصدر البيت : * حلت عليه بالقفيل ضربا *

والقفيل السوط. وفى كتب اللغة : ضرب بعير السوء ... الخ.

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعنى الشمس كناية عن غير مذكور ؛ مثل قوله تعالى : « مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » أى على ظهر الأرض ؛ وتقول العرب : هاجت باردة أى هاجت الريح باردة . وقال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » أى بلغت النفس الحلقوم . وقال تعالى : « إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ » ولم يتقدّم للنار ذكر . وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله : « بِالْعَشِيِّ » . والعشى ما بعد الزوال، والتوارى الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ؛ قاله قتادة وكعب . وقيل : هو جبل قاف . وقيل : جبل دون قاف . والحجاب الليل سمى حجابا ؛ لأنه يستر ما فيه . وقيل : « حَتَّى تَوَارَتْ » أى الخيل فى المسابقة . وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه فى المسابقة ؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر . وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان فى صلاة، فجىء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده، لأنه كان يصلى حتى توارت الخيل، وسترتْها جُدُر الأصطبلات، فلما فرغ من صلاته قال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا » أى فأقبل يمسحها مسحا . وفى معناه قولان : أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لها، وليرُى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله . وقال قائل هذا القول : كيف يقتلها ؟ وفى ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له . وقيل : المسح ها هنا هو القطع أذِن له فى قتلها . قال الحسن والكلبي ومقاتل : صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهى تعرض عليه، وكانت ألف فرس ، فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ، ولم يُعلَمَ بذلك هيبة له فاغتم ؛ فقال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » فردّت فعقرها بالسيف ؛ قربة لله وبقى منها مائة ، فما فى أيدى الناس من الخيل العتاق اليوم فهى من نسل تلك الخيل . قال القشيرى : وقيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا ، فلم يذكّره أحد ما نسى من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحا ، فتذكر سليمان تلك

الصلاة الفائتة ، وقال على سبيل التلهف : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى عن الصلاة ، وأمر برد الأفراس إليه ، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها ، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس ؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة ، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة . ولعله عرقبها ليذبحها لحبسها بالعرقبة عن النفار، ثم ذبحها فى الحال ليتصدق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحا فى شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله ، فأثنى الله عليه بهذا ، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح ، فكان يقطع عليها من المسافة فى يوم ما يقطع مثله على الخيل فى شهرين غُدوّا ورَوَاحا. وقد قيل : إن الهاء فى قوله : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » للشمس لا للخيل . قال ابن عباس : سألت عليًّا عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها ؟ فقلت سمعت كعبا يقول : إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة، قال : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى آثرت « حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » الآية «رُدُّوهَا عَلَيَّ» يعنى الأفراس وكانت أربع عشرة ؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما ؛ لأنه ظلم الخيل . فقال على بن أبى طالب : كذب كعب ؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت ؛ أى غربت الشمس بالحجاب ؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : «رُدُّوهَا» يعنى الشمس فردوها حتى صلى العصر فى وقتها ، وأن أنبياء الله لا يظلمون؛ لأنهم معصومون .

قلت : الأكثر فى التفسير أن التى توارت بالحجاب هى الشمس ، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها؛ حسب ما تقدّم بيانه . وكثيرا ما يضمرون الشمس؛ قال لبيد :

حتّى إذا أَلْقَتْ يَدًا فى كافِرٍ * وأَجَنَّ عَوْراتِ الثُّغورِ ظَلَامُها

والهاء فى « رُدُّوهَا » للخيل، ومسحها قال الزهرى وابن كيسان : كان يمسح سوقها وأعناقها، ويكشف الغبار عنها حُبّا لها . وقاله الحسن وقتادة وابن عباس . وفى الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رؤى وهو يمسح فرسه بردائه . وقال : "إنى عوتبت الليلة فى الخيل"

خرّجه الموطأ عن يحيي بن سعيد مرسلا . وهو فى غير الموطإ مسند متصل عن مالك عن يحيي ابن سعيد عن أنس . وقد مضى فى « الأنفال »(١) قوله عليه السلام : "وآمسحوا بنواصيها وأكفالها" وروى آبن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف .

قلت : وقد آستدل الشبلي وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا . وهو آستدلال فاسد ؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبيّ معصوم أنه فعل الفساد . والمفسرون آختلفوا فى معنى الآية ؛ فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها وقال أنت فى سبيل الله ؛ فهذا إصلاح . ومنهم من قال : عرقبها ثم ذبحها ، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز . وقد مضى فى «النحل»(٢) بيانه . وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح . فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز . ومن الجائز أن يكون فى شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون فى شرعنا . وقد قيل : إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك . وقد قيل : إن مسحه أياها وَسْمُها بالكيّ وجعلها فى سبيل الله ؛ فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال . وقد يقال : الكي على الساق علاطٌ ، وعلى العنق وِثاق . والذى فى الصحاح للجوهرى : عَلَط البعيرَ عَلْطا كواه فى عنقه بسمة العِلَاط . والعِلَاطان جانبا العنق .

قلت : ومن قال إن الهاء فى « رُدُّوهَا » ترجع للشمس فذلك من معجزاته . وقد آتفق مثل ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم . خرج الطحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر عليّ ؛ فلم يصل العصر حتى غربت الشمس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصليت يا عليّ" قال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فآردد عليه الشمس" قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها بعد ما غربت طلعت على الجبال والأرض ، وذلك بالصَّهْباء فى خيبر . قال الطحاوى : وهذان الحديثان ثابتان ، ورواتهما ثقات .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وضعف أبو الفرج ابن الجوزى هذا الحديث فقال : وغلو الرافضة فى حب علىّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله ؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليا عليه السلام العصر فردّت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قـد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت . ومن قال : إن الهاء ترجع إلى الخيل، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان فى السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع . وقد مضى القول فيه فى « يوسف »[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعـد الفتنة عشرين سنة ؛ ذكره الزمخشرى . و « فَتَنَّا » أى ٱبتلينا وعاقبنا . وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : ٱختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة ٱمرأة سليمان ؛ وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذى أصابه عقوبة لذلك الهوى . وقال سعيد بن المسيّب : إن سليمان عليه السلام ٱحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد، ولا ينصف مظلوما من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه : إنى لم أستخلفك لتحتجب عن عبادى، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم.

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن منبه : إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه فى البحر، فى جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون ، فألقيت عليه محبتها وهى تعرض عنه ، لا تنظر إليه إلا شزرا، ولا تكلمه إلا نزرا ، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها، وكانت فى غاية من الجمال ، ثم أنها سألته أن يصنع لها تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر إليه ، فأمر فصنع لها فعظمته وسجدت له ، وسجدت معها جواريها، وصار صنما معبودا فى داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشا خبره فى بنى إسرائيل وعلم به سليمان فكسره ، وحرقه ثم ذرّاه فى البحر. وقيل : إن سليمان لما أصاب ٱبنة ملك صيدون وٱسمها جرادة — فيما ذكر الزمخشرى — أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت : ٱقتلنى ولا أسلم، فتزوجها وهى مشركة، فكانت تعبد صنما لها من ياقوت أربعين يوما فى خفية من سليمان؛ إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما . وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه . وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه فى شىء من حيض أو غيره . وقيل : إنه أُمِر ألا يتزوج ٱمرأة إلا من بنى إسرائيل، فتزوج ٱمرأة من غيرهم فعوقب على ذلك ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ قيل : شيطان فى قول أكثر المفسرين؛ ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه، وٱسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذى دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوّت . قال ٱبن عباس : كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر فى صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من ٱمرأة من نساء سليمان أمّ ولد له يقال لها الأمينة؛ قاله شهر ووهب . وقال ٱبن عباس وٱبن جبير : ٱسمها جرادة. فقام أربعين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى ردّ الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيِّب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته،

وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان آسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطنى خاتمك حتى أخبرك . فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسىّ سليمان، متشبها بصورته، داخلا على نسائه، يقضى بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب (١) . وآختلف فى إصابته لنساء سليمان ، فحكى عن آبن عباس ووهب بن منبّه أنه كان يأتيهنّ فى حيضهنّ . وقال مجاهد : منع من إتيانهنّ . وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيّف الناس؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه؛ قال قتادة : ثم إن سليمان بعد أن آستنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد . قيل : إنه آستطعمها . وقال آبن عباس : أخذها أجرة فى حمل حوت . وقيل : إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه، وهى عدد الأيام التى عُبِد [فيها] الصنم فى داره، وإنما وجد الخاتم فى بطن الحوت؛ لأن الشيطان الذى أخذه ألقاه فى البحر. وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يعبث بخاتمه، إذ سقط منه فى البحر وكان ملكه فى خاتمه. وقال جابر بن عبد الله قال النبى صلى الله عليه وسلم : "كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله" . وحكى يحيى بن أبى عمرو الشيبانى أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان ، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى . قال آبن عباس وغيره : ثم إن

---

(١) هذه الأقوال لا تصح قطعا لمنافاتها للعصمة التى هى من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولو صح شىء منها لكان الوحى محل الشك والارتياب؛ وقد قال أبو حيان فى تفسيره : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هى ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان . إلى أن قال : لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به ، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه ، كتمثل الشيطان بصورة نبى ، حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويعتقدوا أن ذلك المتصوّر هو النبى . ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبى ، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها .

وقال الألوسى : ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهنّ وهنّ حيض . الله أكبر ! ! هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم . وسيأتى للمؤلف تضعيف هذا القول أيضا .

سليمان لمـا ردّ الله عليه ملكه ، أخذ صخرا الذى أخذ خاتمه ، ونقر له صخرة وأدخله فيها ، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص ، وختم عليها بخاتمه وألقاها فى البحر ؛ وقال : هـذا محبسـك إلى يوم القيامة . وقال علىّ رضى الله عنـه : لمـا أخذ سليمان الخاتم ، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح ، وهرب الشـيطان الذى خلف فى أهله ، فأتى جزيرة فى البحر ، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لا نقدر عليه ، ولكنه يرد عينا فى الجزيرة فى كل سبعة أيام يوما ، ولا نقدر عليـه حتى يسكر ! قال : فنزح سليمان ماءها وجعل فيهـا خمرا ، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمـر ، فقال : والله إنكِ لشراب طيّب إلا أنكِ تطيشين الحليم ، وتزيدين الجاهل جهـلا . ثم عطش عطشا شـديدا ثم أتاها فقال مثل مقالتـه ، ثم شربها فغلبت على عقله ؛ فأروه الخاتم فقال : سمعا وطاعة . فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل ، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا : إن الدخان الذى ترون من نفسه ، والمـاء الذى يخرج من الجبل من بوله . وقال مجاهد : آسم ذلك الشيطان آصف . وقال السدى آسمه حبقيق ؛ فالله أعلم . وقد ضعف هـذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء ، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم فى حقّ ، وهم مع الشيطان فى باطل . وقيل : إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان ، وأنه لمـا ولد آجتمعت الشياطين ؛ وقال بعضهم لبعض : إن عاش له آبن لم ننفك ممـا نحن فيه من البلاء والسخرة ، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله . فعـلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب ، وغدا آبنه فى السحاب خوفا من مضرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا . قال معناه الشعبي . فهو الجسد الذى قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا » .

وحكى النقـاش وغيره : إن أكثر ما وطئ سـليمان جواريه طلبا للولد ، فولد له نصف إنسان ، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه ، جاءت به القابلة فألقته هناك . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال سليمان لأطوفنّ الليلة على

تسعين آمرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعا فلم تحمل منهن إلا آمرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيمُ الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون" وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان ، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه ، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة ؛ فقال له آصف: إنك مفتون ولذلك لا يتماسك فى يدك ، ففرّ إلى الله تعالى تائبا من ذلك ، وأنا أقوم مقامك فى عالمك إلى أن يتوب الله عليك ، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوما . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت ، وكان عنده علم من الكتاب . وقام آصف فى ملك سليمان وعياله ، يسير بسيره ويعمل بعمله ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ، وردّ الله عليه ملكه ؛ فأقام آصفَ فى مجلسه ، وجلس على كرسيّه وأخذ الخاتم . وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه ؛ وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا . وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى .

صفة كرسيّ سليمان وملكه

روى عن آبن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة كرسيّ ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يليه ، ثم يأتى أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس ، ثم يدعو الطير فتظلّهم ، ثم يدعو الريح فتقلّهم ، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر . وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه ، أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء ، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور آرتدع وتهيب ، فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدرّ والياقوت والزبرجد ، وأن يحفَّ بنخيل الذهب ؛ فحف بأربع نخلات من ذهب ، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منهما طاوسان من ذهب ، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض ، وجعلوا من جنبيِ الكرسيّ أسدين من ذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر .

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسى. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسىّ كله بما فيه دوران الرحى المسرعة؛ وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها، ويبسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يفعل فى كل درجة يصعدها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النَّسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسى بما فيه، ويدور معه النسران والطاوسان والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسىّ التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء. قالوا : ويجلس عظماء بنى إسرائيل على كراسى الذهب المفصصة بالجواهر، وهى ألف كرسىّ عن يمينه، ويجلس عظماء الجن على كراسى الفضة عن يساره وهى ألف كرسىّ، ثم تحفّ بهم الطير تظلهم، ويتقدّم الناس لفصل القضاء. فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسىّ بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النَّسران والطاوسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحقّ. وقيل : إن الذى كان يدور بذلك الكرسىّ تِنّين من ذهبٍ ذلك الكرسىّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنىّ؛ فإذا أحست بدورانه تلك النُّسور والأُسْد والطواويس التى فى أسفل الكرسىّ إلى أعلاه درن معه، فإذا وقفن وقفن كلهنّ على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما فى أجوافهنّ من المسك والعنبر. فلما توفى سليمان بعث بُخْتَنَصَّر فأخذ الكرسىّ فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا. ومات بُخْتَنَصَّر وحمل الكرسىّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدرِ أحد عاقبة أمره ولعله رُفِع.

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى رجع إلى الله وتاب . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي ﴾ أى اغفـر لى ذنبى ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَـغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ يقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله تعـالى ، وبغضه لها ، وحقارتها لديه؟ . فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، و إقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منـه ، وتحقيق الوعود فى أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ماصرح بذلك لملائكته فقال : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » وحوشى سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، و إنمـا سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطى سليمان المملكة . وقد قيل : إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التى علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده ، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » وهذا فيه نظر . والأول أصح . ثم قال له : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال الحسن : ما من أحد إلا ولله عليه تبعة فى نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال : « هذا عَطَاؤُنَا » الآية .

قلت : وهـذا يردّ ما روى فى الخبر : إن آخر الأنبياء دخول الجنـة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه فى الدنيا . وفى بعض الأخبار : يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا ، ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له ؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه ، لأنه من طريق المنـة ، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة ، وهو سبحانه يقول : « وَإِنَّ لَهُ عِنْـدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ » . وفى الصحيح : " لكل نبىّ دعوة مستجابة فتعجّل كل نبىّ دعوته " الحديث . وقد تقدّم بجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية ، فلذلك لم تكن عليه تبعة . ومعنى قوله : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » أى أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة . وقيل : إن سؤاله ملكا لا ينبغى

لأحد من بعده؛ ليكون محله وكرامته من الله ظاهرا فى خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس فى المحل عنده، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محله عنده، ولهذا لما أخذ النبى صلى الله عليه وسلم العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان «رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى» فرده خاسئا . فلو أعطى أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية ، فكأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يزاحمه فى تلك الخصوصية ، بعد أن علم أنه شىء هو الذى خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَآءً ﴾ أى لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضرّ بأحد ، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه . وكان موكبه فيما روى فرسخا فى فرسخ ، مائة درجة بعضها فوق بعض ، فى كل درجة صنف من الناس ، وهو فى أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه ؛ صلوات الله وسلامه عليه . وذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدّثنا أحمد ابن جعفر، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن إدريس بن وهب بن منبّه ، قال حدّثنى أبى قال : كان لسليمان ابن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد ، فركب الريح يوما فمر بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ! فحملت الريح كلامه فألقته فى أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال : إنى سمعت قولك ، و إنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ؛ لتسبيحةٌ واحدة يقبلها الله منك لخير مما أوتى آل داود . فقال الحرّاث : أذهب الله همّك كما أذهبتَ همّى .

قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى أراد ؛ قاله مجاهد . والعرب تقول : أصاب الصوابَ وأخطأ الجوابَ . أى أراد الصواب وأخطأ الجواب ؛ قاله ابن الأعرابى . وقال الشاعر :

أَصابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ * فأَخْطَا الجوابَ لدَى المفصِلِ

وقيل : أصاب أراد بلغة حِمْيَر . وقال قتادة : هو بلسان هَجَر . وقيل : « حَيْثُ أَصَابَ » حيثما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أى وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله . « كُلَّ بَنَّاءٍ » بدل من الشياطين أى كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء . قال[1] :

إِلَّا سُلَيْمَانَ إذ قال الإلهُ له * قُمْ فى البريَّةِ فٱحْدُدْهَا عنِ الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجنَّ إِنِّى قد أَذِنتُ لهمْ * يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعُمُدِ

« وَغَوَّاصٍ » يعنى فى البحر يستخرجون له الدّر . فسليمان أول من ٱستخرج له اللؤلؤ من البحر . ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أى وسخرنا له مَرَدة الشياطين حتى قرنهم فى سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة . السدى : فى الأغلال . ٱبن عباس : فى وثاق . ومنه قول الشاعر[2] :

فَآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا

قال يحيى بن سلّام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا ﴾ الإشارة بهذا إلى الملك؛ أى هذا الملك عطاؤنا، فأعطِ من شئت أو ٱمنع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما . قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال قتادة : الإشارة فى قوله تعالى : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا » إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت له ثلثمائة ٱمرأة وسبعمائة سرية، وكان فى ظهره ماء مائة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[3] . ومعناه فى البخارى . وعلى هذا « فَٱمْنُنْ » من المنِيّ؛ يقال : أَمْنَى يُمْنِي ومَنَى يَمْنِي لغتان ، فإذا أمرت من أمنى قلت أَمْنِ، ويقال : من مَنَى يَمْنِي فى الأمر ٱمنِ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت ٱمنن . ومن

---

(١) هو النابغة الذبيانى : ويروى إذ قال المليك له . ويروى فٱزجرها عن الفند . أى الخطإ . وخيس أى ذلل . والصفاح جمع صفاحة بشدّ الفاء وهى حجارة رقاق عراض . (٢) هو عمرو بن كلثوم والبيت من معلقته .

(٣) قال أبو حيان فى تفسيره : ولعله لا يصح عن ٱبن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء، ولا ما أوتى من القدرة على ذلك .

ذهب به إلى المِنّة قال : مَنَّ عليه؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين ؛ لأنه كان مضاعفا فقال آمْنُنْ . فيروى فى الخبر أنه سخر له الشياطين فمن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدى . وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس : أى جامع من شئت من نسائك واترك جماع من شئت منهن لاحساب عليك . ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى إن أنعمنا عليه فى الدنيا فله عندنا فى الآخرة قربة وحسن مرجع .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فى الصبر على المكاره . « أيوب » بدل . ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «إِنى» بكسر الهمزة أى قال . قال الفراء : وأجمعت القراء على أن قرءوا «بِنُصُبٍ» بضم النون والتخفيف . النحاس : وهذا غلط و بعده مناقضة وغلط أيضا؛ لأنه قال أجمعت القراء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ «بِنَصَبٍ» بفتح النون والصاد فغلط على أبى جعفر، و إنما قرأ أبو جعفر «بِنُصُبٍ» بضم النون والصاد؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروى عن الحسن . فأما « بِنَصَبٍ » فقراءة عاصم الجحدرى و يعقوب الحضرمى . وقد رويت هذه القراءة عن الحسن . وقد حكى «بِنَصْبٍ» بفتح النون وسكون الصاد عن أبى جعفر . وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَب ؛ فنُصْب ونَصَب كحُزْن وحَزَن . وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَبٍ كوُثْن ووَثَن . ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة، فأما « وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » فقيل : إنه جمع نصاب . وقال أبو عبيدة وغيره : النُّصْبُ الشر والبلاء والنَّصَب التعب والإعياء . وقد قيل فى معنى «أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» أى ما يلحقه من وسوسته لا غير . والله أعلم . ذكره

النحاس . وقيل : إن النصب ما أصابه فى بدنه، والعذاب ما أصابه فى ماله؛ وفيـه بعد .
وقال المفسرون : إن أيوب كان روميا من البَثَنِيَّة [(١)] وكنيته أبو عبد الله فى قول الواقـدى ؛ آصطفاه الله بالنبوة، وآتاه جملة عظيمة من الثروة فى أنواع الأموال والأولاد . وكان شاكرا لأنعم الله، مواسيا لعباد الله، برا رحـيما . ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر . وكان لإبليس موقف من السماء السابعة فى يوم من العام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدى أيوب على شىء ؟ ! فقال : يارب ! وكيف أقدر منه على شىء، وقد آبتليته بالمـال والعافية ، فلو آبتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك . قال الله : قد سلطتك على أهله وماله . فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم : أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجـاء أيوبَ فى صـورة قَيِّمِ ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه . ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسـه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب . قال : يا رب سلطنى على بدنه . قال : قـد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبـه وبصره ، فنفخ فى جسده نفخة آشتعل [منها [(٢)]] فصار فى جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه . وقال عند ذلك « مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ » . ولم يخلص إلى شىء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب ، فمكث كذلك ثلاث سنين . فلما غلبه أيوب آعترض لامرأته فى هيئة أعظم من هيئة بنى آدم فى القدر والجمال، وقال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت، ولو سجدت لى سجدة واحدة لرددتُ عليه أهله وماله وهم عندى . وعرض لهـا فى بطن الوادى ذلك كله فى صورته؛ أى أظهره لهـا ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاما طويلا فى [سبب [(٣)] بلائه و] مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذى

---

(١) صحح المحققون أنه من بنى إسرائيل كما جزم به الألوسى وغيره . والبثنية بالتحريك وكسر النون وياء مشددة قرية بدمشق بينها وبين أذرعات . (٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبى . (٣) زيادة يقتضيها السياق .

نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك وآعترضوا عليه؛ وقيـل : آستعان به مظلوم فلم ينصره فآبتلى بسبب ذلك . وقيل : آستضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فآبتلى بذلك . وقيل : كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم فى ولايته ، فداهنه لأجلها بترك غزوه فآبتلى . وقيل : كان الناس يتعـدّون آمرأته و يقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها ؛ فلهذا قال : « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . وآمرأته ليا بنت يعقوب . وكان أيوب فى زمن يعقوب وكانت أمه آبنة لوط . وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . ذكر القولين الطبرى رحمه الله . قال آبن العربى : ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان فى السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول فى مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى ، و يعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء ، فيقف موقف الخليل؟ ! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم . وأما قولهم : إن الله تعالى قال له هل قدرتَ من عبدى أيوب على شىء فباطل قطعا ؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون ؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟ ! وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن فى القدرة ، ولكنه بعيد فى هذه القصة . وكذلك قولهم : إنه نفخ فى جسده حين سلّطه عليه فهو أبعد ، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقِرّ له — لعنةُ اللهِ عليه — عينٌ بالتمكن من الأنبياء فى أموالهم وأهليهم وأنفسهم . وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكر الله وسجدتِ أنتِ لى لعافيته، فآعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم و به ألمٌ وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلها فى الأرض ، وأنه يُسجَد له ، وأنه يعافِى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبىّ ؟ ! ولو كانت زوجة سوادىّ أو فدم[1] بربرىّ ما ساغ ذلك عندها . وأما تصويره الأموال والأهل فى وادٍ للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو فى طريق السحر فيقال إنه من جنسه .

(١) الفدم من الناس القليل الفهم والفطنة .

ولو تصور لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهى فوقنا فى المعرفة بذلك ؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره . قال القاضى : والذى جرأهم على ذلك وتذرعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » فلما رأوه قد شكا مس الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير فى هذه الأقوال . وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها ، فى إيمانها وكفرها ، طاعتها وعصيانها ، خالقها هو الله لا شريك له فى خلقه ، ولا فى خلق شىء غيرها ، ولكنّ الشر لا ينسب إليه ذكرا ، وإن كان موجودا منه خَلْقا ؛ أدباً أدّبنا به ، وتحميدا علّمناه ، وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قوله من جملته : "والخير فى يديك والشر ليس إليك" على هذا المعنى . ومنه قول إبراهيم : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وقال الفتى للكليم : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ » وأما قولهم : إنه آستعان به مظلوم فلم ينصره ، فمن لنا بصحة هذا القول . ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره ، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزه عن ذلك . أو كان عاجزا فلا شىء عليه فى ذلك ، وكذلك قولهم : إنه منع فقيرا من الدخول ؛ إن كان علم به فهو باطل عليه ، وإن لم يعلم به فلا شىء عليه فيه . وأما قولهم : إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى . ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز ؛ نعم وبحسن الكلام . قال آبن العربى القاضى أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين ؛ الأولى قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ » والثانية فى « ص » « أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » . وأما النبى صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : "بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رِجْلٌ من جَرَاد من ذهب" الحديث . وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أى لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا .

وفى الصحيح واللفظ للبخارى أن ٱبن عباس قال : يا معشر المسلمين ! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضا لم يُشَب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ؛ فقالوا : « هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسئلتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقد أنكر النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة .

قوله تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ الرَّكْض الدفع بالرجل . يقال : رَكَضَ الدابةَ ورَكَضَ ثوبه برجله . وقال المبرد : الرَّكْض التحريك ؛ ولهذا قال الأصمعى : يقال رُكِضَت الدابةُ ولا يقال رَكَضتْ هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . وحكى سيبويه : رَكَضتُ الدابةَ فركضتْ مثل جَبرتُ العظم فجَبَرَ وحَزنته فحزن ؛ وفى الكلام إضمار أى قلنا له « ٱركض » قاله الكسائى . وهذا لما عافاه الله . ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أى فركض فنبعت عين ماء فٱغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه . وقال قتادة : هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية ، فٱغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه . ونحوه عن الحسن ومقاتل ؛ قال مقاتل : نبعت عين حارة وٱغتسل فيها فخرج صحيحا ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا . وقيل : أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء فى جسده ، والمغتسل الماء الذى يغتسل به ؛ قاله القتبى . وقيل : إنه الموضع الذى يغتسل فيه ؛ قاله مقاتل . الجوهرى : وٱغتسلت بالماء ، والغَسُول الماء الذى يغتسل به ، وكذلك المغتسل ، قال الله تعالى : « هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » والمغتسل أيضا الذى يغتسل فيه ، والمَغِسل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل الموتى والجمع المغاسل . وٱختلف كم بقى أيوب فى البلاء ؛ فقال ابن عباس : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات . وقال وهب بن منبّه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ،

وعُذِّب بُخْتَنَصَّر وحُوِّل[1] فى السباع سبع سنين . ذكره أبو نعيم . وقيل : عشر سنين . وقيل : ثمان عشرة سنة . رواه أنس مرفوعا فيما ذكر الماوردى .

قلت : وذكره ابن المبارك ؛ أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذى أصابه كان به ثمان عشرة سنة . وذكر الحديث القشيرى . وقيل : أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ تقدّم فى « الأنبياء »[2] الكلام فيه . ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى نعمة منا . ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى عبرة لذوى العقول .

قوله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

فيـه سبع مسائل :

الأولى — كان أيوب حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ؛ وفى سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقال : وَيْحَكِ ذلك الشيطان . الثانى — ما حكاه سعيد بن المسيِّب أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . الثالث — ما حكاه يحيى بن سلّام وغيره أن الشيطان أغواها ؛ أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفى مائة . و[الرابع] قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به ،

---

(١) حول بمعنى مسخ ؛ راجع قصة دانيال فى قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه.

الثانية — تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا. وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوق حد الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب؛ ولهذا قال عليه السلام: "واضربوهن ضربا غير مبرح" على ما تقدم في «النساء»[1] بيانه.

الثالثة — واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده؛ فروى عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي. وحكى عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب. وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باقٍ، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة برّ. وروى نحوه الشافعي. وروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وقال القشيري: وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع. ابن العربي: وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبرّ. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً» أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا. قال ابن المنذر: وقد روينا عن عليّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: «فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» وهذا مذهب أصحاب الرأي. وقد احتج الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكُلِّم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، قال حدثنا ابن وهب، قال أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال أخبرني

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنه آشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى، فعاد جلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: آستفتوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنى قد وقعت على جارية دخلت علىّ. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ماهو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة. قال الشافعى: إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ولا يحنث. قال آبن المنذر: و إذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضربا خفيفا فهو بارّ عند الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذى يؤلم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليل على أن الآستثناء فى اليمين لا يرفع حكمها إذا كان متراخيا. وقد مضى القول فيه فى «المائدة»[1] يقال: حنِث فى يمينه يحنث إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أى فآضرب لا تحنث.

الخامسة — قال ابن العربى قوله تعالى: «فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ» يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة، و إنما كان البرّ والحِنث. والثانى أن يكون صدر منه نذر لا يمين، و إذا كان النذر معينا فلا كفارة فيه عند مالك وأبى حنيفة. وقال الشافعى: فى كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة، كما فى حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنبا ما أظنّ أحدا بلغه. فقال أيوب صلى الله عليه وسلم: ما أدرى ما تقولان، غير أن ربى

---

(١) راجع ج ٦ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى ، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق فنادى ربه « أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وذكر الحديث . فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة — استدل بعض جهال المتزهدة ، وطَغَام المتصوفة بقوله تعالى لأيوب : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » على جواز الرقص . قال أبو الفرج الجوزى : وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة ، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء . قال ابن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص فى الإسلام، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : «اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ» دلالة على ضرب المحاد(٢) بالقضبان ! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع . وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : "أنت منى وأنا منك" فحجل . وقال لجعفر : "أشبهت خَلْقى وخُلُقى" فحجل . وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا" فحجل . ومنهم من احتج بأن الحبشة زَفَنت والنبى صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم . والجواب — أما الحَجْل فهو نوع من المشى يُفعَل عند الفرح فأين هو والرقص، وكذلك زَفْن الحبشة نوع من المشى يُفعَل عند اللقاء للحرب .

السابعة — قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ أى على البلاء. ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى تواب رجاع مطيع . وسئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا؛ فقال فى وصف أيوب : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » وقال فى وصف سليمان : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

(١) فى نسخة إلا بحق .　　(٢) كذا فى الأصل وفى بعض النسخ «بالمخاد» بالخاء المعجمة .

قلت : وقد ردّ هذا الكلام صاحب « القوت » وٱستدل بقصة أيوب فى تفضيل الفقير على الغنىّ . وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه ، وقد ذكرناه فى غير هذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد » . وخفى عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده ، وإنما ٱبتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الداء فى جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به ٱمتحِنوا وفُتِنوا . فأيوب عليه السلام دخل فى البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه ، وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد ٱجتمع[1] مع أيوب فى المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذى يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهذا الاعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر سواء . وهو كما قال سفيان . والله أعلم .

وفى حديث ٱبن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فٱغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان فى جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فٱئتزر بأحدهما وٱرتدى بالآخر ثم أقبل يمشى إلى منزله ورَاثَ[2] على ٱمرأته فأقبلت حتى لقيته وهى لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أى يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلَى قال من هو قالت نبىّ الله أيوب أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا قال فإنى أيوب وأخذ ضِغْثا فضربها به " فزعم ٱبن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُماما[3] . وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم ، فأقبلت سحابة حتى سَجَلَت[4] فى أَنْدَر[5] قمحه ذهبا حتى ٱمتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أَنْدَر شعيره وقَطَانِيه[6] فسجلت فيه ورِقا حتى ٱمتلأ .

(١) الضمير يعود على سليمان عليه السلام . (٢) راث : أبطأ . (٣) الثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص . (٤) السجل الانصباب المتواصل . (٥) الأندر : الموضع الذى يدرس فيه القمح وغيره . (٦) القطانى : الحبوب التى تدخر كالحمص والعدس واللوبيا وما شاكلها .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ابن عباس : «عَبْدَنَا» بإسناد صحيح ، رواه ابن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه ، وهي قراءة مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير ، فعلى هذه القراءة يكون « إبراهيم » بدلا من « عبدنا » و « إسحق ويعقوب » عطف . والقراءة بالجمع أبين ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، ويكون « إبراهيم » وما بعده على البدل . النحاس : وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت : رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا ، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب ، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا فزيد وحده بدل وهو صاحبنا ، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا ، غير أنه قد علم أن قوله : « وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » داخل في العبودية . وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الذبيح إسحق لا إسمعيل ، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب « الإعلام بمولد النبي عليه السلام » . ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ قال النحاس : أما « الْأَبْصَارِ » فمتفق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم . وأما « الْأَيْدِي » فمختلف في تأويلها ؛ فأهل التفسير يقولون : إنها القوة في الدين . وقوم يقولون : «الْأَيْدِي» جمع يد وهي النعمة ؛ أي هم أصحاب النعم ؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل : هم أصحاب النعم والإحسان ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدّموا خيرا . وهذا اختيار الطبري . ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أي الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته . ومصطفَين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقد مضى في « البقرة » [1] عند قوله : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ» «والأخيار» جمع خير . وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ في تفسير قوله تعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا » ففيه الكلام على اشتقاق اللفظ وليس في الآية المذكورة .

وعيسى الثقفى « أُولِي الأَيْدِ » بغير ياء فى الوصل والوقف على معنى أولى القوة فى طاعة الله . ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذفت الياء تخفيفا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قراءة العامة « بِخَالِصَةٍ » منونة وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن آبن عامر « بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ » بالإضافة فمن نون خالصة فـ « ذِكْرَى الدَّارِ » بدل منها ؛ التقدير : إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة و يتأهبوا لها ، و يرغبوا فيها و يُرغِّبوا الناس فيها . ويجوز أن يكون « خالصة » مصدرا لخلَص و« ذكرى » فى موضع رفع بأنها فاعله ؛ والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ؛ أى تذكير الدار الآخرة . ويجوز أن يكون «خالصة» مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة ، فيكون « ذكرى » على هذا فى موضع نصب ، التقدير : بأن أخلصوا ذكرى الدار . والدار يجوز أن يراد بها الدنيا ؛ أى ليتذكروا الدنيا و يزهدوا فيها ، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم ، كما قال تعالى : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها . ومن أضاف خالصة إلى الدار فهى مصدر بمعنى الإخلاص ، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر ؛ أى بإخلاصهم ذكرى الدار . ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ؛ أى بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وهى الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم . وقال آبن زيد : معنى أخلصناهم أى بذكر الآخرة ؛ أى يذكرون الآخرة و يرغبون فيها و يزهدون فى الدنيا . وقال مجاهد : المعنى ؛ إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ مضى ذكر اليسع فى « الأنعام »[1] وذكر ذى الكفل فى «الأنبياء»[2] . ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أى ممن آختير للنبوة . ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل فى الدنيا وشرف يذكرون به فى الدنيا أبدا . ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أى لهم مع هـذا الذكر الجميل فى الدنيا حسن المرجع فى القيامة . ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ والعَدْن فى اللغـة الإقامة ؛ يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام . وقال عبد الله ابن عمر : إن فى الجنة قصرا يقـال له عَدْن[3] حـوله البروج والمروج فيـه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[4] لا يدخله إلا نبيّ أو صِـدّيق أو شهيد . ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ حال ﴿ لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ رفعت الأبواب لأنه آسم ما لم يسم فاعله . قال الزجاج : أى مفتحة لهم الأبواب منهـا . وقال الفرّاء : مفتحة لهم أبوابها . وأجاز الفرّاء : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابَ » بالنصب . قال الفرّاء : أى مفتحة الأبوابَ ثم جئت بالتنوين فنصبت . وأنشد هو وسيبويه :

ونأخذُ بعده بِذِنَابِ عَيْشٍ * أَجَبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنَامُ[5]

وإنمـا قال « مُفَتَّحَةً » ولم يقل مفتوحة ؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس . قال الحسن : تُكَلَّم : آنفتحى فتنفتح آنغلقى فتنغلق . وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب .

قوله تعـالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أى يدعون فى الجنات متكئين فيها . ﴿ بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى بألوان الفواكه ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أى وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعـالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى فى « الصافات »[6] . ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أى على سن واحد ، وميلاد آمرأة واحدة ، وقـد

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) تقدّمت هذه الرواية فى جـ ٩ ص ٣١١ بهذا اللفظ وهى توافق ما فى تفسير الطبرى وغيره عن عبد الله بن عمرو ، ولفظ الأصل هنا « جنة عدن قصر فى الجنة » الخ . (٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنية مخطط . (٥) البيت للنابغة والشاهد فيه نصب الظهر بأجب على نية التنوين ؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس فى أسوإ حال وأضيق عيش ، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذى لا سنام له من الهزال . (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء .

تساوين فى الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة . قال ابن عباس : يريد الآدميات .
و « أَتْرَابٌ » جمع ترب وهو نعت لقاصرات ؛ لأن « قَاصِرَاتُ » نكرة وإن كان مضافا إلى
المعرفة . والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال :

مِن القاصراتِ الطَّرْفِ لَوْدَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ منها لَأَثَّرَا (١)

قوله تعالى : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى هذا الجزاء الذى وعدتم به . وقراءة
العامة بالتاء أى ما توعدون أيها المؤمنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو و يعقوب
بالياء على الخبر، وهى قراءة السُّلَمى واختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقوله تعالى : « وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ
لَحُسْنَ مَآبٍ » فهو خبر . « لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى فى يوم الحساب، قال الأعشى :

المُهِينِينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السُّـ * ـوءِ حتى إذا أفاق أفاقوا

أى فى زمان السوء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع ؛
كما قال : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » وقال : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

قوله تعالى : هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين .
قال الزجاج : « هَذَا » خبر ابتداء محذوف أى الأمر هذا فيوقف على « هذا » . قال ابن
الأنبارى : « هـذا » وقف حسن ثم تبتدئ « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ » وهم الذين كذبوا الرسل .

(١) قائله امرؤ القيس . المحول : الصغير . والإتب : درع المرأة . و بردة تشق فتلبس من غير كمين ولا جيب .

﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أى منقلب يصيرون إليه . ثم بين ذلك بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى بئس ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس الفراش لهم . ومنه مهد الصبى . وقيل : فيه حذف أى بئس موضع المهاد . وقيل : أى هذا الذى وصفت لهؤلاء المتقين ، ثم قال : وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على « هذا » أيضا .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ « هذا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « حَمِيمٌ » على التقديم والتأخير ؛ أى هذا حميم وغساق فليذوقوه . ولا يوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويجوز أن يكون « هذا » فى موضع رفع بالابتداء و « فَلْيَذُوقُوهُ » فى موضع الخبر ، ودخلت الفاء للتنبيه الذى فى « هذا » فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويرتفع « حميم » على تقدير هذا حميم . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا ، وحميم وغسّاق إذا لم تجعلهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق . والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد :

حتّى إذا ما أَضاءَ الصُّبْحُ(١) فى غَلَسٍ * وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِىٌّ ومَحْصُودُ

وقال آخر(٢) :

لها مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ * قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ آنْسَحَقَا

ويجوز أن يكون « هذا » فى موضع نصب بإضمار فعل يفسره « فَلْيَذُوقُوهُ » كما تقول زيدا اضربه . والنصب فى هذا أولى فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » وتبتدئ « حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » على تقدير الأمر حميم وغسّاق . وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين فى « وغَسَاق » . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى « وغسّاق » بالتشديد ، وهما لغتان بمعنى واحد فى قول الأخفش . وقيل : معناهما مختلف ؛ فمن خفّف فهو آسم مثل عَذَاب وجَوَاب وصَوَاب ، ومن شدّد قال : هو آسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة ، نحو ضرّاب وقتّال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق . قال آبن عباس : هو الزمهرير يخوّفهم

---

(١) رواه السمين : أضاء البرق . (٢) قائله زهير بن أبى سلمى يصف الناقة . التى يستقى عليها . وقتب وغرب بيان للتاع . والقتب أداة السانية ، الغرب الدلو العظيمة . وآنسحقا أى مضى وبعد سيلانه .

ببرده . وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذى قد آنتهى برده . وقال غيرهما : إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحره . وقال عبـد الله بن عمرو : هو قيح غليظ لو وقع منه شىء بالمشرق لأنتن من فى المغرب، ولو وقع منـه شىء فى المغرب لأنتن من فى المشرق . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة، ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن . وقال محمـد بن كعب : هو عصارة أهل النـار . وهذا القول أشبه باللغة ؛ يقال : غَسَق الجرح يغسِق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر ؛ قال الشاعر :

إذا ما تذكَّرْتُ الحياةَ وطِيبَها * إلىّ جرَى دَمْعٌ من الليـلِ غاسِـقُ (١)

أى بارد . ويقال : ليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقال السدى : الغسّاق الذى يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم . وقال آبن زيد : الحميم دموع أعينهم، يجمع فى حياض النار فيسقونه، والصديد الذى يخرج من جلودهم . والآختيار على هذا « وغَسَّاق » حتى يكون مثل سَيّال . وقال كعب : الغَسّاق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذى حُمَةٍ من عقرب وحية . وقيل : هو مأخوذ من الظلمة والسواد . والغَسَق أول ظلمة الليـل، وقد غَسَق الليلُ يغسِق إذا أظلم . وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : "لو أن دَلْوا من غساق يُهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا" .

قلت : وهـذا أشبه على الآشتقاق الأول كما بينا ، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلما فيصح الاشتقاقان . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ قرأ أبو عمـرو « وَأُخَرُ » جمع أخرى مثـل الكبرى والكُبَر . الباقون « وَآخَرُ » مفرد مذ كر . وأنكر أبو عمرو « وَآخَرُ » لقوله تعالى : « أَزْوَاجٌ » أى لا يخبر بواحد عن جماعة . وأنكر عاصم الجحدرىّ « وَأُخَرُ » قال : ولو كانت « وَأُخَرُ » لكان من شكلها . وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان . « وَآخَرُ » أى وعذاب آخر سوى الحميم والغساق . « مِنْ شَكْلِهِ » قال قتادة : من نحوه . قال آبن مسعود : هو

---

(١) لعله من العين .

الزمهرير . وٱرتفع « وآخر » بالابتداء و « أَزْوَاجٌ » مبتدأ ثانٍ و « مِنْ شَكْلِهِ » خبره والجملة خبر « آخر » . ويجوز أن يكون « وآخر » مبتدأ والخبر مضمر دل عليه « هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » لأن فيه دليلا على أنه لهم ، فكأنه قال : ولهم آخر ويكون « مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و « أَزْوَاجٌ » مرفوع بالظرف . ومن قرأ « وَأُخَرُ » أراد وأنواع من العذاب أُخَر ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناسا فجمع لاختلاف الأجناس . أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريرا ثم جمع كما قالوا : شابت مفارقه . أو على أنه جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذى هو نهاية البرد بإزاء الجمع فى قوله : « هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » والضمير فى « شَكْلِهِ » يجوز أن يعود على الحميم أو الغساق . أو على معنى « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ » ما ذكرنا ، ورفع « أُخَرُ » على قراءة الجمع بالابتداء و « مِنْ شَكْلِهِ » صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدإ و « أَزْوَاجٌ » خبر المبتدإ . ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و « من شكله » صفة لأخر و « أَزْوَاجٌ » مرتفعة بالظرف كما جاز فى الإفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ٱرتفع « أَزْوَاجٌ » بالظرف ولا ضمير فى الظرف ، والهاء فى « شكله » لا تعود على « أُخَرُ » لأنه جمع والضمير مفرد ؛ قاله أبو على . و « أَزْوَاجٌ » أى أصناف وألوان من العذاب . وقال يعقوب : الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدل[1] .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ قال ٱبن عباس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة « هَٰذَا فَوْجٌ » يعنى الأتباع والفوج الجماعة « مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » أى داخل النار معكم ؛ فقالت السادة : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أى لا ٱتسعت منازلهم فى النار . والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد وغيره . وهو فى مذهب الدعاء فلذلك نصب ؛ قال النابغة :

لا مَرْحَبًا بِغَدٍ ولا أَهْلًا بِهِ * إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ فى غَدِ

---

(١) يقال ٱمرأة ذات شكل (بالكسر) أى ذات دلال ، وهو حسن الحديث وحسن المزح والهيئة .

قال أبو عبيدة العرب تقول : لا مرحبا بك ؛ أى لا رحبت عليـك الأرض ولا آتسعت .
﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ قيل : هو من قول القادة ، أى إنهم صالوا النار كما صليناها . وقيل :
هو من قول الملائكة متصل بقولهم : «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» و «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ»
هو من قول الأتبـاع . وحكى النقاش : إن الفـوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم
بدر، والفوج الثـانى أتباعهم ببدر . والظاهر من الآية أنها عامة فى كل تابع ومتبوع .
﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أى دعوتمونا إلى العصيان ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ لنا ولكم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى الأتباع
﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَـا هَذَا ﴾ قال الفراء : من سوّغ لنا هذا وسنّه . وقال غيره : من قدم لنا
هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصى ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّـارِ ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار
ذلك ضعفا . وقال آبن مسعود : معنى عذابا ضعفا فى النـار الحيات والأفاعى . ونظير هذه
الآية قوله تعالى : "رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّـارِ" .

قوله تعـالى : وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَـقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى أكابر المشركين ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾
قال آبن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول أبو جهل : أين بلال أين
صُهَيْب أين عمّار أولئك فى الفردوس ! واعجبا لأبى جهل ! مسكين ؛ أسلم آبنه عكرمة، وآبنته
جُوَيرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال :

وَنُورًا أضَـاءَ الأرضَ شَرقًا ومَغرِبًا * وموضِـعُ رِجلِي مِنْـهُ أَسْـوَدُ مُظْلِمُ

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قال مجاهد : أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾
فلم نعلم مكانهم . قال الحسن : كلّ ذلك قد فعلوا؛ آتخذوهم سخريّا، وزاغت عنهم أبصارهم
فى الدنيـا محقرة لهم . وقيل : معنى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ » أى أهم معنا فى النـار فلا

نراهم. وكان ٱبن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرءون «مِنَ ٱلْأَشْرَارِ ٱتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وٱبن عامر يقرءون «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد ٱستغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «ٱلْأَشْرَارِ» لأن «ٱتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال. قال ٱبن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا. ومن قرأ «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف وقف على «ٱلْأَشْرَارِ» قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب. «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ» إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، و إذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل. وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي «سُخْرِيًّا» بضم السين. الباقون بالكسر. قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدّم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ «لحقٌّ» خبر إنّ و «تَخَاصُمُ» خبر مبتدإ محذوف بمعنى هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلا من حق. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع. أي إن تخاصم أهل النار في النار لحقّ. يعني قولهم: «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي معبود ﴿إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ بالرفع على النعت و إن نصبت الأول نصبته . ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح . « وَالْعَزِيزُ » معناه المنيع الذى لا مثل له . « الْغَفَّارُ » الستار لذنوب خلقه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أى وقل لهم يا محمد «هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» أى ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغى أن يُستخفّ به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ » . وقال آبن عباس ومجاهد وقتادة : يعنى القرآن الذى أنبأكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول آبن عباس والسدى آختصموا فى أمر آدم حين خلق ف « قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » وقال إبليس « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » وفى هذا بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى ؛ فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ؛ ولهذا وصل قوله بقوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » . وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألنى ربى فقال يا محمد فيم آختصم الملأ الأعلى قلت فى الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشى على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء فى السَّبَرَات[1] والتعقيب فى المساجد بآنتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " خرجه الترمذى بمعناه عن آبن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضا وقال حديث حسن صحيح . وقد كتبناه بكماله فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وأوضحنا إشكاله والحمد لله . وقد مضى فى « يس »[2] القول فى المشى إلى المساجد ، وأن الخُطَا تكفّر السيئات ، وترفع الدرجات . وقيل : الملأ الأعلى الملائكة والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » لفرقتين يعنى قول من قال منهم الملائكة بنات الله ،

---

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى شدة البرد . (٢) راجع ص ١٢ وما بعدها من هذا الجزء .

[ومن قال آلهة تعبد[1]] . وقيل : الملأ الأعلى ههنا قريش ؛ يعنى آختصامهم فيما بينهم سرا ، فأطلع الله نبيه على ذلك . ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى إن يوحى إلى إلا الإنذار . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « إِلَّا إِنَّمَا » بكسر الهمزة ؛ لأن الوحى قول ، كأنه قال : يقال لى إنما أنت نذير مبين ، ومن فتحها جعلها فى موضع رفع ؛ لأنها آسم ما لم يسم فاعله . قال الفراء : كأنك قلت ما يوحى إلى إلا الإنذار ، النحاس : ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى إلا لأنما . والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ « إذ » من صلة « يَخْتَصِمُونَ » المعنى ؛ ما كان لى من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ . وقيل : « إذ قال » بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » و « يَخْتَصِمُونَ » يتعلق بمحذوف ؛ لأن المعنى ما كان لى من علم بكلام الملإ الأعلى وقت آختصامهم . ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ «إذا» ترد الماضى إلى المستقبل ؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه ؛ أى خلقته . ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى﴾ أى من الروح الذى أملكه ولا يملكه غيرى . فهذا معنى الإضافة ، وقد مضى هذا المعنى مجودا فى « النساء[2] » فى قوله فى عيسى « وَرُوحٌ مِنْهُ » . ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ نصب على الحال . وهذا سجود تحية لا سجود عبادة . وقد مضى فى « البقرة[3] » . ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أى آمتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله ، والأنفة من طاعة الله آستكبارا كفر ، ولذلك كان من الكافرين بآستكباره عن أمر الله تعالى . وقد مضى الكلام فى هذا فى « البقرة[4] » مستوفى .

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان فى تفسيره . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ أى صرفك وصدّك ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أى عن أن تسجد ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له ، و إن كان خالق كل شيء. وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح و البيت و الناقة و المساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لايباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد هاهنا بمعنى التأكيد والصلة ؛ مجازه لما خلقت أنا كقوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ » أى يبقى ربك . وقيل : التشبيه فى اليد فى خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ؛ و إنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى . وقيل : أراد باليد القدرة ؛ يقال مالى بهذا الأمر يد . ومالى بالحِمْل الثقيل يدانِ . ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع . وقال الشاعر :

تحمّلتُ من [عفراء][(1)] ماليس لى به * ولا للجبالِ الراسياتِ يدانِ

وقيل « لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » لماخلقت بغير واسطة . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أى عن السجود ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أى المتكبرين على ربك . وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة « بِيَدَىَّ ٱسْتَكْبَرْتَ » موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل « أَمْ يَقُولُونَ

---

(١) فى الأصول ذلفاء وهو تحريف . والبيت لعروة بن حزام .

ٱفْتَرَاهُ » وشبهه . ومن استفهم فأم معادلة لهمزة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ . أي استكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم ، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ قال الفراء : من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فضل النار على الطين وهذا جهل منه ؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس . وقد مضى في « الأعراف » بيانه[1] . ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ يعني من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ أي طردي و إبعادي من رحمتي ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذ ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن .
﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يجب إلى ذلك ، وأخر إلى الوقت المعلوم ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأخر إليه تهاونا به . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات و إدخال الشبه عليهم ، فمعنى « لَأُغْوِيَنَّهُمْ » لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة ، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصتهم لعبادتك ، وعصمتهم مني . وقد مضى في « الحجر » بيانه[2] .

قوله تعالى : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائي . وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول . وأجاز الفراء فيه

---

(١) راجع ج ٧ ص ١٧١ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع ج ١٠ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

الخفض . ولا آختلاف فى الثانى فى أنه منصوب بـ «أقول» ونصب الأوّل على الإغراء أى فآتبعوا الحق وآستمعوا الحق ، والثانى بإيقاع القول عليه . وقيل : هو بمعنى أُحقّ الحقّ أى أفعله . قال أبو على : الحق الأوّل منصوب بفعل مضمر أى يحق الله الحق ، أو على القسم وحذف حرف الجر ؛ كما تقول : اللهِ لأفعلنّ ؛ ومجازه : قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه . « وَالْحَقَّ أَقُولُ » جملة آعترضت بين القسم والمقسم عليه ، وهو توكيد القصة ، و إذا جعل الحقّ منصوبا بإضمار فعل كان « لَأَمْلَأَنّ » على إرادة القسم . وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحقّ منصوبا بمعنى حقّا « لَأَمْلَأَنّ جَهَنَّمَ » وذلك عند جماعة من النحويين خطأ ؛ لايجوز زيدا لأضربنّ ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه . والتقدير على قولهما لأملأنّ جهنم حقّا . ومن رفع « الحقّ » رفعه بالآبتداء ؛ أى فأنا الحقّ أو الحقّ منى . رويا جميعا عن مجاهد . ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق . وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحق لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم . وفى الخفض قولان وهى قراءة آبن السَّمَيْقع وطلحة بن مُصَرِّف : أحدهما أنه على حذفِ حرف القسم . هذا قول الفراء قال كما يقول : اللهِ عز وجل لأفعلنّ . وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض ؛ لأن حروف الخفض لا تضمر ، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم ؛ كما أنشدوا[1] :

* فمثلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعِ *

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أى من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ من بنى آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى من جعل على تبليغ الوحى وكنى به عن غير مذكور . وقيل هو راجع إلى قوله : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال :

---

(١) البيت لامرئ القيس من معلقته وتمامه :

* فألهيتها عن ذى تمائم محول *

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف ؛ فإن قوله لا أعلم علمٌ ، وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى مالا ينال ويقول مالا يعلم" . وروى الدارَقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة له[1] ، فقال له عمر : يا صاحب المَقْرَاة أولغت السباع الليلة فى مَقْرَاتك ؟ فقال له صلى الله عليه النبي وسلم : "يا صاحب المَقْرَاة لا تخبره هذا متكلِّف لها ما حملت فى بطونها ولنا ما بقى شراب وطهور" . وفى الموطإ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : إن عمر بن الخطاب خرج فى ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : يا صاحب الحوض لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا . وقد مضى القول فى المياه فى سورة « الفرقان »[2] . ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعنى القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس . ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أى نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق «بَعْدَ حِينٍ» قال قتادة : بعد الموت . وقاله الزجاج . وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعنى يوم القيامة . وقال الفراء : بعد الموت وقبله . أى لتظهر لكم حقيقة ما أقول « بَعْدَ حِينٍ » أى فى المستأنف أى إذا أخذتكم سيوف المسلمين . قال السدى : وذلك يوم بدر . وكان الحسن يقول : يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين . قال : إن من الحين مالا تدركه كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ومنه ما تدركه ؛ كقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »[3] و « إبراهيم »[4] والحمد لله .

---

(١) المقراة الحوض الذى يجتمع فيه الماء . النهاية لابن الأثير .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ســـورة الزُّمَر

ويقال سورة الغرف . قال وهب بن منبه : من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ ســورة الغرف . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » والأخرى « قُـلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقال آخرون : إلا سـبع آيات من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر سبع آيات نزلت فى وحشىّ وأصحابه على ما يأتى . روى الترمذى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل . وهى خمس وسبعون آية . وقيل : اثنتان وسبعون آية .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ج وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ قلى إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ج سُبْحَٰنَهُۥ صلى هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ رفع بالابتـداء وخبره ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هـذا تنزيل ؛ قاله الفـراء . وأجاز الكسائى والفراء أيضا «تنزيل» بالنصب على أنه مفعول به . قال الكسائى : أى اتبعوا واقرءوا «تَنْزِيلَ الْكِتَابِ» . وقال الفراء : هو على الإغراء مثل قوله « كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أى الزموا . والكتاب القرآن سمى بذلك لأنه مكتوب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق ؛ أى بالصدق وليس بباطل وهزل . ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — « مُخْلِصًا » نصب على الحال أى موحدا لا تشرك به شيئا ﴿ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة . وقيل : العبادة وهو مفعول به . ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى الذى لا يشوبه شىء . وفى حديث الحسن عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أتصدق بالشىء وأصنع الشىء أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) و « النساء »(٢) و « الكهف »(٣) مستوفى .

الثانية — قال ابن العربى : هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان ، خلافا لأبى حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفى من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمان شطرا ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام والخبر محذوف . أى قالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله ، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبى : جواب هذا الكلام فى الأحقاف « فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » والزلفى القربة ؛ أى ليقربونا إليه تقريبا ، فوضع « زُلْفَى » فى موضع المصدر . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قالوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٠٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٦٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

زُلْفَى » وفى حرف أُبَىّ « وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » ذكره النحاس . قال : والحكاية فى هذا بينة . ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازى كلا بما يستحق . ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أى من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد ؛ أى للدين الذى آرتضاه وهو دين الإسلام ؛ كما قال الله تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١) وفى هذا ردّ على القَدَرية وغيرهم على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى لو أراد أن يسمى أحدا من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى تنزيها له عن الولد ﴿ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هو القادر على الكمال المستغنى عن الصاحبة والولد، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به . ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل . قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ قال الضحاك : أى يلقى هذا على هذا وهذا على هذا . وهذا على معنى التكوير فى اللغة وهو طرح الشىء بعضه على بعض ؛ يقال كوّر المتاع أى ألقى بعضه على بعض ،

(١) تقدم فى غير موضع فراجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة و جـ ٩ ص ٣٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومنه كور العمامة . وقد روى عن ابن عباس هذا فى معنى الآية . قال : ما نقص من الليل دخل فى النهار وما نقص من النهار دخل فى الليل . وهو معنى قوله تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » . وقيل : تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته ، وهذا قول قتادة . وهومعنى قوله تعالى : « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا » . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى بالطلوع والغروب لمنافع العباد . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة [حين][1] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب . وقيل : الأجل المسمى هو الوقت الذى ينتهى فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها . قال الكلبى : يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لايجاوزانه . وقد تقدم بيان هذا فى سورة « يس »[2] .
﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ « ألا » تنبيه أى تنبهوا فإنى أنا « الْعَزِيزُ » الغالب « الْغَفَّارُ » الساتر لذنوب خلقه برحمته .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعنى آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى ليحصل التناسل وقد مضى هذا فى « الأعراف »[3] وغيرها . ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل . وهذا يسمى التدريج، ومثله قوله تعالى : «قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا» الآية . وقيل: أنزل أنشأ وجعل . وقال سعيد بن جبير : خلق . وقيل : إن الله تعالى خلق هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض، كما قيل فى قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد . وقيل : « أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى أعطاكم . وقيل : جعل الخلق إنزالا ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى خلق لكم كذا بأمره النازل . قال قتادة : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد

---

(١) فى نسخ الأصل : حتى .
(٢) راجع ص ٢٩ وما بعدها من هذا الجزء طبعة أولى أو ثانية
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

زوج . وقد تقدّم هذا.(١) ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ قال قتادة والسدى: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما . ابن زيد : « خَلْقًا مِنْ بَعْـدِ خَلْقٍ » خلقا فى بطون أمهاتكم من بعـد خلقكم فى ظهر آدم . وقيل : فى ظهر الأب ثم خلقا فى بطن الأم ثم خلقا بعد الوضع . ذكره الماوردى . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المَشِيمَة. قاله ابن عبـاس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال ابن جبير : ظلمة المَشِيمَة وظلمة الرَّحِم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيـل : ظلمة صُلْب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرَّحِم . وهذا مذهب أبى عبيدة . أى لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ ﴾ أى الذى خلق هذه الأشياء ﴿ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره . وقرأ حمزة « إِمِّهَاتِكُمْ » بكسر الهمزة والميم . والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

قوله تعـالى : إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى أن يكفروا أى لا يحب ذلك منهم . وقال ابن عباس والسدى : معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . وكقوله : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » أى المؤمنون . وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة . وقيل : لا يرضى الكفر وإن أراده؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يريد كون ما لا يرضاه ، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرضا . وهذا مذهب أهل السنة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى يرضى الشكر لكم ؛ لأن « تَشْكُرُوا » يدل عليه . وقد مضى القول فى الشكر فى « البقرة » (١) وغيرها . ويرضى بمعنى يثيب ويثنى ؛ فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وإما ثناؤه فهو صفة ذات .
و « يرضه » بالإسكان فى الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم . وأشبع الضمة ٱبن ذكوان وٱبن كثير وٱبن محيصن والكسائى وورش عن نافع (٢) . وٱختلاس الباقون .
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تقدّم (٣) فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ أى شدّة من الفقر والبلاء ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أى راجعا إليه مخبتا مطيعا له مستغيثا به فى إزالة تلك الشدّة عنه .
﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ أى أعطاه وملكه . يقال : خوّلك الله الشىء أى ملكك إياه ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هُنالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا المَالَ يُخْوِلُوا * وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا (٤)

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٢ ص ١٧٢ طبعة ثانية .
(٢) فى الأصول : ورش عن نافع ، وفى البيضاوى : وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية الخ يعنى ورواية أخرى بالاختلاس كما هو المشهور فى رواية ورش .
(٣) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ١٠ ص ٢٣٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) البيت لزهير ، ويروى : هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا . والإخبال الإعارة أى يستعيرون الناقة للانتفاع بألبانها وأوبارها والفرس للغزو عليها . وإن ييسروا يغلوا : أى إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الإبل فيقامرون عليها .

وخَوَلُ الرجل حَشَمُه الواحد خائل . قال أبو النّجم :

أَعْطَى فـلم يَبْخَـلْ ولم يُبَخَّـلِ * كُومُ الذُّرَى مِن خَوَلِ المُخَوَّلِ

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى نسى ربه الذى كان يدعوه من قبـل فى كشف الضر عنه . فـ « ـما » على هذا الوجه لله عز وجل وهى بمعنى الذى . وقيل : بمعنى من كقوله : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » والمعنى واحد . وقيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به إلى الله عز وجل . أى ترك كون الدعاء منه إلى الله، فما والفعل على هذا القول مصدر . ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أى أوثانا وأصناما . وقال السدى : يعنى أندادا من الرجال يعتمدون عليهم فى جميع أمورهم . ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى ليقتدى به الجهال . ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أى قل لهذا الإنسان « تمتع » وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل . ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أى مصيرك إلى النار .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ بين تعـالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره . وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائى « أَمَّنْ » بالتشديد . وقرأ نافع وآبن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة « أَمَنْ هُوَ » بالتخفيف على معنى النداء ؛ كأنه قال يا من هو قانت . قال الفراء : الألف بمنزلة يا تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل . وحكى ذلك عن سيبويه وجميع النحويين ؛ كما قال أَوْس بن حُجْر :

أَبَنِى لُبَيْنَـى لَسْـتُمُ بِيَـدٍ * إلّا يَـدًا لَيْسَتْ لها عَضُدُ

وقال آخر هو ذو الرُّمَّة :

أَدَارًا بِحُزْوَى هِجْتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً * فَمَـاءُ الهَوَى يَرْفَضُّ أَوْ يَتَرَقْرَقُ

فالتقدير على هذا « قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة؛ كما يقال فى الكلام : فلان لا يصلى ولا يصوم، فيا من يصلى و يصوم أبشر، فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : إن الألف فى « أمن » ألف آستفهام أى « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ » أفضل أم من جعل لله أندادا، والتقدير الذى هو قانت خير . ومن شدد

« أَمَّنْ » فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ » فالجملة التى عادلت أم محذوفة ، والأصل أم من فأدغمت فى الميم . النحاس : وأم بمعنى بل ومن بمعنى الذى ؛ والتقدير : أم الذى هو قانت أفضل ممن ذكر. وفى قانت أربعة أوجه : أحدها أنه المطيع ؛ قاله ٱبن مسعود. الثانى أنه الخاشع فى صلاته ؛ قاله ٱبن شهاب . الثالث أنه القائم فى صلاته ؛ قاله يحيى ابن سلّام . الرابع أنه الداعى لربه . وقول ٱبن مسعود يجمع ذلك . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل قنوت فى القرآن فهو طاعة لله عز وجل " وروى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الصلاة أفضل ؟ فقال : " طول القنوت " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام . وروى عبد الله عن نافع عن ٱبن عمر سئل عن القنوت فقال : ما أعرف القنوت إلا طول القيام ، وقراءة القرآن . وقال مجاهد : من القنوت طول الركوع وغضّ البصر . وكان العلماء إذا وقفوا فى الصلاة غضّوا أبصارهم ، وخضعوا ولم يلتفتوا فى صلاتهم ، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين . قال النحاس : أصل هذا أن القنوت الطاعة ، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل ، فهذه الأشياء كلها داخلة فى الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لى ٱبن عمر قم فصلّ ، فقمت أصلّى وكان علىّ ثوب خَلِق ، فدعانى فقال لى : أرأيت لو وجهتك فى حاجة أكنت تمضى هكذا ؟ فقلت : كنت أتزين قال : فالله أحق أن تتزين له . وٱختلف فى تعيين القانت هاهنا ، فذكر يحيى بن سلّام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ٱبن عباس فى رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وقال ٱبن عمر : هو عثمان رضى الله عنه . وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسر . الكلبي : صُهيب وأبو ذر وٱبن مسعود . وعن الكلبي أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال . ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ قال الحسن : ساعاته ؛ أوله وأوسطه وآخره . وعن ابن عباس : « آنَاءَ اللَّيْلِ » جوف الليل . قال ٱبن عباس : من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله فى ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه . وقيل : ما بين المغرب والعشاء . وقول الحسن عام . ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ قال سعيد بن جبير : أى عذاب الآخرة . ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أى

نعيم الجنة. وروى عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى فى المعاصى و يرجو فقال: هذا متمنٍّ. ولا يقف على قوله : « رَحْمَةَ رَبِّهِ » من خفف « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ » على معنى النداء ؛ لأن قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ متصل إلا أن يقدر فى الكلام حذف وهو أيسر ، على ما تقدم بيانه . قال الزجاج : أى كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوى المطيع والعاصى . وقال غيره : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم و يعملون به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول من المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى قل يا محمد لعبادى المؤمنين ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم[1]. وقال ابن عباس : يريد جعفر بن أبى طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة . ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ يعنى بالحسنة الأولى الطاعة و بالثانية الثواب فى الجنة . وقيل : المعنى للذين أحسنوا فى الدنيا حسنة فى الدنيا ، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة . قال القشيرى : والأول أصح ؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

قلت : وينالها معه المؤمن و يزاد الجنة إذا شكر تلك النعم . وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن وفى الآخرة الجزاء. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصى . وقد مضى القول فى هذا مستوفى فى « النساء »[2] . وقيل : المراد أرض الجنة ؛ رغبهم فى سعتها وسعة نعيمها ؛ كما قال : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » والجنة قد تسمى أرضا ؛

(١) راجع جـ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ٥ ص ٣٤٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قال الله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » والأول أظهر فهو أمر بالهجرة . أى ارحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا . الماوردى : ويحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق ؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه ؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الآمتنان .

قلت : فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية ، إلى الأرض الراخية ؛ كما قال سفيان الثورى : كن فى موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم . ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى بغير تقدير . وقيل : يزاد على الثواب ؛ لأنه لو أعطى بقدر ما عمل لكان بحساب . وقيل : « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا . و« الصَّابِرُونَ » هنا الصائمون ؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبرا عن الله عز وجل : "الصوم لى وأنا أجزى به" قال أهل العلم : كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يحثا حثوا و يغرف غرفا ؛ وحكى عن على رضى الله عنه . وقال مالك بن أنس فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال : هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها . ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك ما نهى عنه ، فلا مقدار لأجره . وقال قتادة : لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان ، حدثنى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل" . وعن الحسين بن على رضى الله عنهما قال سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس يا بنى إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صبّا" ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصى ، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا ؛ قاله النحاس . وقد مضى فى « البقرة »[(١)] مستوفى .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ تقدم أول السورة ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ، وكذلك كان ؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إليه صلى الله عليه وسلم . واللام فى قوله : « لِأَنْ أَكُونَ » صلة زائدة ؛ قاله الجرجانى وغيره . وقيل : لام أجل . وفى الكلام حذف أى أمرت بالعبادة « لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يريد عذاب يوم القيامة . وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه . قاله أكثر أهل التفسير . وقال أبو حمزة الثمالى وابن المسيّب : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ «الله» نصب بـ «أعبد» ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ». وقيل: منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. في رواية عن ابن عباس: فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك، وهو قوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ».

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمى ما تحتهم ظللا؛ لأنها تظل من تحتهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» وقوله: «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ». ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي خافون. وقيل: هو عام في المؤمن والكافر. وقيل: خاص بالكفار.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش: الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة. وقد تقدم[1]. أي تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدى: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطغيان، و «أن» في موضع نصب بدلا من الطاغوت، تقديره، والذين

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية.

ٱجتنبوا عبادة الطاغوت . ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى رجعوا إلى عبادته وطاعته . ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ فى الحياة الدنيا بالجنة فى العقبى . روى أنها نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضى الله عنهم ؛ سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا . وقيل نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر وغيرهما ممن وحد الله تعالى قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ قال ٱبن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أى محكمه فيعملون به . وقيل : يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقيل : يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو . وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام « لا إله إلا الله » . وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى ، ٱجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها فى جاهليتهم ، وٱتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ لما يرضاه . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى الذين ٱنتفعوا بعقولهم .

قوله تعالى : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية . قال ٱبن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . وكرر الٱستفهام فى قوله : « أَفَأَنْتَ » تأكيدا لطول الكلام ، وكذا قال سيبويه فى قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ » [(1)] على ما تقدم . والمعنى « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » أفأنت تنقذه . والكلام شرط وجوابه . وجىء بالٱستفهام ؛ ليدل على التوقيف والتقرير . قال الفراء : المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

كلمة العذاب . والمعنى واحد . وقيل : إن فى الكلام حذفا والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، وما بعده مستأنف . وقال : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ » وقال فى موضع آخر : « حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث ، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقى بل الكلمة فى معنى الكلام والقول ؛ أى افمن حق عليه قول العذاب .

قوله تعالى : لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ لما بيّن أن للكفار ظللا من النار من فوقهم ومن تحتهم بيّن أن للتقين غرفا فوقها غرف ؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا و « لكن » ليس للاستدراك ؛ لأنه لم يأت نفى كقوله : ما رأيت زيدا لكن عمرا ، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يأت . ﴿ غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أى هى جامعة لأسباب النزهة . ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ؛ لأن معنى « لَهُمْ غُرَفٌ » وعدهم الله ذلك وعدا . ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله . ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أى ما وعد الفريقين .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أى إنه لا يخلف الميعاد فى إحياء الخلق ، والتمييز بين المؤمن والكافر ، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء . « أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من السحاب « مَآءً » أى المطر ﴿ فَسَلَكَهُۥ ﴾ أى فأدخله فى الأرض

وأسكنه فيها ؛ كما قال : « وَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » . ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَعَ ينبَع و ينبُع و ينبِع بالرفع والنصب والخفض . النحاس : وحكى لنا ابن كيسان فى قول الشاعر :[1]

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

أن معناه يَنْبَع فأشبع الفتحة فصارت ألفا ، نبوعا خرج . واليَنْبوع عين الماء والجمع الينابيع . وقد مضى فى « سبحان »[2] . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أى بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿ زَرْعًا ﴾ هو للجنس أى زروعا شتى لها ألوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونورا . قال الشعبي والضحاك : كل ماء فى الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى ييبس . ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ أى بعد خضرته ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ قال المبرد قال الأصمعى : يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولّى . قال : وكذلك هاج النبت . قال : وكذلك قال غير الأصمعى . وقال الجوهرى : هاج النبت هِياجا أى يبس . وأرض هائجة يبس بقلها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، وأهيجنا الأرض أى وجدناها هائجة النبات ، وهاج هائجه أى ثار غضبه ، وهدأ هائجه أى سكنت فورته . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أى فتاتا مكسرا من تَحطّم العودُ إذا تفتت من اليبس . والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة . وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من فى الأرض ، أى أنزل من السماء قرآنا فسلكه فى قلوب المؤمنين « ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » أى دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيمانا ويقينا ، وأما الذى فى قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع . وقيل : هو مثل ضربه الله للدنيا ؛ أى كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)

---

(١) قائله عنترة : ويروى ، غضوب حرة . وتمامه : * زيافة مثل الفنيق المقرم *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ شرح فتح و وسع . قال آبن عباس : وسع صـــدره للإسلام حتى ثبت فيـه . وقال السدى : وسع صـــدره بالإســلام للفرح به والطمأنينة إليه ؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام ؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام . ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه . ودل على هذا المحذوف قوله : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » قال المبرد : يقال قسا القلب إذا صَلُب ، وكذلك عتا ، وعسا مقاربة لهـا . وقلب قاسٍ أى صُلْب لا يرقّ ولا يلين . والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون علىّ وحمزة رضى الله عنهما . وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال مقاتل : عمّار بن ياسر . وعنه أيضا والكلبى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والآية عامة فيمن شرح الله صـــدره بخلق الإيمـان فيه . وروى مُرّة[1] عن آبن مسعود قال : قلنا يا رسول الله قوله تعـالى « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » كيف آنشرح صدره ؟ قال : " إذا دخل النور القلب آنشرح وآنفتح " قلنا : يا رسول الله وما علامة ذلك ؟ . قال : " الإنابة إلى دار الخـلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للوت قبل نزوله " وخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصـول » من حديث آبن عمر : أن رجلا قال يا رســول الله أى المـؤمنين أكيس ؟ قال : "أكثرهم للوت ذكرا وأحسنهم له آستعدادا و إذا دخل النور فى القلب آنفسح وآستوسع" قالوا : فما آية ذلك يا نبىّ الله ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والآستعداد للوت قبـل نزول الموت " فذكر صلى الله عليه وسلم خصالا ثلاثة ، ولا شك أن من كانت فيه هــذه الخصال فهو الكامل الإيمان ، فإن الإنابة إنمـا هى أعمال البر ؛ لأن دار الخلود إنمـا وضعت جزاء لأعمال البر ، ألا ترى كيف ذكره الله فى مواضع فى تنزيله ثم قال بعقب ذلك « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فالجنـة جزاء الأعمـال ؛ فإذا آنكمش العبد فى أعمال البر فهــو إنابته إلى دار الخلود ، و إذا خمد حرصه عن الدنيا ، ولهـا عن طلبها ، وأقبـل على

(١) هو مرة بن شراحيل الهمدانى يروى عن أبى بكر وعمر وعلى وأبى ذر وحذيفة وابن مسعود الخ ... التهذيب .

ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع ، فقد تجافى عن دار الغرور . وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا فى كل أمر ، واقفا متأدبا متثبتا حذرا يتورّع عما يُريبه إلى ما لا يَريبه ، فقد استعدّ للموت . فهذه علامتهم فى الظاهر . وإنما صار هكذا لرؤية الموت ، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا ، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور ، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب . وقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قيل : المراد أبو لهب وولده ، ومعنى « مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره . وقيل : إن « مِن » بمعنى عن والمعنى قست عن قبول ذكر الله . وهذا اختيار الطبرى . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى اطلبوا الحوائج من السُّمَحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى " . وقال مالك بن دينار : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعنى القرآن لما قال « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » بين أن أحسن ما يسمع ما أنزله الله وهو القرآن . قال سعد بن أبى وقاص قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا : لو قصصت علينا فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » فقالوا : لو ذكرتنا فنزل « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » الآية . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّوا ملّة فقالوا له : حدثنا فنزلت . والحديث ما يحدّث به المحدِّث . وسمى القرآن حديثا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به

أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » وقوله : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » وقوله : « إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقوله : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » وقوله : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » قال القشيرى : وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدَث وهو وهم ؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما فى قوله : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقد قالوا : إن الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الرب تعالى . ﴿ كِتَابًا ﴾ نصب على البدل من « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » ويحتمل أن يكون حالا منه . ﴿ مُتَشَابِهًا ﴾ يشبه بعضه بعضا فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا ، ليس فيه تناقض ولا آختلاف . وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ؛ لما يتضمنه من أمر ونهى وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز . ثم وصفه فقال : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل . ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد . ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى عند آية الرحمة . وقيل : إلى العمل بكتاب الله والتصديق به . وقيل : « إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » يعنى الإسلام .

الثانيـة — عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا قرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم . قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه . فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مر آبن عمر برجل من أهل القرآن ساقطا فقال : ما بال هـذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال آبن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن عبد العزيز : ذكر عند آبن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن ، فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ، ثم يقرأ عليـه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق . وقال أبو عمران

الجونى : وعظ موسى عليه السلام بنى إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه ، فأوحى الله إلى موسى ؛ قل لصاحب القميص لا يشقّ قميصه فإنى لا أحبّ المبذرين ؛ يشرح لى عن قلبه .

قال زيد بن أسلم : قرأ أبيّ بن كعب عند النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فرقّوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة " . وعن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا اقشعر جلدُ المؤمن من مخافة الله تحاتّت عنه خطاياه كما يتحاتّ عن الشجرة البالية ورقُها ". وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار ". وعن شهر بن حَوْشَب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل فى قلب الرجل كاحتراق السعفة، أما تجد إلا قشعريرة ؟ قلت : بلى؛ قالت : فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب . وعن ثابت البُنَانى قال قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى، ووجِل قلبى، وفاضت عيناى، فذلك حين يستجاب لى. يقال: اقشعر جلد الرجل اقعشرارا فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم، لأنها زائدة ؛ يقال أخذته قشعريرة . قال امرؤ القيس :

فبِتُّ أكابِدُ ليــلَ التِّمَا[1] * مِ والقلبُ مِن خشيــةٍ مُقْشَعِرّ

وقيل : إن القرآن لمـا كان فى غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته، اقشعرت الجلود منـه إعظاما له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لمـا فيه ؛ وهو كقوله تعـالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » فالتصدّع قريب من الاقشعرار، والخشوع قريب من قوله : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه. ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ أى القرآن هدى الله. وقيل: أى الذى وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى من خذله فلا مرشد له . وهو يرد على القدَرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كله مستوفى فى غير موضع والحمد لله . ووقف ابن كثير وابن محيصن على قوله : « هَادٍ » فى الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء .

---

(١) ليل التمام : أطول ما يكون من ليالى الشتاء .

قوله تعالى : أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ قال عطاء وآبن زيد : يُرْمَى به مكتوفا في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجر على وجهه في النار ، وقال مقاتل : هو أن الكافر يرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه ، فحرها ووهجها على وجهه ؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال . والخبر محذوف . قال الأخفش : أي « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ » أفضل أم من سعد ، مثل « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي وتقول الخزنة للكافرين ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي جزاء كسبكم من المعاصي . ومثله « هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تقدم معناه [(1)] . وقال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال : والخزي من المكروه والخزاية من الاستحياء . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي مما أصابهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

(1) راجع جـ ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثـل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وقيـل : أى ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحال . قال الأخفش : لأن قوله جل وعز « فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ » معرفة . وقال على بن سليمان : « عَرَبِيًّا » نصب على الحال و « قُرْآنًا » توطئـة للحال كما تقول مررت بزيد رجلا صالحا فقولك صالحا هو المنصوب على الحال . وقال الزجاج : « عَرَبِيًّا » منصوب على الحال و « قُرْآنًا » توكيد . ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ النحاس : أحسن ما قيل فيه قول الضحاك ، قال : غير مختلف . وهو قول ابن عباس ، ذكره الثعلبي . وعن ابن عباس أيضا غير مخلوق ، ذكره المهدوى وقاله السدى فيما ذكر الثعلبي . وقال عثمان بن عفان : غير متضاد . وقال مجاهد : غير ذى لَبْس . وقال بكر بن عبـد الله المزنى : غير ذى لَحْن . وقيل : غير ذى شك . قاله السدى فيما ذكره الماوردى . قال :

وقـد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذى عِوَجٍ * مِن الإلهِ وقـولٌ غيرُ مكذوبِ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والكذب .

قوله تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ قال الكسائى : نصب « رجلا » لأنه ترجمة للمثـل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض ، مجازه : ضرب الله مثـلا برجل « فِيـهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرّد : أى متعاسرون من شَكُس يَشكُس شُكُسًا [بوزن قفـل][1] فهو شَكِسٌ مثـل عَسُر يَعسُر عُسْرا فهو عَسِر؛ يقال : رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ . ويقال : رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ أى

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

شَرِسٌ عسِر شَكِسٌ؛ قاله الجوهري. الزمخشري: والتشاكس والتشاخس الاختلاف. يقال: تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه. ويقال: شاكسني فلان أي ماكسني وشاحّني في حقّ. قال الجوهري: رجل شَكْس بالتسكين أي صَعْب الخُلُق. قال الراجز:

* شَكْسٌ عبوسٌ عنبسٌ عذَوّرُ *

وقوم شُكْسٌ مثال رَجلٌ صَدْق وقوم صُدْق. وقد شَكِس بالكسر شَكَاسةً. وحكى الفراء: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَل من عبد آلهة كثيرة. ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ أي خالصا لسيد واحد، وهو مَثَل من يعبد الله وحده. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جره وآستخدمه؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضى واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم. وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة «وَرَجُلاً سَلَماً» وقرأ آبن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدري وأبو عمرو وآبن كثير ويعقوب «وَرَجُلاً سَالِماً» وآختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه. قال: لأن السالم الخالص ضدّ المشترك، والسَّلَم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هنا. النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السلم ضدّ الحرب فله موضع آخر؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك. ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة. وآختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة «سَلَماً» قال وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد آبن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام وسِلْماً وسَلَما مصدران، والتقدير؛ ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و«مَثَلاً» صفة على التمييز، والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالاهما. وإنما آقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيتبعونه.

قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ ﴾ وقرأ ٱبن محيصن وٱبن أبى عَبْلة وعيسى بن عمر وٱبن أبى إسحق « إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ » وهى قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير . النحاس : ومثل هذه الألف تحذف فى الشواذ و « مائت » فى المستقبل كثير فى كلام العرب ؛ ومثله ما كان مريضا وإنه لمارض من هذا الطعام . وقال الحسن والفراء والكسائى : الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والميْت بالتخفيف من فارقته الروح ؛ فلذلك لم تخفف هنا . قال قتادة : نُعِيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم نفسُه ، ونُعِيت إليكم أنفسُكم . وقال ثابت البُنَانى : نَعَى رجلٌ إلى صلة بن أَشْيَم أخًا له فوافقه يأكل ، فقال : آدْنُ فكُلْ فقد نُعِي إلى أخى منذ حين ؛ قال : وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر . قال إن الله تعالى نعاه إلىّ فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أخبره بموته وموتهم ؛ فاحتمل خمسة أوجه : أحدها أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة . الثانى أن يذكره حثا على العمل . الثالث أن يذكره توطئة للموت . الرابع لئلا يختلفوا فى موته كما آختلفت الأمم فى غيره ، حتى أن عمر رضى الله عنه لما أنكر موته آحتج أبو بكر رضى الله عنه بهذه الآية فأمسك . الخامس ليعلمه أن الله تعالى قد سوّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم فى غيره ؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يعنى تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم ؛ قاله آبن عباس وغيره . وفى خبر فيه طول : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد . وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله ! أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : " نعم ليكررنّ عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذى حقّ حقّه " فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد . وقال آبن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين " ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ " فقلنا : وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد ، حتى رأيت

بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها فينا نزلت . وقال أبو سـعيد الخدرى : كنا نقول ربنا واحد ودِيننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة . فلما كان يوم صِفِّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا . وقال إبراهيم النَّخَعى : لما نزلت هـذه الآية جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقولون : ما خصومتنا بيننا ؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هـذه خصومتنا بيننا . وقيـل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعـالى ، فيستوفى من حسنات الظالم بقدر مظلمته ، ويردّها فى حسنات من وجبت له . وهـذا عام فى جميع المظالم كما فى حديث أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون من المفلِس" قالوا : المفلِس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال : إن المفلِس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هـذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخِذ من خطاياهم فطرِحت عليه ثم طرِح فى النار" خرجه مسلم . وقد مضى المعنى مجودا فى «آل عمران»[1] وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت له مظلمة لأحد من عِرْضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقـدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخِذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" وفى الحديث المسند "أول ما تقع الخصومات فى الدنيا" وقد ذكرنا هذا الباب كله فى « التذكرة » مستوفى .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ فزعم أن له ولدا وشريكا ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ آستفهام تقرير ﴿ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مقام للجاحدين وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْـوِى ثَوَاء وثُوِيًّا مثـل مضى مَضاء ومُضِيًّا ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى وهـذا يدل على أن ثَوَى هى اللغة الفصيحة . وحكى أبو عبيد أَثْوَى وأنشد قول الأعشى :

أَثْـوَى وقَصَّـرَ لَيْـلَةً لِـيُزَوَّدَا * ومَضَى وأَخْلَفَ مِن قُتَيْـلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعى لا يعرف إلا ثَوَى ، ويروى البيت أَثَوَى على الآستفهام . وأَثْوَيْتُ غيرى يتعدى ولا يتعـدّى .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ فى موضع رفع بالآبتداء وخبره ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وآختلف فى الذِى جاء بِالصدقِ وصدق بِهِ ؛ فقال على رضى الله عنه : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبى صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » أبو بكر رضى الله عنه . وقال مجاهد : النبى عليه السلام وعلىّ رضى الله عنه . السدى : الذى جاء بالصدق جبريل صلى الله عليه وسلم والذى صدّق به محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال آبن زيد ومقاتل وقتـادة : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبى صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » المؤمنون . وآستدلوا على ذلك بقوله : « أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » كما قال : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . وقال النخعى ومجاهد : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَـدَّقَ بِهِ » المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون : هذا الذى أعطيتمونا قد آتبعنا ما فيه ؛ فيكون « الذِى » على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع . وقيل : بل حذفت منه النون لطـول الآسم ، وتأوله الشعبى على أنه واحد . وقال : « الَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ » محمد صـلى الله عليه وسلم فيكون على هـذا خبره جماعة ؛ كما يقال لمن يُعظم هو فعلوا ، وزيد فعلوا كذا وكذا . وقيل : إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل ؛ قاله آبن عباس وغيره وآختاره الطبرى . وفى قراءة آبن مسعود « وَالَّذِى جَاءُوا بِالصدقِ وَصَدَّقُوا بِهِ » وهى قراءة على التفسير ، وفى قراءة أبى صالح الكوفى « وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ » مخففا على معنى وصدق بمجيئه

به، أى صدق فى طاعة الله عز وجل، وقد مضى فى « البقرة »[1] الكلام فى « الذى » وأنه يكون واحدا ويكون جمعا . ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى من النعيم فى الجنة، كما يقال: لك إكرام عندى ؛ أى ينالك منى ذلك . ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الثناء فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى صدقوا « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ » . ﴿ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أى يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام . ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم ﴾ أى يثيبهم على الطاعات فى الدنيا ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهى الجنة .

قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ حذفت الياء من « كافٍ » لسكونها وسكون التنوين بعدها ؛ وكان الأصل ألا تحذف فى الوقف لزوال التنوين ، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك فى الوصل . ومن العرب من يثبتها فى الوقف على الأصل فيقول : كافى . وقراءة العامة « عَبْدَهُ » بالتوحيد يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم . وقرأ حمزة والكسائى « عِبَادَهُ » وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهم . واختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه : « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ » . ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس ؛ كقوله عز من قائل : « إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وعلى هذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانية . والكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام وكيف « أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ » . وقال الجرجانى : إن الله كافٍ عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم مَضرَّة الأوثان ، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكفّ عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها ياخالد فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العُزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس . وتخويفهم لخالد تخويف للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الذى وجه خالدا . ويدخل فى الآية تخويفهم النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ تقدم . ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ ﴾ أى ممن عاداه أو عادى رسله .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أى ولئن سألتهم يا محمد ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأن الخالق هو الله ، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلهتهم التى هى مخلوقة لله تعالى ، وأنت رسول الله الذى خلقها وخلق السموات والأرض . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا « أَفَرَأَيْتُمْ » ﴿ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة وبلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ يعنى هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَرَادَنِي

بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ قال مقاتل : فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لا تدفع شيئا قدره الله ولكنها تشفع . فنزلت ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ؛ يعنى فسيقولون لا [أى لا تكشف ولا تمسك][1] ف « قُلْ » أنت « حَسْبِيَ اللَّهُ » أى عليه توكلت أى اعتمدت و ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يعتمد المعتمدون . وقد تقدم الكلام[2] فى التوكل . وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصما « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » بغير تنوين . وقرأ أبو عمرو وشيبة وهى المعروفة من قراءة الحسن وعاصم « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ » . « مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ » بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لأنه اسم فاعل فى معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود . قال الشاعر :

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم * بالليل يوم عُمَيْرٍ ظالمٌ عادى

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين ، وحذف التنوين على التحقيق ، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثانى بالإضافة . وحذف التنوين كثير فى كلام العرب موجود حسن ؛ قال الله تعالى : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ » وقال : « إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ » قال سيبويه : ومثل ذلك « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ » وأنشد سيبويه :

هَلْ أَنْتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتنا * أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

وقال النابغة :

احْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ * إلى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ[3]

معناه وارِدٍ الثَّمَدَ فحذف التنوين ؛ مثل « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أى على مكانتى أى على جهتى التى تمكنت عندى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[4] . وقرأ أبو بكر « مَكَانَاتِكُمْ » وقد مضى فى « الأنعام » .

---

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ وص ٢٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) يقول الشاعر للنعمان بن المنذر وكان واجدا عليه : كن حكيما فى أمرى كحكم زرقاء اليمامة فى حزرها الحمام التى مرت طائرة بها . وخبرها مشهور . والشراع : الموضع الذى ينحدر منه إلى الماء . والثمد : الماء القليل على وجه الأرض .

(٤) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى يهينه ويذله أى فى الدنيا وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أى فى الآخرة ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقدم الكلام فى هذه الآية مستوفى فى غير موضع (١).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فيــه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعــالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أى يقبضها عند فناء آجالها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ اختلف فيــه. فقيل: يقبضها عن التصرف مع بقــاء أرواحها فى أجسادها ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ وهى النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى (٢). وقال الفــراء: المعنى ويقبض التى لم تمت فى منامها عند انقضاء أجلها. قال: وقد يكون توفيها نومها؛ فيكون التقدير على هذا والتى لم تمت وفاتها نومها. وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها. وقال سعيد بن جبير: إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف «فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى» أى يعيدها. قال على رضى الله عنه: فما رأته نفس النائم وهى فى السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهى الرؤيا الصادقة، وما رأته بعــد إرسالها وقبل استقرارها فى جسدها تلقيها الشياطين، وتخيل إليهــا الأباطيل فهى الرؤيا الكاذبة.

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) فى نسخة: قاله أبو عيسى.

وقال ابن زيد : النوم وفاة والموت وفاة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون" . وقال عمر : النوم أخو الموت . وروى مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله قيل : يا رسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : "لا النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها" خرجه الدارقطني . وقال ابن عباس : في ابن آدم نَفْس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والتحريك ، فإذا نام العبد قبض الله نَفْسه ولم يقبض روحه . وهذا قول ابن الأنبارى والزجاج ، قال القشيرى أبو نصر : وفي هذا بُعْد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد ؛ ولهذا قال : « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فإذًا يقبض الله الروح في حالين في حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه في حال النوم فمعناه انه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض ، وما قبضه في حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة . وقوله : « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أي يزيل الحابس عنه فيعود كما كان ، فتوفى الأنفس في حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة في محل الإدراك . وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت و إزالة الحس بالكلية. « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ » بألا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت ؟ « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » بأن يعيد إليها الإحساس .

الثانيـة — وقد اختلف الناس من هذه الآية في النفس والروح ؛ هل هما شيء واحد أو شيئان على ما ذكرنا . والأظهر أنهما شيء واحد، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب . من ذلك حديث أم سَلَمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سَلَمة وقد شَقَّ بصرُه (١) فأغمضه ، ثم قال: "إن الرُّوح إذا قُبِض تَبِعه البصرُ" وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصَرُه" قال: "فذلك حين يَتْبَع بصرُه نَفْسَه" خرجهما مسلم . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(١) شق بصره : أى انفتح .

"تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا آخرجى أيتها النفس الطيبـة كانت فى الجسـد الطيب آخرجى حميدة وأبشرى بِرَوْح ورَيحان ورَبٍّ راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يُعرَج بها إلى السماء" وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه آبن ماجه ؛ وقـد ذكرناه فى «التذكرة». وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: "إذا خرجت رُوح المؤمن تلقّاها مَلَكان يصعدان بها". وذكر الحديث. وقال بلال فى حديث الوادى : أخذ بنَفْسى يارسول الله الذى أخذ بنفسك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلا له فى حديث زيد بن أسلم فى حديث الوادى: "يأيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا فى حين غير هذا".

الثالثـة — والصحيح فيـه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة، يُجـذَب ويُخرج وفى أكفانه يُلفّ ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لايموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر، وهو بعينين ويدين ، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة ؛ كما فى حديث أبى هريرة . وهـذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض ؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله فى كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال تعـالى : «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ» يعنى النفس إلى خروجها من الجسد ؛ وهذه صفة الجسم . والله أعلم .

الرابعة — خرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا آوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بهـا فراشه وليسم الله فإنه لايعلم ماخلَفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقّه الأيمن وليقل سبحانك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكتَ نَفْسى فآغفر لهـا". وقال البخارى وآبن ماجه والترمذى : "فآرحمها" بدل "فآغفر لها" "وإن أرسلتها فآحفظها بمـا تحفظ به عبادك الصـالحين" زاد الترمذى "وإذا آستيقظ فليقل الحمـد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ علىّ روحى وأذن لى بذكره". وخرج البخارى عن حُذَيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ؛ ثم يقول : "اللهم بآسمك أموت وأحيا" وإذا آستيقظ قال : "الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" .

قوله تعـالى : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ هذه قراءة العامـة على أنه مسمى الفاعل « الْمَوْتَ » نصبا؛ أى قضى الله عليها وهو آختيار أبي حاتم وأبي عبيد ؛ لقوله فى أول الآية : « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ » فهو يقضى عليها . وقـرأ الأعمش ويحيي بن وثاب وحمـزة والكسائى « قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ » على ما لم يسم فاعله . النحاس : والمعـنى واحد غير أن القـراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام ؛ لأنهم قـد أجمعوا على « وَيُرْسِلُ » ولم يقرءوا « ويُرْسَل » . وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته وآنفـراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ، ويحيي ويميت ، لا يقـدر على ذلك سـواه . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعنى فى قبض الله نَفْس الميت والنائم ، وإرساله نَفْس النائم وحبسه نَفْس الميت ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .وقال الأصمعى سمعت معتمرا يقول : روح الإنسان مثل كُبَّة الغَزْل [1] ، فترسَل الروح ، فتمضى ثم تمضى ثم تطوى فتجىء فتدخل ، فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شىء فى حال النوم ومعظمها فى البدن متصل بمـا يخرج منها آتصالا خفيا ، فإذا آستيقظ المرء جذب معظم روحه ما آنبسط منها فعاد . وقيل : غير هذا ، وفى التنزيل : «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أى لا يعلم حقيقته إلا الله . وقد تقدّم فى « سبحان [2] » .

قوله تعـالى : أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ﴾ أى بل آتخذوا يعنى الأصنام وفى الكلام ما يتضمن لم ؛ أى « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » لم يتفكروا ولكنهم آتخذوا آلهتهم شفعاء . ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ أى قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا

(١) كبة الغزل : ما جمع منه . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا يملكون شيئا من الشفاعة ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات . وهذا ٱستفهام إنكار .
﴿ قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » فلا شافع إلا من شفاعته « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى » . « جَمِيعًا » نصب على الحال . فإن قيل : « جَمِيعًا » إنما يكون للاثنين فصاعدا والشفاعة واحدة . فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدى عن الاثنين والجميع ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، وعلى الحال عند يونس . ﴿ ٱشْمَأَزَّتْ ﴾ قال المبرد : ٱنقبضت . وهو قول ٱبن عباس ومجاهد . وقال قتادة : نفرت وٱستكبرت وكفرت وتعصت . وقال المؤرِّج : أنكرت . وأصل الاشمئزاز النفور والازورار . قال عمرو بن كُلْثوم :

إذا عَضَّ الثِّقافُ بها ٱشْمَأَزَّتْ * وَوَلَّتْهُــمْ عَشَوْزَنَةً زَبُــونا [(١)]

وقال أبو زيد : ٱشمأز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور . وكان المشركون إذا قيل لهم « لا إله إلا الله » نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان حين ألقى الشيطان فى أمنية النبى صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة « والنجم » تلك الغرانيقُ العُلَى و إن شفاعتهم تُرتجى [(٢)] . قاله جماعة المفسرين . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى يظهر فى وجوههم البشر والسرور .

قوله تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

(١) الثقاف ما تقوم به الرماح . وعشوزنة صلبة شديدة . والزبون الدفوع . والبيت فى وصف قناة ، وقبله :
فإن قناتنا يا عمرو أعيت * على الأعداء قبلك أن تلينا

(٢) راجع ما قيل فى هذا الكلام من منافاته للعصمة وتأويلات فى قوله تعالى فى سورة الحج : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » جـ ١٢ ص ٧٩ وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتا . ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " ولما بلغ الربيع بن خَيْثَم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّموات وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » . وقال سعيد بن جبير : إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم . وقد مضى هذا في سورة « آل عمران »[1] و« الرعد »[2] . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ من أجل ما روى فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات . وقاله السدي . وقيل : عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا ، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة . ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ« بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » من دخول النار . وقال سفيان الثوري في هذه الآية : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة ابن عمار . جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال :

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٧ طبعة أولى أو ثانية .

أخاف آية من كتاب الله « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ » فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصى . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ونزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ قيل : إنها نزلت فى حُذيفة بن المغيرة . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال قتادة : « عَلَى عِلْمٍ » عندى بوجوه المكاسب ، وعنه أيضا « عَلَى عِلْمٍ » على خير عندى . وقيل : « عَلَى عِلْمٍ » أى على علم من الله بفضلى . وقال الحسن : « عَلَى عِلْمٍ » أى بعلم علمنى الله إياه . وقيل : المعنى أنه قال قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند الله منزلة ؛ فقال الله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى بل النعم التى أوتيتها فتنة تختبر بها . قال الفراء : أنث « هى » لتأنيث الفتنة ، ولو كان بل هو فتنة لجاز . النحاس : التقدير بل أعطيته فتنة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون أن إعطاءهم المال آختبار .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أنث على تأنيث الكلمة . ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « ما » للجحد أى لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقيل :

أى فما الذى أغنى أموالهم ؟ ف «ما» آستفهام . ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم . وقد يسمى جزاء السيئة سيئة . ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا ﴿ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الأمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى بالجوع والسيف . ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين الله ولا سابقيه . وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذى يتدبر الآيات وينتفع بها ، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا وآستدراجا ، وتقتيره رفعة وإعظاما .

قوله تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﴾ وإن شئت حذفت الياء؛ لأن النداء موضع حذف . النحاس : ومن أجلّ ما روى فيه ما رواه محمد بن إسحق عن نافع عن آبن عمر عن عمر قال : لما آجتمعنا على الهجرة ، آتعدتُ

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ٨ ص ٣٥١ طبعة أولى أو ثانية .

أنا وهشام بن العاصى بن وائل السَّهْمى، وعَيّاش بن أبى ربيعة بن عُتْبة ، فقلنا : الموعد أضاة بنى غفار(١) ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِس فليمض صاحبه ؛ فأصبحت أنا وعياش ابن عتبة وحُبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فآفتتن ، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم آفتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضا يقولون هذا فى أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل فى كتابه : «قُلْ يا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» إلى قوله تعالى : «أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ» قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت علىّ خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن سعيد بن جبير عن آبن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أو تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية «قُلْ يا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» ذكره البخارى بمعناه . وقد مضى فى آخر «الفرقان»(٢) . وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونُسْلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ! فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة ، وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية . وقال آبن عباس أيضا وعطاء : نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ؛ وروى آبن جريج عن عطاء عن آبن عباس قال : أتى وَحْشِىّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد كنت أحبّ أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله" قال: فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت

(١) الأضاة غدير . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ » إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطا فلعلى لا أعمل صالحا، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله. فنزلت « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » فقال: نعم الآن لا أرى شرطا. فأسلم. وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ولا يبالي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ». وفى مصحف ابن مسعود « إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ ». قال أبو جعفر النحاس: وهاتان القراءتان على التفسير، أى يغفر الله لمن يشاء. وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة، ودل على أنه يريد التائب ما بعده « وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ » فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا، يدل على ذلك « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » فهذا لا إشكال فيه. وقال على بن أبى طالب: ما فى القرآن آية أوسع من هذه الآية « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وقد مضى هذا فى « سبحان »[1]. وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية فى القرآن فرد عليهم ابن عباس وقال أرجى آية فى القرآن قوله تعالى: « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » وقد مضى فى « الرعد »[2]. وقرئ « وَلَا تَقْنِطُوا » بكسر النون وفتحها. وقد مضى فى « الحجر »[3] بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أى ارجعوا إليه بالطاعة. لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أى اخضعوا له وأطيعوا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ فى الدنيا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية.

﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أى لا تمنعون من عذابه . وروى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من السعادة أن يطيل الله عمر المرء فى الطاعة ويرزقه الإنابة وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله " .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن وكله حسن، والمعنى ما قال الحسن: آلتزموا طاعته، وآجتنبوا معصيته . وقال السدى : الأحسن ما أمر الله به فى كتابه . وقال ابن زيد: يعنى المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقال : أنزل الله كتبا التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر بآتباعه فهو الأحسن وهو المعجز . وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة . وقيل : يعنى العفو؛ لأن الله تعالى خير نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص . وقيل ما علّم الله النبى عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن . وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا﴾ «أن» فى موضع نصب أى كراهة «أَنْ تَقُولَ» وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر «أَنْ تَقُولَ» . وقيل : أى من قبل « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » لأنه قال قبل هذا : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ » . الزمخشرى : فإن قلت لم نكّرت؟ قلت؛ لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يريد نفسا متميزة من الأنفس، إما بلجاج فى الكفر شديد، أو بعقاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى:

ورُبَّ بَقيعٍ لـو هَتَفْتُ بِجَـوِّهِ * أتانى كَرِيمٌ يَنفُضُ الرأسَ مُغْضَبا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا ، ونظيره رُبَّ بـلدٍ قطعت ، ورُبَّ بطلٍ قارعت، ولا يقصد إلا التكثير . «يَا حَسْرَتَا» والأصل «يا حسرتى» فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن فى الآستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء :

يا مَرْحباهُ بحمـارٍ ناجيةْ (١) * إذا أتى قرَّبْتُـه للسَّانيَهْ

(١) الناجية : السريعة . وفى تفسير الفراء ناهية بدل ناجية وكذا روى فى اللسان وشرح القاموس فى مادة سنا . والسانية هنا مصدر على فاعلة بمعنى الاستسقاء؛ أراد قربته للسناية .

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر «يَا حَسْرَتَاىَ» والحسرة الندامة. ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ قال الحسن: فى طاعة الله. وقال الضحاك: أى فى ذكر الله عز وجل. قال: يعنى القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة: فى جنب الله أى فى ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال فلان يعيش فى جنب فلان أى فى جواره ومنه «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ» أى على مافرطت فى طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أى على ما فرطت فى الطريق الذى هو طريق الله الذى دعانى إليه. والعرب تسمى السبب والطريق إلى الشىء جنبا؛ تقول تجرعت فى جنبك غصصا؛ أى لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: «فِي جَنْبِ اللهِ» أى فى الجانب الذى يؤدى إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمى الجانب جنبا؛ قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُودا لِذاكَ الْقَلْبُ * النّاسُ جَنْبٌ والأَميرُ جَنْبُ

يعنى الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أى تركت من أمر الله؛ يقال ما فعلت ذلك فى جنب حاجتى؛ قال كُثَيِّر:

أَلَا تَتَّقِينَ اللهَ فى جَنْبِ عاشِق * له كَبِدٌ حَرَّى عليكِ تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد؛ أى ضيعت من أمر الله. ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما جلس رجل مجلسا ولا مشى مَمْشًى ولا آضطجع مضطجعا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه تِرَةً[1] يوم القيامة" أى حسرة؛ خرجه أبو داود بمعناه. وقال إبراهيم التيمى: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذى أتاه الله فى الدنيا يوم القيامة فى ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذى خوله الله إياه فى الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلا يعرفه أعمى فى الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمى هو. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أى وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول فى الدنيا وبأولياء الله. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع

(١) فسرها ابن الأثير فى النهاية بالنقص أو التبعة.

طاعة الله حتى سخر من أهلها . ومحل « إن كنت » النصب على الحال؛ كأنه قال : فرطت وأنا ساخر؛ أى فرطت فى حال سخريتى . وقيـل وما كنت إلا فى سخرية ولعب وباطـل؛ أى ما كان سعيى إلا فى عبادة غير الله تعـالى .

قوله تعـالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ هذه النفس ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَـدَانِي ﴾ أى أرشدنى إلى دينه ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى الشرك والمعاصى . وهـذا القول لو أن الله هـدانى لاهتديت قول صـدق . وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهـم فى قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا » فهى كلمة حق أريد بها باطل ؛ كما قال علىّ رضى الله عنه لمـا قال قائل من الخوارج لا حـكم إلا لله . ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ يعنى هـذه النفس ﴿ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أى رجعة . ﴿ فَأَكُونَ ﴾ نصب على جواب التمنى، وإن شئت كان معطوفا على « كَرَّةً » لأن معناه أن أكر؛ كما قال الشاعر (١) :

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَـرَّ عينى * أَحَبُّ إلىَّ من لُبْسِ الشُّفُوفِ

وأنشد الفراء :

فمالَكَ منها غيرُ ذِكْرَى وخَشْيَةٍ * وتَسْأَلَ عن رُكْبَانِها أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و (تسأل) على موضع الذكرى؛ لأن معنى الكلام فمـالك منها إلا أن تذكر . ومنه للبس عباءة وتقر؛ أى لأن ألبس عباءة وتقر . وقال أبو صالح : كان رجل عالم فى بنى إسرائيل وجد رقعة؛ إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النـار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال : ولأى شىء أتعب نفسى فترك عمله وأخذ فى الفسوق والمعصية ، وقال له إبليس : لك عمـر طويل فتمتع فى الدنيا ثم تتوب ، فأخذ فى الفسوق وأنفق ماله فى الفجور، فأتاه ملك الموت فى ألذ ما كان ، فقال : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله؛ ذهب عمرى فى طاعة الشيطان ، فندم حين لا ينفعه الندم؛ فأنزل الله خبره فى القرآن . وقال

(١) قائله ميسون بنت بحدل الكلبية .

قتادة : هؤلاءِ أصـناف ؛ صنف منهم قال : « يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ » . وصنف منهم قال : « لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وقال آخر : « لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » فقال الله تعالى ردّا لكلامهم ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ قال الزجاج : «بلى» جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي، ولكن معنى «لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي» ماهداني، وكأن هذا القائل قال ما هديت؛ فقيل: بلى قد بين لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن . «آيَاتِي» أي القرآن . وقيل : عنى بالآيات المعجزات؛ أي وضح الدليل فأنكرته وكذبته . ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ أي تكبرت عن الإيمان ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال : « استكبرت وكنت » وهـو خطاب الذكر ؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى . يقال : ثلاثة أنفس . وقال المبرد : تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد. وروى الربيع ابن أنس عن أم سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ «قَدْ جَاءَتْكِ آيَاتِي فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ». وقرأ الأعمش «بلى قَدْ جَاءَتْهُ آيَاتِي» وهذا يدل على التذكير. والربيع ابن أنس لم يلحق أم سَلَمة إلا أن القراءة جائزة؛ لأن النفس تقع للذكر والمؤنث . وقـد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات . قال النحاس : وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبله «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال : « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» ولم يقـل من السواخر ولا من الساخرات . والتقـدير في العربية على كسر التاء «وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ» من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أى مما أحاط بهم من غضب الله ونقمته . وقال الأخفش : « ترى » غير عامل فى قوله : « وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » إنما هو ٱبتداء وخبر . الزمخشرى : جملة فى موضع الحال إن كان « تَرَى » من رؤية البصر، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال عليه السلام : "سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ النَّاس" أى ٱحتقارهم . وقد مضى فى « البقرة »[1] وغيرها . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم".

قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وقرئ « وَيُنْجِى » أى من الشرك والمعاصى . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر . وقرأ الكوفيون « بِمفازاتِهم » وهو جائز كما تقول بسعاداتهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة، قال : "يحشر الله مع كل ٱمرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُعْب أو خَوْف قال له لا تُرَع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنىّ به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفنى أنا عملك الصالح حملتنى على ثِقلى فوالله لأحملنك ولأدفعنّ عنك فهى التى قال الله « وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »". ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وقائم به . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ واحدها مِقليد . وقيل : مِقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد والمقاليد المفاتيح عن ٱبن عباس وغيره . وقال السدى : خزائن السموات والأرض . وقال غيره : خزائن السموات المطر وخزائن الأرض النبات . وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد ، قال الجوهرى : والإقليد المفتاح، والمِقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقلد القَتّ إذا جعل حِبالا؛ أى يفتل والجمع المقاليد . وأقلد البحرُ على خلق كثير أى غرّقهم كأنه أغلق عليهم . وخرج البيهقى عن ٱبن عمر أن عثمان بن

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

عفان رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماسألنى عنها أحد لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شىء قدير" ذكره الثعلبى فى تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال: أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره آثنا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضا من الأجر كمن حج وآعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا . وروى الحارث عن علىّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد فقال : " ياعلىّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير" من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية يعطى قنطارا فى الجنة هو أثقل فى ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لاينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين، والخامسة يشهده آثنا عشر ألف ملك يكتبونها له فى رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج وآعتمر فقبل الله حجته وعمرته ، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء . وقيل : المقاليد الطاعة يقال ألق إلى فلان بالمقاليد أى أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية له طاعة من فى السموات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى بالقرآن والحجج والدلالات . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ وذلك حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك . و « غَيْرَ » نصب بـ« أَعْبُدُ » على تقدير أعبد غير الله فيما تأمرونى . ويجوز أن ينتصب بـ « تَأْمُرُونِّي » على حذف حرف الجر ؛ التقدير : أتأمرونّى بغير الله أن أعبده ؛ لأنّ أن مقدرة وأن والفعل مصدر، وهى بدل من غير ؛ التقدير : أتأمرونّى بعبادة غير الله . وقرأ نافع « تَأْمُرُونِيَ » بنون واحدة مخففة وفتح الياء . وقرأ ابن عامر « تَأْمُرُونَنِي » بنونين مخففتين على الأصل . الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها وقعت فى مصحف عثمان بنون واحدة . وقرأ نافع على حذف النون الثانية و إنما كانت المحذوفة الثانية ؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها ، وأيضا حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع . وقد مضى فى «الأنعام»[1] بيانه عند قوله تعالى : « أَتُحَاجُّونِّي » . « أَعْبُدُ » أى أن أعبد فلما حذف « أن » رفع ؛ قاله الكسائى . ومنه قول الشاعر :

* أَلَا أَيُّهَذَا الزاجِرِى أَحْضُرُ الوَغَى[2] *

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ « أَعْبُدَ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ قيل : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا ؛ والتقدير : لقد أوحى إليك لئن أشركت وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك . وقيل : هو على بابه ؛ قال مقاتل : أى أوحى إليك و إلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف . ثم قال : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ » يا محمد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهو خطاب للنبى

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت من معلقة طرفة وتمامه :

* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى *

صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : الخطاب له والمراد أمته ؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك . والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيري : فمن آرتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر؛ ولهذا قال : « مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » فالمطلق ها هنا محمول على المقيد؛ ولهذا قلنا من حج ثم آرتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج .

قلت : هذا مذهب الشافعي . وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في « البقرة »[1] بيان هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ النحاس : في كتابي عن أبي إسحق لفظ آسم الله عز وجل منصوب بـ « ا عْبُدْ » قال : ولا آختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين . قال النحاس : وقال الفراء يكون منصوبا بإضمار فعل . وحكاه المهدوي عن الكسائي . فأما الفاء فقال الزجاج : إنها للمجازاة . وقال الأخفش : هي زائدة . وقال آبن عباس : «فاعْبُدْ» أي فوحد . وقال غيره : « بل الله » فأطع ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمه بخلاف المشركين .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال المبرد : ما عظّموه حقّ عظمته من قولك فلان عظيم القدر . قال النحاس : والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ . ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الترمذى عن عبدالله قال : جاء يهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض". وفى الترمذى عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » قالت : قلت فأين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : "على جسر جهنم" فى رواية "على الصراط يا عائشة" قال : حديث حسن صحيح . وقوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ» "ويقبض الله الأرض" عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته ؛ يقال ما فلان إلا فى قبضتى ، بمعنى ما فلان إلا فى قدرتى ، والناس يقولون الأشياء فى قبضته يريدون فى ملكه وقدرته . وقد يكون معنى القبض والطى إفناء الشيء وإذهابه فقوله جل وعز : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة ، والمراد بالأرض الأرضون السبع ؛ يشهد لذلك شاهدان قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا » ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتضٍ للمبالغة . وقوله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ليس يريد به طيا بعلاج وآنتصاب ، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب ؛ يقال : قد آنطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره . وآنطوى عنا دهر بمعنى المضى والذهاب . واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يريد به الملك ؛ وقال : « لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » أى بالقوّة والقدرة أى لأخذنا قوته وقدرته . قال الفراء والمبرد : اليمين القوّة والقدرة . وأنشدا :

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ * تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ [1]

---

(١) قائله الحطيئة . وقيل هو للشماخ .

وقال آخـر :

ولما رأيتُ الشمسَ أشرق نورُها * تناولتُ منها حاجتي بيمين[(1)]

قتلتُ شُنَيْفا ثم فاران بعدهُ * وكان على الآيات غيرَ أمين

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا ؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال : « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » وقال : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » حسب ما تقدّم في « الفاتحة[(2)] » ولذلك قال في الحديث : "ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بيانا، وتكلمنا على ذكر الشمال في حديث ابن عمر؛ قوله : "ثم يطوى الأرض بشماله" .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطى السماء وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية. وقد مضى الكلام في هذا في «النمل[(3)]» و «الأنعام[(4)]» أيضا . والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام . وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن صاحبي الصور بأيديهما — أو في أيديهما — قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران" خرجه ابن ماجه في السنن . وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور، وقال : "عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل" . واختلف في المستثنى من هم؟ فقيل : هم الشهداء متقلّدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعا من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي . وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام . وروى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ

---

(1) كذا في الأصول ولم نعثر على هذين البيتين فيما لدينا من المراجع . (2) راجع جـ ١ ص ١٤٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (3) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (4) راجع جـ ٧ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ » فقالوا : يا نبي الله من هم الذين آستثنى الله تعالى ؟ قال : " هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فيقول الله لملك الموت يا ملك الموت من بقى من خلقى وهو أعلم فيقول يا ربّ بقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرافيل وميكائيل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى فيقول الله تعالى يا جبريل لا بدّ من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام " فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطّود العظيم على الظّرِب[(١)] من الظِّراب " ذكره الثعلبى . وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحق، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله جل وعز : « فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ » قال : "جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل" وفى هذا الحديث : "إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام" وحديث أبى هريرة فى الشهداء أصح على ماتقدم فى « النمل »[(٢)] . وقال الضحاك : هو رضوان والحور ومالك والزّبانية . وقيل : عقارب أهل النار وحياتها . وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . وقال قتادة : الله أعلم بثنياه . وقيل : الآستثناء فى قوله : « إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ » يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى ؛ أى فيموت من فى السموات والأرض إلا من سبق موته ؛ لأنهم كانوا قد ماتوا . وفى الصحيحين وآبن ماجه واللفظ له عن أبى هريرة قال قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى آصطفى موسى على البشر؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الظرب ككتف الجبل الصغير والجمع ظراب . وقد يجمع فى القلة على أظرب .

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قال الله عز وجل « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » فأكون أوّل من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى أو كان ممن آستثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " وخرجه الترمذى أيضا وقال فيه : حديث حسن صحيح . قال القشيرى : ومن حمل الاستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله . فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة ، ويجوز أن تكون بالموت ، ولا يبعد أن تكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوّزه العقل ، والأمر فى وقوعه موقوف على خبر صدق .

قلت : جاء فى بعض طرق أبى هريرة أنه عليه السلام قال : " لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أوّل من يفيق فإذا موسى باطش(١) بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن آستثنى الله " خرجه مسلم . ونحوه عن أبى سعيد الخدرى ؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت بردّ الحياة . والله أعلم .

قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » أى فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم ، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم ، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون . وقيل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذى وعدوا به . وقيل : هذا النظر بمعنى الانتظار ؛ أى ينتظرون ما يفعل بهم . وأجاز الكسائى قياما بالنصب ؛ كما تقول : خرجت فإذا زيد جالسا .

قوله تعالى : وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(١) باطش بجانب العرش : أى متعلق به بقوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها ؛ يقال : أشرقت الشمسُ إذا أضاءت وشَرَقت إذا طَلَعت . ومعنى « بِنُورِ رَبِّهَا » بعدل ربها ؛ قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ؛ والمعنى واحد ؛ أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضىء به الأرض . وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتى لفصل القضاء . والمعنى أنها أشرقت بنورٍ خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك . وقيل : إنه اليوم الذى يقضى فيه بين خلقه ؛ لأنه نهار لا ليل معه . وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير « وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ » على مالم يسم فاعله وهى قراءة على التفسير . وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس ، وهو متعال عن [مشابهة[1]] المحسوسات، بل هو منوّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقا وإنشاء . وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عز وجل : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » يبين هذا الحديثُ المرفوع من طرق كثيرة صحاح " تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامّون فى رؤيته " وهو يروى على أربعة أوجه : لا تَضامُون ولا تضارُون ولا تضامُّون ولا تضارُّون؛ فمعنى " لا تضامُون " لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم فى الدنيا فى النظر إلى الملوك . و " لا تضارُون " لا يلحقكم ضير . و " لا تضامُّون " لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه . و " لا تضارّون " لا يخالف بعضكم بعضا ؛ يقال : ضارّه مُضارّة وضِرارا أى خالفـه .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ أى جىء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم . ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة

(١) فى الأصول : مباينة المحسوسات وهو تحريف .

محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » . وقيل : المراد بالشهداء الذين آستشهدوا فى سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله ؛ قاله السدى . قال ابن زيد : هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . قال الله تعالى : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها ، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتى بيانه فى « قاف »[1] . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق والعدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك فتشهد الكتب إلزاما للحجة .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة . والزُّمَر الجماعات واحدتها زُمْرة كظُلْمة وغُرْفة . وقال الأخفش وأبو عبيدة : « زُمَرًا » جماعات متفرقة بعضها إثر بعض . قال الشاعر :

وتَرى النّاسَ إلى مَنْزِلِهِ * زُمَرًا تَنْتابُه بَعْدَ زُمَرْ

وقال آخر :

حتّى آحْزَألّتْ * زُمَرٌ بعد زُمَرْ

(١) آية ٢١ من السورة المذكورة .

وقيـل : دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ جواب إذا، وهى سبعة أبواب . وقد مضى فى « الحجر »(١) . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ واحدهم خازن نحو سَدَنة وسادن، يقولون لهم تقريعا وتوبيخا . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ أى الكتب المنزلة على الأنبياء . ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ أى يخوفونكم ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ أى قد جاءتنا، وهذا آعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهى قوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم آدخلوا جهنم . وقـد مضى الكلام فى أبوابها . قال وهب : تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع فى الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(٢) تقدم بيانه .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ يعنى من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ، ممن آتقى الله تعالى وعمل بطاعته . وقال فى حق الفريقين « وَسِيقَ » بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزى والهوان ، كما يفعل بالأسارى والخارجين

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ قيل : الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف . قال المبرد : أى سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب . وأنشد(١) :

فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعةً * ولكنها نفسٌ تَساقطُ أنفسا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح . وقال الزجاج : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا » دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : الواو زائدة . قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله : « جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ » وحذف الواو فى قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم . ذكره المهدوى وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل فى أهل النار : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا » دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال فى أهل الجنة « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم . وقيل : إنها واو الثمانية وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية . قاله أبو بكر بن عياش . قال الله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ » وقال : « ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ » ثم قال فى الثامن « وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » وقال : « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ » وقال « ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا » وقد مضى القول فى هذا فى « براءة »(٢) مستوفى وفى « الكهف »(٣) أيضا .

---

(١) البيت لامرئ القيس . « وتموت جميعة » بمعنى أنه مريض فنفسه لاتخرج بمرة، ولكنها تموت شيئا بعد شىء، وهو معنى تساقط أنفسا . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وقد آستدل بهـذا من قال إن أبواب الجنة ثمـانية ؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب ، قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " ما منكم من أحد يتوضـأ فيُبْلِـغ — أو فيُسْبِـغ الوضوء (١) — ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمـانية يدخل من أيها شاء " خرجه مسلم وغيره . وقد خرج الترمذى حديث عمر هـذا وقال فيه : " فتح له من أبواب الجنة ثمـانية أبواب يوم القيامة " بزيادة مِن ، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب «التذكرة» وآنتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا ، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد فى الحديث من ذلك ، فمن أراده وقف عليه هناك . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أى فى الدنيا . قال مجاهد : بطاعة الله . وقيـل : بالعمل الصالح . حكاه النقاش والمعنى واحد . وقال مقـاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه : « سَلَامٌ عَلَيْـكُمْ » بمعنى التحية ﴿ طِبْتُمْ فَآدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

قلت : خرج البخارى حديث القنطرة هـذا فى جامعه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَخْلُص المؤمنون من النـار فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيـا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا " . وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَآدْخُلُوهَا خَالِدِينَ» وهذا يروى معناه عن علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْـدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أى إذا دخلوا الجنة

(١) يبلغ الوضوء : يوصل الوضوء إلى مواضعه ؛ فالوضوء فيه مفتوح الواو . ومعنى يسبغ الوضوء يكمله على الوجه المسنون ؛ فالوضوء فيه مضموم الواو . (هامش مسلم) .

قالوا هـذا . ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الجنة . قيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين ؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدى وأكثر المفسرين. وقيل : إنهـا أرض الدنيا على التقديم والتأخير . قوله تعـالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ قيل : هو من قولهم أى نعم الثواب هذا . وقيل : هو من قول الله تعالى ؛ أى نعم ثواب المحسنين هذا الذى أعطيتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴾ يا محمد ﴿ حَافِّينَ ﴾ . أى محدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ؛ أى يصلّون حول العرش شكرا لربهم . والحافّون أخذ من حافات الشىء ونواحيه . قال الأخفش : واحدهم حافّ . وقال الفرّاء : لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين . ودخلت « مِن » على « حول » لأنه ظرف والفعل يتعدّى إلى الظرف بحرف وبغير حرف . وقال الأخفش : « مِنْ » زائدة أى حافين حول العرش . وهو كقولك : ما جاءنى من أحد، فمن توكيد . الثعلبى : والعرب تدخل الباء أحيانا فى التسبيح وتحذفها أحيانا، فيقولون : سبح بحمد ربك وسبح حمـدا لله ؛ قال الله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » وقال : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ بين أهل الجنـة والنار . وقيل : قضى بين النبيين الذين جىء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل . ﴿ وَقِيلَ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقال قتادة فى هذه الآية : افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال : « الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلزم الاقتداء به ، والأخذ فى ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده . وقيل : إن قول «الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه . وروى من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قرأ على المنبر آخر سورة « الزمر » فتحرك المنبر مرتين .

تم تفسير ســـورة « الزمر »

تفسير سورة غافر، وهى سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول

وهى مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ » والتى بعدها. وهى خمس وثمانون آية. وقيل ثنتان وثمانون آية.

وفى مسند الدارمى قال: حدّثنا جعفر بن عون عن مِسْعر عن سعد بن إبراهيم قال: كنّ الحواميم يسمين العرائس. وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحواميم ديباج القرآن" وروى عن ابن مسعود مثله. وقال الجوهرى وأبو عبيدة: وآل حم سور فى القرآن. قال ابن مسعود آل حم ديباج القرآن. قال الفراء: إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم؛ قال الكُمَيْت:

وَجَدْنا لكم فى آلِ حَامِيمَ آيةً * تأوّلَها مِنّا تَقِيٌّ ومُعْرِبُ [(١)]

قال أبو عبيد: هكذا رواها الأموى بالزاى وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب. وقال أبو عبيدة: الحواميم سور فى القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

* وبالحواميم التى قد سُبِّعَتْ [(٢)] *

قال: والأولى أن تجمع بذوات حم. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "لكل شىء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هنّ روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحبّ أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم". وقال النبى صلى الله عليه وسلم: "مَثَل الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب" ذكرهما الثعلبى. وقال أبو عبيد: وحدّثنى حجاج بن محمد عن أبى معشر عن محمد بن قيس قال: رأى رجل سبع جوارٍ حسان مزينات فى النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم.

---

(١) الآية التى ذكرها هى قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» يقول الشاعر: من تأول هذه الآية لم يسعه إلا التشيع لآل النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم، وإبداء المودة. وتق: ساكت عنه للتقية. ويروى: تق معرّب، كمكلم أى مبين لما فى نفسه.

(٢) صدره: * وبالطواسين التى قد ثلثت *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ آختلف فى معناه؛ فقال عكرمة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حمٓ » آسم من أسماء الله تعالى وهى مفاتيح خزائن ربك" وقال آبن عباس : « حمٓ » آسم الله الأعظم. وعنه: « الٓر » و « حمٓ » و « نٓ » حروف الرحمن مقطعة . وعنه أيضا: آسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وقال قتادة : إنه آسم من أسماء القرآن . مجاهد : فواتح السور . وقال عطاء الخراسانى : الحاء آفتتاح آسمه حميدَ وحنّانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم آفتتاح آسمه ملك ومجيـدٌ ومنّانٌ ومتكبّرٌ ومصوّرٌ؛ يدل عليـه ما روى أنس أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما « حم » فإنا لا نعرفها فى لساننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بدء أسماء وفواتح سور". وقال الضحاك والكسائى : معناه قُضِى ما هو كائن . كأنه أراد الإشارة إلى تهجى « حمٓ »؛ لأنهـا تصير حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم ؛ أى قُضِى ووَقَع . قال كعب بن مالك :

فلمّا تلاقَيْنا ودارتْ بِنا الرّحَى * ولَيْسَ لِأمْرٍ حمَّـه الله مَدْفَعُ

وعنه أيضا : إن المعنى حُمَّ أمر الله أى قَرُب؛ كما قال الشاعر :

قد حُمَّ يومِى فسُـرَّ قومٌ * قومٌ بهـم غَفْـلَةٌ ونَوَمٌ

ومنه سميت الحُمَّى؛ لأنها تقرب من المنيّة . والمعنى المـراد قُرْب نصره لأوليائه ، وآنتقامه من أعدائه كيوم بدر . وقيل : حروف هجاء؛ قال الجرمى : ولهذا تقـرأ ساكنة الحروف

نخرجت مخرج التهجى، وإذا سميت سورة بشىء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأت « حَم » فتنصب؛ قال الشاعر (١):

يُذَكِّرُنى حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ * فهلّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفى: « حَمَ » بفتح الميم على معنى آقرأ حم أو لالتقاء الساكنين. آبن أبى إسحق وأبو السَّمَّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك فى « حمٓ. عٓسٓقٓ ». وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمـزة والكسائى وخلف وآبن ذكوان بالإمالة فى الحـاء. وروى عن أبى عمرو بين اللفظين وهى قراءة نافع وأبى جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مشبعا.

قوله تعـالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ آبتداء والخبر ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾. ويجوز أن يكون « تَنْزِيلُ » خبرا لمبتدإ محذوف؛ أى هذا « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ». ويجوز أن يكون « حَم » مبتدأ و « تَنْزِيلُ » خبره والمعنى: إن القرآن أنزله الله وليس منقولا ولا مما يجوز أن يكذّب به.

قوله تعـالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ قال الفراء: جعلها كالنعت للمعرفة وهى نكرة. وقال الزجاج: هى خفض على البدل. النحاس: وتحقيق الكلام فى هذا وتلخيصه أن « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » يجـوز أن يكونا معرفتين على أنهما لمـا مضى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما « شَدِيدِ الْعِقَابِ » فهو نكرة ويكون خفضه على البدل. قال آبن عباس: « غَافِرِ الذَّنْبِ » لمن قال « لا إله إلا الله » « وقَابِلِ التَّوْبِ » ممن قال « لا إله إلا الله » « شَدِيدِ الْعِقَابِ » لمن لم يقل « لا إله إلا الله ». وقال ثابت البُنَانى: كنت إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب، قال: فآستفتحت « حَم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » فمر علىّ رجل على دابة فلما قلت « غَافِرِ الذَّنْبِ » قال: قل يا غافر الذنب آغفر لى ذنبى، فلما قلت « قَابِلِ التَّوْبِ » قال:

(١) قائله شريح بن أوفى العبسى. وقيل هو للأشتر النخعى.

قل يا قابل التوب تقبل توبتى، فلما قلت «شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ» قال: قل يا شديد العقاب آعف عنى، فلما قلت «ذِى ٱلطَّوْلِ» قال: قل ياذا الطول طُلْ علىّ بخير، فقمت إليه فأُخِذَ ببصرى، فٱلتفت يمينا وشمالا فلم أر شيئا. وقال أهل الإشارة: «غَافِرِ ٱلذَّنْبِ» فضلا «وقَابِلِ ٱلتَّوْبِ» وعدا «شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ» عدلا «لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ» فردا. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه آفتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع فى هذا الشراب؛ فقال عمر لكاتبه: آكتب؛ من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. حمٓ. تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ. غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ» ثم ختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدنى الله أن يغفر لى، وحذّرنى عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته. فلما بلغ عمر أمْرُه قال: هكذا فآصنعوا إذا رأيتم أحدكم زلّ زلّة فسدّدوه وآدعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه. و «ٱلتَّوْبِ» يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم؛ ومنه قوله[(1)]:

* فيَخْبُو ساعةً ويَهُبُّ ساعا *

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة؛ قال أبو العباس: والذى يسبق إلى قلبى أن يكون مصدرا؛ أى يقبل هذا الفعل، كما تقول قال قولا، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ على البدل وعلى النعت؛ لأنه معرفة. وأصل الطول الإنعام والتفضل يقال منه: اللهم طُلْ علينا أى أنعم وتفضل. قال آبن عباس: «ذِى ٱلطَّوْلِ» ذى النعم. وقال مجاهد: ذى الغنى والسعة؛ ومنه قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا» أى غنى وسعة. وعن آبن عباس أيضا: «ذِى ٱلطَّوْلِ» ذى الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله. وقال عكرمة:

---

(1) قائله القطامى وصدره: * وكنا كالحريق أصاب غابا *

« ذِى الطَّوْلِ » ذى المنّ؛ قال الجوهرى : والطَّوْل بالفتح المنّ، يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا آمتن عليه . وقال محمد بن كعب : « ذِى الطَّوْلِ » ذى التفضل؛ قال الماوردى : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحقّ . والطَّوْل مأخوذ من الطُّول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدّة إنعامه . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سجل سبحانه على المجادلين فى آيات الله بالكفر، والمراد الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق، وإطفاء نور الله تعالى . وقد دل على ذلك فى قوله تعالى : « وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » . فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحلّ مشكلها، ومقادحة أهل العلم فى آستنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » عند قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ » مستوفى[(١)] . ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ ﴾ وقرئ « فَلَا يَغُرَّكَ » ﴿ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ أى تصرفهم ﴿ فِى الْبِلَادِ ﴾ فإنى وإن أمهلتهم لا أهملهم بل أعاقبهم . قال آبن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن . وقيل : « لَا يَغْرُرْكَ » ماهم فيه من الخير والسعة فى الرزق فإنه متاع قليل فى الدنيا . وقال الزجاج : « لَا يَغْرُرْكَ » سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك . وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن، قوله : « مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ آخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ على تأنيث الجماعة أى كذبت الرسل . ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى والأمم الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم . ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى ليحبسوه ويعذّبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ؛ كقوله : « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » . والعرب تسمى الأسير الأخيذ ؛ لأنه مأسور للقتل ؛ وأنشد قُطْرُب قول الشاعر :

فإمَّا تأخُذونى تَقْتُلونى * فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودى[1]

وفى وقت أخذهم لرسولهم قولان : أحدهما عند دعائه لهم . الثانى عند نزول العذاب بهم . ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى ليزيلوا ومنه مكان دَحْض أى مَزْلَقة ، والباطل داحض؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر . قال يحيى بن سلّام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان . ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أى بالعذاب . ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى عاقبة الأمم المكذبة ؛ أى أليس وجدوه حقا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ ﴾ أى وجبت ولزمت؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم . ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ هـذه قراءة العامة على التوحيد . وقرأ نافع وآبن عامر « كَلِمَاتُ » جمعا .

(١) فى تفسير السمين : * وكم من واحد يهوى خلودى *

﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ ﴾ قال الأخفش : أى لأنهم وبأنهم . قال الزجاج : ويجوز إنهم بكسر الهمزة . ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أى المعذَّبون بها وتم الكلام . ثم ٱبتدأ فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ويروى : أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم . ففى الحديث : " إن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حَمَلة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة ". ويقال : خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل : حول العرش سبعون ألف صفّ من الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صفّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، مامنهم أحد إلا وهو يسبّح بما لا يسبّح به الآخر . وقرأ ٱبن عباس : « الْعُرْشَ » بضم العين؛ ذكر جميعه الزمخشرى رحمه الله . وقيل : ٱتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى — والله أعلم — «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ» ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أى يسألون لهم المغفرة من الله تعالى . وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجسَّم خلقه الله عز وجل، وأمر ملائكة بحمله، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق فى الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به وٱستقباله فى الصلاة . وروى ٱبن طَهْمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام " ذكره البيهقى وقد مضى فى « البقرة »(١) فى آية الكرسى عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات . وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن كعب الأحبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقا أعظم منى ؛ فٱهتز فطوقه الله بحية، للحية

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سبعون ألف جناح، فى الجناح سبعون ألف ريشـة ، فى كل ريشـة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان . يخرج من أفواهها فى كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية به[1] . وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظُلْمة، وحجاب نور وحجاب ظُلْمة . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير . ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ أى من الشرك والمعاصى ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أى دين الإسلام . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى آصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم . قال إبراهيم النخعى: كان أصحاب عبـد الله يقولون الملائكة خير من ٱبن الكَوَّاء ؛ هم يستغفرون لمن فى الأرض وٱبن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر . قال إبراهيم : وكانوا يقولون لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهـل القبلة . وقال مطرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هـذه الآية . وقال يحيى بن معاذ الرازى لأصحابه فى هذه الآية: آفهموها فما فى العالم جنة أرجى منها؛ إن مَلَكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحَمَلة العرش يستغفرون للؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ثم قال : يا خلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : ما جنات عدن . قال : قصور من ذهب فى الجنـة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل . ﴿ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ « التى » فى محل نصب نعتا للجنات . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ « مَنْ » فى محل نصب عطفا على الهاء والميم فى قوله « وَأَدْخِلْهُمْ » . « وَمَنْ صَلَحَ » بالإيمان

(١) هذا الخبر وأشباهه من الإسرائيليات التى يحشرها أهل القصص وليس مما يصح .

﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وقد مضى فى « الرعد »[1] نظير هذه الآية . قال سعيد بن جبير : يدخل الرجل الجنة ، فيقول : يا رب أين أبى وجدّى وأمى ؟ وأين ولدى وولد ولدى ؟ وأين زوجاتى ؟ فيقال : إنهم لم يعملوا كعملك ؛ فيقول : يا رب كنت أعمل لى ولهم ؛ فيقال أدخلوهم الجنة . ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » . ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ » .

قوله تعالى : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ قال قتادة : أى وقهم ما يسوءهم ، وقيل : التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمر[2] من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر ، أى حفظه . ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى بدخول الجنة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى النجاة الكبيرة .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش : « لَمَقْتُ » هذه لام الابتداء وقعت بعد « يُنَادَوْنَ » لأن معناه يقال لهم والنداء قول . وقال غيره : المعنى يقال لهم « لَمَقْتُ اللهِ » إياكم فى الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ « أَكْبَرُ » من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة ؛ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة ، فأذعنوا عند ذلك ، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار . وقال الكلبى : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس ؛ فتقول الملائكة لهم وهم فى النار : لمقت الله

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) بل هو دعاء لأنه من الخلق إلى الخالق .

إياكم إذ أنتم فى الدنيا وقد بعثت إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن : يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون « لَمَقْتُ اللهِ » إياكم فى الدنيا « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » اليوم . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : المعنى « لَمَقْتُ اللهِ » لكم « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِن مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » إذ عاينتم النار . فإن قيل : كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم؟ ففيه وجهان : أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت . الثانى أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى ، وعلموا أن نفوسهم هى التى أوبقتهم فى المعاصى مقتوها . وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل النار لما يئسوا مما عند الخزنة وقال لهم مالك « إِنَّكُم مَّاكِثُونَ » على ما يأتى قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا ، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم ، ثم جزعوا فنادوا « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ » أى من ملجإ ؛ فقال إبليس عند ذلك : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ » إلى قوله : « مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ » يقول : بمغنٍ عنكم شيئا « إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ » فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم . قال : فنودوا « لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » إلى قوله : « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » قال فردّ عليهم « ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ذكره ابن المبارك .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ اختلف أهل التأويل فى معنى قولهم : « أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التى لا بدّ منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان ، وهو قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » . وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحياهم فى القبور للمسئلة ، ثم أميتوا ثم أحيوا فى الآخرة . وإنما صار إلى هذا ؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على

النطفة . واستدل العلماء من هـذا فى إثبات سؤال القبر ، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسـد ، وهو حىّ لنفسه لا يتطرّق إليـه موت ولا غشية ولا فناء . وقال ابن زيد فى قـوله : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ » الآية قال : خلقهـم فى ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم . وقد مضى هذا فى « البقرة »(١) . ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم . ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى هل نردّ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؛ نظـيره : « فَهَل إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ » وقوله : « فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا » وقوله : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ « ذَٰلِكُمْ » فى موضع رفع أى الأمر « ذَٰلِكُمْ » أو « ذَٰلِكُمْ » العذاب الذى أنتم فيه بكفركم . وفى الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد . وذلك لأنكم « إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ » أى وُحِّد الله « وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ » وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، و إن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله . قال الثعلبى : وسمعت بعض العلماء يقول ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تصدقوا المشرك ؛ نظيره : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » . ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد » .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى دلائل توحيده وقدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات و إنزال الرزق ؛ لأن بالآيات قـوام الأديان ، و بالرزق قـوام الأبدان . وهذه الايات هى السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهـار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا . ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أى يرجع إلى طاعة الله . ﴿فَادْعُوا اللهَ﴾ أى اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى العبادة . وقيل : الطاعة . ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره .

قوله تعـالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ « ذُو الْعَـرْشِ » على إضمار مبتدإ . قال الأخفش : ويجوز نصبه على المدح . ومعنى « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ » أى رفيع الصفات . وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع . وقال يحيي بن سلّام : هو رفعة درجة أوليائه فى الجنة فـ « رَفِيعُ » على هذا بمعنى رافع فَعِيل بمعنى فاعل . وهو على القول الأول من صفات الذات ، ومعناه الذى لا أرفع قدرا منـه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء ، وهى أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره ؛ قاله الحليمى . وقد ذكرناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله . « ذُو الْعَرْشِ » أى خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه . وقيل : هو من قولهم ثُلَّ عرشُه فلان أى زال ملكه وعزّه ، فهو سبحانه « ذُو الْعَرْشِ » بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه فى «الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» . ﴿يُلْقِى الرُّوحَ﴾ أى الوحى والنبوة « عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وسمى ذلك رُوحا لأن الناس يحيون بها ؛ أى يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح . وقال ابن زيد : الرُّوح القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . وقيل : الرُّوح جبريل ؛ قال الله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِـكَ » وقال : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » . ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى من قوله . وقيل : من قضائه . وقيل : « مِنْ » بمعنى الباء أى بأمره . ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة .

﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أى إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث . فقوله : « لِيُنذِرَ » يرجع إلى الرسول . وقيل : لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق « يَوْمَ التَّلَاقِ » . وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْقَع « لِتُنْذِرَ » بالتاء خطابا للنبي عليه السلام . « يَوْمَ التَّلَاقِ » قال ابن عباس وقتادة : يوم تلتقى أهل السماء وأهل الأرض . وقال قتادة أيضا وأبو العالية ومقاتل : يلتقى فيه الخلق والخالق . وقيل : العابدون والمعبودون . وقيل : الظالم والمظلوم . وقيل : يلقى كل إنسان جزاء عمله . وقيل : يلتقى الأولون والآخرون على صعيد واحد ؛ روى معناه عن ابن عباس . وكله صحيح المعنى . ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ يكون بدلا من يوم الأول . وقيل : « هُمْ » فى موضع رفع بالابتداء و « بَارِزُونَ » خبره والجملة فى موضع خفض بالإضافة ؛ فلذلك حذف التنوين من « يَوْمَ » وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ ؛ تقول لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ . فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ . ومعنى « بَارِزُونَ » خارجون من قبورهم لا يسترهم شىء ؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمتا على ما تقدّم فى « طه »[1] بيانه . ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ قيل : إن هذا هو العامل فى « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » أى لا يخفى عليه شىء منهم ومن أعمالهم « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » . ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ وذلك عند فناء الخلق . وقال الحسن : هو السائل تعالى وهو المجيب ؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . النحاس : وأصح ما قيل فيه مارواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يُحشَر الناسُ على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر منادٍ ينادى « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، و يقوله الكافرون غمًّا وانقيادا وخضوعا . فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد ؛ لأنه لا فائدة فيه ، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : والقول الأول ظاهر جدا؛ لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدَّعين وانتساب المنتسبين؛ إذ قد ذهب كلّ مَلِك ومُلْكه ومتكبر وملكه وانقطعت نسبهم ودعاويهم ، ودل على هـذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطىّ السماء : " أنا الملك أين ملوك الأرض " كما تقـدم فى حديث أبى هريرة وفى حديث ابن عمر ، ثم يطوى الأرض بشماله والسموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون . وعنه قوله سبحانه : «لِمَنِ المُلْكُ اليوم» هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر . قال محمـد بن كعب قوله سبحانه : « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » يكون بين النفختين حين فنى الخلق وبقى الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول : «لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ» فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » لأنه بقى وحده وقهر خلقه . وقيل : إنه ينادى منادٍ فيقول « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » فيجيبه أهل الجنة « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فالله أعلم . ذكره الزمخشرى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْـزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ ﴾ أى يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده « ٱلْيَوْمَ تُجْـزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ » من خير أو شر . ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أى لا ينقص أحد شيئا مما عمله . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أى لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحسَّاب؛ لأنه العالم الذى لا يعزب عن علمـه شىء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره ؛ وكما يرزقهم فى ساعة واحدة يحاسبهم كذلك فى ساعة واحدة . وقـد مضى هذا المعنى فى «البقرة»[(١)] . وفى الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار .

قوله تعالى : وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أى يوم القيامة . سميت بذلك؛ لأنها قريبة إذ كل ما هو آتٍ قريب . وأَزِفَ فلانٌ أى قرب يَأْزَفُ أَزَفًا؛ قال النابغة :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا * لَمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَـدِ

أى قرب . ونظير هذه الآية «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ»[1] أى قربت الساعة . وكان بعضهم يتمثل ويقول :

أَزِفَ الرَّحِيلُ وَلَيْسَ لِي مِن زَادِ * غَيْرَ الذُّنُوبِ لِشِقْوَتِي وَنَكَادِي

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى . قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس «لَدَى الْحَنَاجِرِ» فى حال كظمهم . وأجاز الفراء أن يكون التقدير «وَأَنذِرْهُمْ» «كَاظِمِينَ» وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبر للقلوب . وقال : المعنى إذ هم كاظمون . وقال الكسائى : يجوز رفع «كَاظِمِينَ» على الابتداء . وقد قيل : إن المراد بـ«يَوْمَ الْآزِفَةِ» يوم حضور المنية ؛ قاله قطرب . وكذا «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» عند حضور المنية . والأول أظهر . وقال قتادة : وقعت فى الحناجر من المخافة فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال : «وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» . وقيل : هـذا إخبار عن نهاية الجزع ؛ كما قال : «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» وأضيف اليوم إلى «الْآزِفَةِ» على تقدير يوم القيامة «الْآزِفَةِ» أو يوم المجادلة «الْآزِفَةِ» . وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشىء إلى

(١) آية ٥٧ من سورة النجم .

نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى . ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى من قريب ينفع ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم .

قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ قال المؤرّج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة . وقال ٱبن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها . وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسَّس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصره ، وقد علم الله عز وجل منه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها . وقال مجاهد : هى مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . وقال قتادة : هى الهمْزة بعينه و إغماضه فيما لا يحب الله تعالى . وقال الضحاك : هى قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى . وقال السدى : إنها الرمْز بالعين . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . وقال الفراء : « خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » النظرة الثانية « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » النظرة الأولى . وقال ٱبن عباس : «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » أى هل يزنى بها لو خلا بها أو لا . وقيل : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» تكنّه وتضمره . ولما جىء بعبد الله بن أبى سَرْح (١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما ٱطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضى الله عنه ، صَمَتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" فلما ٱنصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : " ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " فقال رجل من الأنصار فهلَّا أومأتَ إلىّ يارسول الله ؛ فقال : "إن النبى لا تكون له خائنة أعين" . ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أى يجازى من غَضَّ بصره عن المحارم ، ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك . وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهى ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وهشام «تَدْعُونَ» بالتاء . ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة . ويجوز أن تكون فى موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن .

(١) عبد الله بن أبى سرح : كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱرتد ولحق بالمشركين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة . راجع قصته فى جـ ٧ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ فى موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا» ويجوز أن يكون فى موضع نصب على أنه جواب ، والجزم والنصب فى التثنية والجمع واحد . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ آسم كان والخبر فى « كيف » . و﴿ وَاقٍ ﴾ فى موضع خفض معطوف على اللفظ . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد ؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها - وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى غير موضع[1] فأغنى عن الإعادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ وهى التسع الآيات المذكورة فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »[2] وقد مضى تعيينها . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى بحجة واضحة بينة وهو يذكر ويؤنث . وقيل : أراد بالسلطان التوراة . ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم ؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما ؛ لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وهى المعجزة الظاهرة ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان ؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب ، كالضفادع والقُمَّل والدم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر ، فأغرقهم الله . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى فى خسران وهلاك ، وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلا .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ « أَقْتُلْ » جزم ؛ لأنه جواب الأمر « وَلْيَدْعُ » جزم ؛ لأنه أمر و « ذَرُونِي » ليس بمجزوم وإن كان أمرا ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبنى . وقيل : هذا يدل على أنه قيل لفرعون : إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب ؛ فقال : « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أى لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أى عبادتكم لى إلى عبادة ربه ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر فى الأرض الفساد . أى يقع بين الناس بسببه الخلاف . وقــراءة المدنيين وأبى عبــد الرحمن السُّلَمى وابن عامر وأبى عمرو « وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » وقراءة الكوفيين « أَوْ أَنْ يَظْهَرَ » بفتح الياء « الْفَسَادُ » بالرفع وكذلك هى فى مصاحف الكوفيين . « أو » بألف وإليه يذهب أبو عبيد ؛ قال : لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل ؛ ولأن « أو » تكون بمعنى الواو . النحاس : وهــذا عند حُذّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو ؛ لأن فى ذلك بطلان المعانى ، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لمـا احتيج إلى هذا ها هنـا ؛ لأن معنى الواو « إِنِّي أَخَافُ » الأمرين جميعا ومعنى « أو » لأحد الأمرين أى « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ » فإن أعوزه ذلك أظهر فى الأرض الفساد .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لمـا هدَّده فرعونُ بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى متعظم عن الإيمان بالله ، وصفتُه أنه ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ » ذكر بعض المفسرين : أن ٱسم هذا الرجل حبيب . وقيل : شمعان بالشين المعجمة . قال السهيلى : وهو أصح ما قيل فيه . وفى تاريخ الطبرى رحمه الله : ٱسمه خبرك[1] . وقيل : حزقيل . ذكره الثعلبى عن ٱبن عباس وأكثر العلماء . الزمخشرى : وٱسمه سمعان أو حبيب . وقيل خربيل أو حزبيل . وٱختلف هل كان إسرائيليا أو قبطيا فقـال الحسن وغيره : كان قبطيا . ويقـال : إنه كان ٱبن عم فرعون ؛ قاله السدى . قال : وهو الذى نجا مع موسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » وهذا الرجل هو المراد بقوله تعـالى : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى » الآية . وهذا قول مقاتل . وقال ٱبن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير ٱمرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى فقال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

[وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقـول ربى الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم"[2]] وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم أى لا تعجب من مشركى قومك . وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون ؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء . وقيل : كان هذا الرجل من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون . عن السدى أيضا ؛ ففى الكلام على هـذا تقديم وتأخير ، والتقدير: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون . فمن جعل الرجل قبطيا

---

(١) فى هامش الطبرى حبرك . وفى نسخة جبرك . (٢) الزيادة أوردها الجمل فى حاشيته عن القرطبى .

فـ « مِن » عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل ؛ التقدير : وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون ؛ أى من أهله وأقاربه . ومن جعله إسرائيليا فـ « مِن » متعلقة بـ « يَكْتُمُ » فى موضع المفعول الثانى لـ « يَكْتُم » . القشيرى : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد ؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه . قال الله تعالى : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً » وأيضا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول .

الثانيــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ أى لأن يقول ومن أجل « أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ » فـ « أَنْ » فى موضـع نصب بنزع الخافض . ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى الآيات التسع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه فى رسالته وصدقه، ولكن تلطفا فى الاستكفاف واستنزالا عن الأذى . ولو كان و « إن يكن » بالنون جاز ولكن حذفت النـون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه ؛ ولأنهـا نون الإعراب على قول أبى العباس . ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِـدُكُمْ ﴾ أى إن لم يصبكم إلا بعض الذى يعدكم به هلكتم . ومذهب أبى عبيدة أن معنى « بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ » كل الذى يعدكم، وأنشد قول لبيد :

تَرَّاكُ أمكِنَـــةٍ إذا لم أَرْضَهـا ＊ أو يَرْتَبِطْ بَعْضَ النفوسِ حِمَامُها[1]

فبعض بمعنى كلّ ؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله فى الوعيد ، وهذا ترقيق الكلام فى الوعظ . وذكر المـاوردى : أن البعض قد يستعمل فى موضـع الكل تلطفا فى الخطاب وتوسعا فى الكلام؛ كما قال الشاعر[2] :

قَدْ يُدرِكُ المتأَنِّى بعضَ حاجتِهِ ＊ وقد يكون مَـعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضا : قال ذلك لأنه حذرهم أنواعا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذّرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع . وقيل : وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين . وقيل : أى يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا

(١) ويروى : أو يعتلق بدل يرتبط كما فى اللسان وغيره .	(٢) هو عمر القطامى .

وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب فى الآخرة أيضا . وقيل : وعدهم العذابَ إن كفروا والثواب إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ماوعدوا . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هـذا من قول المؤمن . وقيـل : « مُسْرِفٌ » فى عناده « كَذَّابٌ » فى ٱدعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ قال القاضى أبو بكر بن العـربى : ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمـانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمنا بٱعتقاده ، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه ، كما يكون مؤمنا بقلبه وكافرا بقلبه . فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك ، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه فى أصول الفقه؛ بمـا لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافرا وإن لم يتلفظ بلسانه ، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا بحال حتى يتلفظ بلسانه ، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير فى صحته من التكليف ، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله .

الرابعــة ــ روى البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ماصنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » لفظ البخارى. خرجه الترمذى الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه قال: ٱجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث، فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فأقبل هذا يجؤه[1] وهـذا يتلتله، فاستغاث النبى صلى الله عليه وسـلم يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبـل يجأ ذا ويتلتل ذا

(١) وجاه يجؤه وجأ ضربه . والتلتلة التحريك والإقلاق والزعزعة .

ويقول بأعلى صوته: ويلكم «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله» والله إنه لرسول الله، فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ . فقال علىّ : والله ليوم أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه فى كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قلت : قول علىّ رضى الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد فى أول أمره بخلاف الصدّيق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتى بيانه . فى « نوادر الأصول » أيضا عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالوا لها : ما أشدّ شىء رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قعودا فى المسجد ، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول فى آلهتهم، فبينا هم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شىء صدقهم ، فقالوا : ألست تقول كذا فى آلهتنا قال "بلى" فتشبثوا فيه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال له : أدرك صاحبك . فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئا من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام؛ إكرام إكرام .

قوله تعالى : يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفى قوله «يَا قَوْمِ» دليل على أنه قبطى؛ ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال « يَا قَوْمِ »؛ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه «لَكُمُ الْمُلْكُ» فٱشكروا الله على ذلك . ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى غالبين وهو نصب على الحال أى فى حال ظهوركم . والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره؛ كقوله : «وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» أى فى أرض مصر ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى من عذاب الله تحذيرا لهم من نقمه إن كان موسى صادقا ، فذكّر وحذّر فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ماأشير عليكم إلا ماأرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فى تكذيب موسى والإيمان بى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ ﴾ زادهم فى الوعظ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ زاد فى الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق « فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا » . وقراءة العامة «التَّنَادِ» بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبى الصّلت :

وبثّ الخلق فيها إذْ دحاها * فهُمْ سُكّانُها حتى التّنادِ

سمى بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضا؛ فينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار : « أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة : « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ » وينادى المنادى أيضا بالشقوة

والسعادة : ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وهذا عند وزن الأعمال . وتنادى الملائكة أصحاب الجنة : «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» وينادى حين يذبح الموت : يأهل الجنة خلود لا موت ويأهل النار خلود لاموت . وينادى كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء . وقرأ الحسن وابن السَّمَيْقَع ويعقوب وابن كثير ومجاهد « التَّنَادِ » بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل . وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة « يوم التَّنَادِّ » بتشديد الدال . قال بعض أهل العربية : هذا لحن ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ إذا مَرَّ على وجهه هاربا ؛ كما قال الشاعر[(١)]:

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارت مَخَافَتِي * نَوَادِيَها أَسْعَى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ

قال : فلا معنى لهذا في القيامة . قال أبو جعفر النحاس : وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندوا هربا ، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ؛ فذلك قوله : «يَوْمَ التَّنَادِّ» . وقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقوله : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » ذكره ابن المبارك بمعناه . قال : وأخبرنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثنا عبد الجبار بن عبيدالله بن سلمان فى قوله [تعالى]: « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح . قال : يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح ، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق فى الطين . وقيل : إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور نفخة الفزع . ذكره على بن معبد والطبرى وغيرهما من حديث أبى هريرة ، وفيه "فتكون الأرض كالسفينة فى البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما فى بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين

---

(١) هو طرفة . فى اللسان : نواديه أمشى . يقول : إبل باركة نيام ، ونواديها أى ماند منها . ويروى هواديها أى أوائلها . أى أثارت مخافتى نوادى هذا البرك حال مشى إليه بالسيف .

هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها و يولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى «يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» الحديث بكماله. وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هناك. وروى عن على ابن نصر عن أبى عمرو إسكان الدال من «التناد» فى الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبدالوارث زيادة الياء فى الوصل خاصة وهو مذهب ورش. والمشهور عن أبى عمرو حذفها فى الحالين. وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدم. وقيل: سمى يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادى فيه بالويل والثبور والحسرة. قاله ابن جريج. وقيل: فيه إضمار أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ فالله أعلم. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التنادِ» ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى من خلق الله فى قلبه الضلال فلا هادى له. وفى قائله قولان: أحدهما موسى. الثانى مؤمن آل فرعون وهو الأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: إن هذا من قول موسى. وقيل: هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذَكَّرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات «أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا

عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك : إن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف . وقال وهب بن منبه : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر . وغيره يقول : هو آخر . النحاس : وليس في الآية ما يدل على أنه هو ؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيٌّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعا بها وعليهم أن يصدقوه بها . ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أى أسلافكم كانوا في شك . ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أى من يدعى الرسالة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أى مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى في حججه الظاهرة ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى بغير حجة وبرهان و « الذين » في موضع نصب على البدل من « مَنْ » . وقال الزجاج : أى كذلك يضل الله الذين يجادلون في آيات الله فـ « الذين » نصب . قال : ويجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ . ثم قيل : هذا من كلام مؤمن آل فرعون . وقيل : ابتداء خطاب من الله تعالى . « مقتا » على البيان أى « كبر » جدالهم « مقتا » ؛ كقوله : « كَبُرَتْ كَلِمَةً » ومقت الله تعالى ذمّه لهم ولعنه إياهم وإحلال العذاب بهم . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أى يختم ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق . وقراءة العامة « عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ » بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو عبيد . وفي الكلام حذف والمعنى « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ » على كل « مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » فحذف « كُلّ » الثانية لتقدم ما يدل عليها . وإذا لم يقدر حذف « كلّ » لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبا قلبا . ومما يدل على حذف « كلّ » قول أبي دُؤاد (١) :

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نارًا

(١) هو جارية بن الحجاج الإيادى . وقيل اسمه حنظلة بن الشرقى ، وكان في عصر كعب بن مامة الإيادى الذي يضرب به المثل في الجود . « الشعر والشعراء لابن قتيبة » .

يريد وكلّ نارٍ . وفى قراءة ابن مسعود « عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ » فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام « قلبٍ » منون على أن « متكبرٍ » نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجملة ؛ لأن القلب هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أى على كل ذى قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخفِه عنهم ، و إن لم يصح ثبّتهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح . وقد مضى فى « القصص »[1] ذكره . ﴿ لَعَلِّى أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ ٱلسَّمَوَاتِ ﴾ « أَسْبَابَ السَّموَاتِ » بدل من الأول . وأسباب السماء أبوابها فى قول قتادة والزهرى والسدى والأخفش ؛ وأنشد :

وَمَنْ هابَ أَسْبَابَ المنايا يَنَلْنَهُ * وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[2]

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها . وقيل : الأمور التى تستمسك بها السموات . وكرر أسباب تفخيما ؛ لأن الشىء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، والله أعلم . ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه . توهم أنه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى

يدعى الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس فى مكان مشرف . وقراءة العامة « فَأَطَّلِعُ » بالرفع نسقا على قوله : « أَبْلُغُ » . وقرأ الأعرج والسُّلَمِىّ وعيسى وحفص « فَأَطَّلِعَ » بالنصب؛ قال أبو عبيدة : على جواب « لعل » بالفاء . النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب آطلعت . ومعنى الرفع « لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ » ثم لعلى أطلع بعـد ذلك؛ إلا أن ثم أشد تراخيا من الفاء . ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ أى وإنى لأظن موسى كاذبا فى آدعائه إلها دونى ، وإنمـا أفعل ما أفعل لإزاحة العلة . وهـذا يوجب شك فرعون فى أمر الله . وقيل : إن الظن بمعنى اليقين أى وأنا أتيقن أنه كاذب ، وإنمـا أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه .

قوله تعـالى : ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أى الشرك والتكذيب . ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ قراءة الكوفيين « وصُدَّ » على ما لم يسم فاعله وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم؛ ويجوز على هـذه القراءة « وِصِدّ » بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد؛ وهى قراءة يحيى بن وثاب وعلقمة . وقرأ آبن أبى إسحق وعبـد الرحمن بن بكرة « وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ » بالرفع والتنوين . الباقون « وَصَدَّ » بفتح الصاد والدال . أى صد فرعون الناس عن السبيل . ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أى فى خسران وضلال ، ومنه « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » وقوله : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » وفى موضع « غير تَخْسِيرٍ » فهـدّ الله صرحه وغرّقه هو وقومه على ما تقدّم[1] .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون ؛ أى ٱقتدوا بى فى الدين . ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أى طريق الهدى وهو الجنة . وقيل : من قول موسى . وقرأ معاذ بن جبل « الرَّشَّادِ » بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية ؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشِد ولا يكون فعّال من أفعل إنما يكون من الثلاثى ، فإن أردت التكثير من الرباعى قلت : مِفْعال . قال النحاس : يجوز أن يكون رشّاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه ، ولكن كما يقال لَأّال من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه . ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أى صاحب رشّاد ؛ كما قال :

* كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ (١) *

الزمخشرى : وقرئ « الرَّشَّادِ » فعّال من رَشِد بالكسر كعَلّام أو من رَشَد بالفتح كعبّاد . وقيل : من أرشد كجبّار من أجبر وليس بذاك ؛ لأن فعّالا من أفعل لم يجئ إلا فى عدّة أحرف : نحو دَرّاك وسَأّر وقصّار وجبّار . ولا يصح القياس على هذا القليل . ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعوّاج و بتّات (٢) غير منظور فيه إلى فعل . ووقع فى المصحف « ٱتَّبِعُونِ »

(١) البيت للنابغة الذبيانى وتمامه :

* وليل أقاسيه بطىء الكواكب *

(٢) العواج : بياع العاج ، والبتات : بياع البت وهو كساء غليظ .

بغير ياء . وقرأها يعقوب وآبن كثير بالإثبات فى الوصل والوقف . وحذفها أبو عمرو ونافع فى الوقف وأثبتوها فى الوصل ، إلا وَرْشًا حذفها فى الحالين ، وكذلك الباقون ؛ لأنها وقعت فى المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى يتمتع بها قليلا ثم تنقطع وتزول . ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى الاستقرار والخلود . ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان . بين ذلك بقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ يعنى الشرك ﴿ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو العذاب . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال آبن عباس : يعنى لا إله إلا الله . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدّق بقلبه لله وللأنبياء . ﴿ فَأُولَـٰئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وهى قراءة آبن كثير وآبن محيصن وأبى عمرو و يعقوب وأبى بكر عن عاصم يدل عليه ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ أى إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ بين أن ما قال فرعون من قوله : « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » سبيل الغىّ عاقبته النار وكانوا دعوه إلى آتباعه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهو فرعون ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ . ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ (٢) تقدّم الكلام فيه ومعناه حقّا . ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ « ما » بمعنى الذى ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ قال الزجاج : ليس له آستجابة دعوة تنفع ؛ وقال غيره : ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ . وقال الكلبي : ليس له شفاعة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وكان فرعون أوّلا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تُعبد ما كانت شابة ، فإذا هَرِمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرى لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى . ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ قال قتادة وآبن سيرين : يعنى المشركين . وقال مجاهد والشعبي : هم السّفهاء والسفاكون للدماء بغير حقّها . وقال عِكرمة : الجبّارون

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

والمتكبّرون . وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله . وهذا جامع لما ذكر . و «أنَّ» فى المواضع فى موضع نصب باسقاط حرف الجر . وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن « لا جرم » رد لكلام يجوز أن يكون موضع « أنَّ » رفعا على تقدير وجب أن ما تدعوننى إليـه ، كأنه قال وجب بطلان ما تدعوننى إليه، والمردّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ تهديد ووعيد و « ما » يجوز أن تكون بمعنى الذى أى الذى أقوله لكم . ويجوز أن تكون مصدرية أى فستذكرون قولى لكم إذا حل بكم العذاب . ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . وقيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قتله . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه . وقد قيل : القائل موسى . والأظهر أنه مؤمن آل فرعون؛ وهو قول ابن عباس .

قوله تعـالى : فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى من إلحاق أنواع العـذاب به فطلبوه فما وجدوه ؛ لأنه فوض أمره إلى الله . قال قتادة : كان قبطيا فنجاه الله مع بنى إسرائيل . فالهاء على هـذا لمؤمن آل فرعون . وقيل : إنها لموسى على ما تقدّم من الخلاف . ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ قال الكسائى : يقـال حاق يحيق حَيْقا وحُيُوقا إذا نزل ولزم . ثم بين العذاب فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وفيه ستة أوجه : يكون رفعا على البـدل من «سُوءُ» . ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء . وقال الفراء : يكون مرفوعا بالعائد على معنى النار عليها يعرضون، فهذه أربعة أوجه فى الرفع ، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعـدها عائدا وقبلها ما يتصـل به ، وأجاز الأخفش الخفض على البـدل من « الْعَذَابِ » . والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ . واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت

عذاب القبر بقوله : « النَّارُ يُعرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » ما دامت الدنيا . كذلك قال مجاهد وعِكْرِمة . ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . وفى الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشى فيقال هذه داركم . وعنه أيضا : إن أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها . وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال سمعت ميمون بن [مِهران] (١) يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادى أصبحنا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ، فإذا أمسى نادى أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار . وفى حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشى " ثم تلا « النَّارُ يُعرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » " وإن المؤمن إذا مات عُرِض رُوحُه على الجنة بالغَدَاة والعشى " وخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " . قال الفراء : فى الغداة والعشى بمقادير ذلك فى الدنيا . وهو قول مجاهد . قال : « غُدُوًّا وَعَشِيًّا » قال : من أيام الدنيا . وقال حماد بن محمد الفزارى : قال رجل للأوزاعى رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب ، بِيضا صغارا فَوْجا فَوْجا لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سودا . قال : تلك الطيور فى حواصلها أرواح آل فرعون ، يُعرَضُون على النار غدوّا وعشيا ، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سودا ، فينبت عليها من الليل رياشها بِيضا وتتناثر السود ، ثم تغدو فتعرض على النار غدوّا وعشيا ، ثم ترجع إلى وَكْرها فذلك دأبها ما كانت فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو الهاوية . قال الأوزاعى : فبلغنا أنهم

(١) فى نسخ الأصل ميمون بن ميسرة وهو تحريف ، والتصويب عن « التهذيب » .

ألفا ألف وستمائة ألف . «وَغُدُوًّا» مصدر جعل ظرفا على السعة «وَعَشِيًّا» عطف عليه وتمّ الكلام . ثم تبتدئ « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » على أن تنصب يوما بقوله : « أَدْخِلُوا » ويجوز أن يكون منصوبا بـ « يُعْرَضُونَ » على معنى « يُعْرَضُونَ » على النار فى الدنيا « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » فلا يوقف عليه . وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائى « أَدْخِلُوا » بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهى آختيار أبى عبيد؛ أى يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم، ودليله « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » . الباقون « ٱدْخُلُوا » بوصل الألف وضم الخاء من دخل أى يقال لهم « ٱدْخُلُوا » يا « آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو آختيار أبى حاتم . قال : فى القراءة الأولى « آل » مفعول أول و « أَشَدَّ » مفعول ثانٍ بحذف الجر، وفى القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف . وآل فرعون من كان على دينه وعلى مذهبه ، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه فى أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك . وروى آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن العبد يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا منهم يحيي بن زكريا ولد مؤمنا وحي مؤمنا ومات مؤمنا وإن العبد يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا منهم فرعون ولد كافرا وحيي كافرا ومات كافرا" ذكره النحاس . وجعل الفرّاء فى الآية تقديما وتأخيرا مجازه : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » فجعل العرض فى الآخرة، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من آنتظام الكلام على سياقه على ما تقدم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَـٰٓؤُا ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أى يختصمون فيها ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشرك فى الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ ﴾ أى متحملون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أى جزءا من العذاب . والتبع يكون واحدا ويكون جمعا فى قول البصريين واحده تابع . وقال أهل الكوفة : هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع لقيل أتباع . ﴿ قَالَ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى فى جهنم . قال الأخفش : « كُلٌّ » مرفوع بالابتداء . وأجاز الكسائى والفراء « إِنَّا كُلًّا فِيهَا » بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر فى « إنا » وكذلك قرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر . والكوفيون يسمون التأكيد نعتا . ومنع ذلك سيبويه ؛ قال : لأن « كُلًّا » لا تنعت ولا ينعت بها . ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره وقال معناه المبرد، قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا ؛ لأنه مخاطِب ولا يبدل من المخاطَب ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما ؛ هذا نص كلامه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره فكل منا كافر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من الأمم الكافرة . ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمع مسلم معرب ، ومن قال « الَّذِينَ » فى الرفع بناه كما كان فى الواحد مبنيا . وقال الأخفش : ضمت النون إلى الذى فأشبه خمسةَ عشرَ فبنى على الفتح . ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ خزنة جمع خازن ويقال خُزَّان وخُزَّن . ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ « يُخَفِّفْ » جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوبا ، إلا أن الأكثر فى كلام العرب فى جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال[1] :

* قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *

قال محمد بن كعب القرظى : بلغنى أو ذكر لى أن أهل النار ٱستغاثوا بالخزنة ؛ فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ » فسألوا يوما

(١) هو آمرؤ القيس والبيت من معلقته ، وتمامه :

* بسقط اللوى بين الدخول فحومل *

واحدا يخفف عنهم فيه العذابُ فردَّت عليهم ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ الخبر بطوله . وفى الحديث عن أبى الدرداء خرجه الترمذى وغيره قال : يلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغَصُّونَ به ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع فى بطونهم قطع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبوهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى خسار وتبار .

قوله تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال « رُسْلَنَا » والمراد موسى عليه السلام . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فى موضع نصب عطف على الرسل ، والمراد المؤمن الذى وعظ . وقيل : هو عام فى الرسل والمؤمنين ، ونصرهم بإعلاء الحجج و إفلاحها فى قول أبى العالية . وقيل : بالانتقام من أعدائهم . قال السدى : ما قَتَل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم ، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى يوم القيامة . قال زيد بن أسلم : « الْأَشْهَادُ » أربعة : الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد . وقال مجاهد والسدى : « الْأَشْهَادُ » الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب . وقال قتادة : الملائكة والأنبياء . ثم قيل :

« الأشهاد » جمع شهيد مثل شريف وأشراف . وقال الزجاج : « الأشهاد » جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ماجاء منه مسموعا أدى كما سمع ، وكان على حذف الزائد . وأجاز الأخفش والفراء : « وَيَوْمَ تَقُومُ الأَشْهَادُ » بالتاء على تأنيث الجماعة . وفى الحديث عن أبى الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ردّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقّا على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم " ثم تلا « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وعنه عليه السلام أنه قال: " من حَمَى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة مَلَكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشىء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال " (١) . ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم الأول . ﴿ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ نافع والكوفيون «ينفع» بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ «اللَّعْنَةُ» البعد من رحمة الله و « سُوءُ الدَّارِ » جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ هذا دخل فى نصرة الرسل فى الدنيا والآخرة أى آتيناه التوراة والنبوة . وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور ؛ وفى التنزيل : « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » . ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة جعلناه لهم ميراثا . ﴿ هُدًى ﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هدى ؛ يعنى ذلك الكتاب . ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى موعظة لأصحاب العقول .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ

(١) رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه . النحاس .

خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى فآصبر يا محمد على أذى المشركين، كما صبر مَن من قبلك «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» بنصرك وإظهارك، كما نصرت موسى وبنى إسرائيل. وقال الكلبي: نسخ هذا بآية السيف. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ قيل: لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: لذنب نفسك على من يجوّز الصغائر على الأنبياء. ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: «وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا» والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده. وقيل: فآستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يعنى صلاة الفجر وصلاة العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هى صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غُدوة وركعتان عشيّة. عن الحسن أيضا ذكره الماوردى. فيكون هذا مما نسخ والله أعلم. وقوله: «بِحَمْدِ رَبِّكَ» بالشكر له والثناء عليه. وقيل: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أى آستدم التسبيح فى الصلاة وخارجا منها لتشتغل بذلك عن آستعجال النصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ يخاصمون ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أى حجة ﴿أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ قال الزجاج: المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه. قدره على الحذف. وقال غيره: المعنى ما هم ببالغى الكبر على غير حذف؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن آتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل آرتفاعهم، ونقصت أحوالهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذى أمّلوه بالتكذيب. والمراد المشركون. وقيل: اليهود؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة.

والمعنى ؛ إن تعظموا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيرد الملك إلينا ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله [فذلك كبر لا يبلغونه][1] فنزلت الآية فيهم ؛ قاله أبو العالية وغيره . وقد تقدم فى « آل عمران »[2] أنه يخرج ويطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة . وقد ذكرنا خبره مستوفى فى كتاب « التذكرة » . وهو يهودى واسمه صاف ويكنى أبا يوسف . وقيل : كل من كفر بالنبى صلى الله عليه وسلم . وهذا أحسن ؛ لأنه يعم . وقال مجاهد : معناه فى صدورهم عظمة ما هم ببالغيها والمعنى واحد . وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير أى يطلبون النبوة أو أمرا كبيرا يصلون به إليك من القتل ونحوه . ولا يبلغون ذلك ، أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ قيل : من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت فى اليهود . وعلى القول الآخر من شر الكفار . وقيل : من مثل ما ابتلوا به من الكفر والكبر . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ « هو » يكون فاصلا ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مبتدأ وخبره . قال أبو العالية : أى أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود . وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على منكرى البعث . أى هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم اعتقدوا عجزى عنها . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أى المؤمن والكافر والضال والمهتدى . ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أى ولا يستوى العامل للصالحات ﴿ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ الذى يعمل السيئات . ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قراءة العامة بياء على الخبر واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده . وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٩ وما بعدها وص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ هذه لام التأكيد دخلت فى خبر إن وسبيلها أن تكون فى أول الكلام ؛ لأنها توكيد الجملة إلا أنها تُزحلق عن موضعها ؛ كذا قال سيبويه . تقول : إن عمرا لخارج ، وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها و بين إنّ ؛ لأنهما يؤدّيان عن معنى واحد ، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين . وأجاز هشام إنّ أنّ زيدا منطلق حقّ ؛ فإن حذفت حقّا لم يجز عند أحد من النحويين علمته ؛ قاله النحاس . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك ولا مرية . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يصدّقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصى .

قوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآية ؛ روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة . وكذا قال أكثر المفسرين

وأن المعنى وحِّدونى وآعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيل : هو الذكر والدعاء والسؤال . قال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا آنقطع" ويقال الدعاء هو ترك الذنوب . وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبيّ ، كان إذا أرسل نبيّ قيل له أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وكان يقال للنبيّ ليس عليك فى الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان يقال للنبيّ آدعنى آستجب لك ، وقال لهذه الأمة : « آدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

قلت : مثل هــذا لا يقال من جهة الرأى ، وقد جاء مرفوعا ؛ رواه ليث عن شهر بن حَوْشَب عن عُبادة بن الصامت ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أُعطيت أمتى ثلاثا لم تُعطَ إلا للأنبيـاء كان الله تعالى إذا بعث النبيّ قال آدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة « آدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وكان الله إذا بعث النبى قال ما جعل عليك فى الدين من حرج وقال لهذه الأمة « مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان الله إذا بعث النبى جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس" ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » . وكان خالد الربعى يقول : عجيب لهذه الأمة ! قيل لها : « آدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أمرهم بالدعاء ووعدهم الآستجابة وليس بينهما شرط . قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فها هنا شرط ، وقوله : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ » فليس فيه شرط العمل ، ومثل قوله : « فَآدْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فها هنا شرط ، وقوله تعالى : « آدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ليس فيه شرط . وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها فى حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك . وقد قيل : إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدّم فى « البقرة »[1] بيانه . أى « أَسْتَجِبْ لَكُمْ » إن شئت ؛ كقوله : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . وقد تكون الاستجابة فى غير عين المطلوب على حديث أبى سعيد الخدرى على ما تقدّم

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ طبعة ثانية

فى « البقرة » بيانه فتأمله هناك . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورويس عن يعقوب وعيّاش عن أبى عمرو وأبو بكر والمفضّل عن عاصم « سَيُدْخَلُونَ » بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسمّ فاعله . الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء وضم الخاء . ومعنى ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين أذلاء وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ « جَعَلَ » هنا بمعنى خلق ، والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين ؛ نحو قوله : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع (٢) . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا فى طلب معائشكم . ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله وإنعامه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بيّن الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك ؛ أى كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف عن الحق ﴿ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ زاد فى تأكيد التعريف والدليل ؛ أى جعل لكم الأرض مستقرا لكم فى حياتكم وبعد الموت . ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ تقدّم (٣) . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة . وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلى « صِوَرَكُمْ » بكسر الصاد ؛ قال الجوهرى : والصِّور بكسر الصاد لغة فى الصُّور جمع صُورة ، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أَشْبَهْنَ مِن بَقَرِ الخَلْصاءِ أَعْيُنَها * وهُنَّ أَحْسَنُ مِن صِيرانِها صِوَرا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١١ وجـ ١٣ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

[والصِّيران جمع صُوَار وهو القطيع من البقر والصِّوار أيضا وعاء المسك[1]] وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصّوار ذكرتُ ليلى * وأذكرها إذا نفح الصّوار

والصِّيار لغة فيه . ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقدّم[2] . ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ أى الباقى الذى لا يموت ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة والعبادة . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر أى ادعوه واحمدوه . وقد مضى هذا كله مستوفى فى « البقرة[3] » وغيرها . وقال ابن عباس : من قال « لا إله إلا الله » فليقل « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أى قل يا محمد نهانى الله الذى هو الحى القيوم ولا إله غيره ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ غيره . ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾ أى دلائل توحيده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أذل وأخضع ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه ، فأمر أن يقول هذا .

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى لا يتم الكلام إلا بها .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ طبعة أولى أو ثانية . وجـ ١ ص ١٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) مضى هذا الكلام للصنف فى تفسير الفاتحة جـ ١ ص ١٣٦ فليراجع هناك لا فى البقرة ولعل ما فى الأصل تحريف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أى أطفالا . وقد تقدّم هذا (١) . ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وهى حالة آجتماع القوّة وتمام العقل . وقد مضى فى « الأنعام (٢) » بيانه . ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ بضم الشين قراءة نافع وآبن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل ؛ لأنه جمع فَعْل ، نحو . قَلْب وقُلُوب ورأس ورءوس . وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة ، وفى العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة فى الياء ثقيلة . وقرئ « شَيْخًا » على التوحيد ؛ كقوله « طِفْلًا » والمعنى كل واحد منكم ؛ وآقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس . وفى الصحاح : جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيخة وشِيخان ومَشْيخة ومَشَايخ ومَشْيوخاء والمرأة شَيخة . قال عَبِيد (٣) :

* كأنّها شَيْخةٌ رَقُوبُ (٤) *

وقد شاخ الرجُل يَشيخ شَيَخا بالتحريك على أصله وشَيْخوخة ، وأصل الياء متحركة فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فعْلول . وشَيَّخ تَشْييخا أى شاخ . [وشَيَّختهُ (٥)] دعوته شيخا للتبجيل . وتصغير الشيخ شُيَيخ وشِيَيخ أيضا بكسر الشين ولا تقل شُوَيخ . النحاس : وإن آضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن فى عين ؛ لأنها مؤنثة . والشيخ من جاوز أربعين سنة . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ قال مجاهد : أى من قبل أن يكون شيخا ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سِقطا . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ قال مجاهد : الموت للكل . واللام لام العاقبة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو عبيد بن الأبرص .

(٤) الرقوب : التى ترقب ولدها خوف أن يموت . والبيت فى وصف فرسه ؛ وتمامه :

* باتت على أرم عذوبا *

(٥) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زاد فى التنبيه أى هو الذى يقدر على الإحياء والإماتة . ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أى أراد فعله قال ﴿ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ونصب « فيكون » ابن عامر على جواب الأمر . وقد مضى فى « البقرة »(١) القول فيه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ . وقال أكثر المفسرين : نزلت فى القدرية . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت فى القدرية

(١) راجع ج ٢ ص ٨٧ طبعة ثانية .

فلا أدرى فيمن نزلت . قال أبو قبيل : لا أحسب المكذّبين بالقَدَر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا . وقال عقبة بن عامر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نزلت هذه الآية فى القَدَرية" ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم . قال التيمى : لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وضع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود . ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفا على الأغلال . قال أبو حاتم : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ مستأنف على هذه القراءة . وقال غيره : هو فى موضع نصب على الحال ، والتقدير « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » مسحوبين . وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود « والسلاسلَ » بالنصب "يَسْحَبُونَ" بفتح الياء والتقدير فى هذه القراءة ويسحبون السلاسل . قال ابن عباس : إذا كانوا يجرونها فهو أشد عليهم . وحكى عن بعضهم « وَالسَّلَاسِلِ » بالجر ووجهه أنه محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أعناقهم فى الأغلال والسلاسلِ ؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : ومن قرأ « والسلاسِلِ يُسْحَبُونَ » بالخفض فالمعنى عنده وفى « السلاسِلِ يُسْحَبُونَ » . قال ابن الأنبارى : والخفض على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت زيد فى الدار لم يحسن أن تضمر «فى» فتقول زيد الدارِ، ولكن الخفض جائز على معنى إذ أعناقهم فى الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال ؛ لأن الأغلال فى تأويل الخفض ؛ كما تقول: خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين . ويجوز رفعهما؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه؛ أنشد الفراء :

قد سَالَمَ الحَيَّاتِ مِنه القَدَما * الأُفْعُوَانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما[1]

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم . فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها . و « الحميم » المتناهى فى الحر . وقيل : الصديد المغلى . ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ

(١) الشجعم : الضخم من الحيات .

يُسْجَرُونَ ﴾ أى يطرحون فيها فيكونون وقودا لها ؛ قاله مجاهد . يقال : سجرت التنور أى أوقدته، وسجرته ملأته ومنه « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » أى المملوء. فالمعنى على هذا تملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وعلا :

إذا شاءَ طَالَعَ مَسْجُورةً * تَرى حَوْلَهَا النَّبعَ والسَّمْسَما

أى عينا مملوءة . ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى هلكوا وذهبوا عنا وتركونا فى العـذاب ؛ من ضلّ الماءُ فى اللبن أى خفى . وقيـل : أى صاروا بحيث لا نجدهم . ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أى شيئا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع . وليس هـذا إنكارا لعبادة الأصنام، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى ذلكم العذاب ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ بالمعاصى يقال لهم ذلك توبيخا . أى إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة . وقيـل إن فرحهم بما عندهم أنهم قالوا للرسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذّب . وكذا قال مجاهد فى قوله جل وعز: « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » . ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أى تبطرون وتأشرون . وقد مضى فى « سبحان »[1] بيانه . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العـدوان . وروى خالد عن ثور عن معاذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لَحِمِين[2] ويبغض كل حبر سمين" فأما أهـل بيت لَحِمِين فالذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة . وأما الحبر السمين فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه الناس؛ يعنى المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس . ذكره الماوردى . وقد قيل فى

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠ طبعة أولى أو ثانيـة . (٢) الحـديث فى النهاية " إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين " .

اللَّحِمين : أنهم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ ومنه قول عمر : ٱتقوا هذه المجازر فإنّ لها ضَراوة (١) كضَراوة الخمر . ذكره المهدوى . والأول قول سفيان الثورى . ﴿ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك اليوم ، وقد قال الله تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ » . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تقدم جميعه (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ هذا تسلية للنبي عليه السلام ؛ أى إنا لننتقم لك منهم إما فى حياتك أو فى الآخرة . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ فى موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبنى الفعل على الفتح . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف عليه ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ الجواب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ عزّاه أيضا بما لقيت الرسل من قبله . ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ أى من قبل نفسه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أى إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم، ولمن فى أصلابهم من المؤمنين . وقيل : أشار بهذا إلى القتل ببدر . ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى الذين يتبعون الباطل والشرك .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فٱحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن

(١) الضراوة فى قول عمر العادة فى النفس الطلابة لأكل اللحم ، وهى حال ناشئة عن الأعتياد .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

الله عز وجل قال فى الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وقال فى الخيل : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا » ولم يذكر إباحة أكلها . وقد مضى هذا فى « النحل » (١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ فى الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أى تحمل الأثقال والأسفار . وقد مضى فى « النحل » (٢) بيان هذا كله فلا معنى لإعادته . ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعنى الأنعام فى البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ فى البحر ﴿ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر . ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ﴾ نصب « أيا » بـ « تُنْكِرُونَ » ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله ، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار فى « أىّ » الرفع ، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب ؛ أى إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع ؛ يقال : دلوت بفلان إليك أى استشفعت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

به إليك . وعلى هذا « ما » للجحد أى فلم يغن عنهم ذلك شيئا . وقيل : « ما » للاستفهام أى أىّ شىء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا . ولم ينصرف « أَكْثَرَ » ؛ لأنه على وزن أفعل . وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل مِن كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه فى شعر ولا غيره إذا كانت معه مِن . قال أبو العباس : ولو كانت مِن المانعة من صرفه لوجب ألا يقال : مررت بخير منك وشر [منك و](١) من عمرو .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ فى معناه ثلاثة أقوال . قال مجاهد : إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . وقيل : الذين فرحوا الرسل لما كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين فـ « فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » بنجاة المؤمنين ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى بالكفار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى عاينوا العذاب . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى بالأوثان التى أشركناهم فى العبادة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ ﴾ بالله عند معاينة العذاب وحين رأوا البأس . ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سَنّ يسنّ سنّا وسُنّة ؛ أى سنّ الله عز وجل فى الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب . وقد مضى هذا مبينا فى « النساء »(٢) و « يونس »(٣) وأن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضرورى . وقيل : أى احذروا يأهل مكة سنّة الله فى إهلاك الكفرة فـ « سنّة الله » منصوب على التحذير والإغراء . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بيّن لنا الخسران لما رأوا العذاب . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى « لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » كسنّتنا فى جميع الكافرين فـ « سنّةَ » نصب بنزع الخافض أى كسنّة الله فى الأمم كلها . والله أعلم . تم تفسير سورة « غافر » والحمد لله .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

سورة فصلت مكية فى قول الجميع

وهى أربع وخمسون، وقيل : ثلاث وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الزجاج : « تَنْزِيلٌ » رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين . وقال الفراء : يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا . ويجوز أن يقال « كِتَابٌ » بدل من قوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : نعت لقوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : « حم » أى هذه « حم » كما تقول باب كذا أى هو باب كذا ف « حم » خبر ابتداء مضمر أى هو « حم » وقوله « تَنْزِيلٌ » مبتدأ آخر وقوله « كِتَابٌ » خبره . « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بينت وفسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته . الحسن : بالوعد والوعيد . سفيان : بالثواب والعقاب . وقرئ « فَصَلَتْ » أى فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك فصل أى تباعد من البلد . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فى نصبه وجوه ؛ قال الأخفش : هو نصب على المدح . وقيل : على إضمار فعل أى أذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على إعادة الفعل أى فصلنا « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على الحال أى « فُصِّلَتْ آياته » فى حال كونه « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : لما شغل « فُصِّلَتْ » بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب « قُرْآنًا » لوقوع البيان عليه . وقيل : على القطع . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك : أى إن

القرآن منزل من عند الله . وقال مجاهد : أى يعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل .
وقيل : يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربى" لما علموه .

قلت : هذا أصح والسورة نزلت تقريعا وتوبيخا لقريش فى إعجاز القرآن . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ حالان من الآيات والعامل فيه « فصلت » . وقيل : هما نعتان للقرآن « بَشِيرًا » لأولياء الله « نَذِيرًا » لأعدائه . وقرئ « بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » صفة للكتاب . أو خبر مبتدإ محذوف . ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعنى أهل مكة ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماعا ينتفعون به . وروى أن الريان بن حرملة قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل قد ٱلتبس علينا أمر محمد ، فلو ٱلتمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ؛ فقال عتبة ابن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى على إن كان كذلك . فقالوا : إيته فحدّثه . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصى" بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك . والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : " قد فرغت يا أبا الوليد " قال : نعم . [قال فٱسمع منى [1]] قال يا بن أخى أسمع [قال] « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم . حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » إلى قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي صلى الله عليه وسلم ، وناشده الله والرحم ليسكتن ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل ؛ فقال :

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام .

أصبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبكَ طعامه ؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، ثم قال : والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله : «مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» وأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ؛ يعنى الصاعقة . وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد له عن محمد بن كعب القرظى، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ «حمٓ . فُصِّلَتْ» حتى آنتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغٍ يستمع ، قد آعتمد على يديه من وراء ظهره . فلما قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة قال له : "يا أبا الوليد قد سمعتَ الذى قرأتُ عليك فأنت وذاك" فآنصرف عتبة إلى قريش فى ناديها فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم . ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى ؛ خلّوا محمدا وشأنه وآعتزلوه، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدى غيركم، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ؛ لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمد يا أبا الوليد . وقال : هذا رأيى لكم فآصنعوا ما شئتم .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ الأكنة جمع كِنانٍ وهو الغطاء . وقد مضى فى «البقرة»[1] . قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل . ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى صمم ؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا، وقلوبنا مستورة عن فهمه . ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أى خلاف فى الدين ؛ لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل . قال معناه الفراء وغيره . وقيل : ستر مانع عن الإجابة . وقيل : إن أبا جهل آستغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا و بينك حجاب . آستهزاء منه . حكاه النقاش وذكره القشيرى . فالحجاب هنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

الثوب . ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أى آعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك ؛ قاله الكلبى .
وقال مقاتل : آعمل لإلهك الذى أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها . وقيل : آعمل بما يقتضيه دينك ، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا . ويحتمل خامسا[1] : فآعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أى لست بملك بل أنا من بنى آدم . قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع . ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى من السماء على أيدى الملائكة ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ فَـ ﴾ آمنوا به و﴿ اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أى وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسئلة إليه ، كما يقول الرجل : آستقم إلى منزلك ؛ أى لا تعرج على شىء غير القصد إلى منزلك . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى من شرككم . ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قال آبن عباس : لا يشهدون « أن لا إله إلا الله » وهى زكاة الأنفس . وقال قتادة : لا يقرون بالزكاة أنها واجبة . وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة . قرّعهم بالشح الذى يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه . وقال الفراء وغيره : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ويطعمونهم ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهم هذه الآية . ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلهذا لا ينفقون فى الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون .

(١) لم يذكر المصنف إلا أربعة أقوال ولعل الخامس ما ذكره الكشاف : « فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك » .

الزمخشرى : فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟ قلت : لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته [واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته][1] ألا ترى إلى قوله عز وجل: « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى يثبتون أنفسهم ، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة[2] من الدنيا ، فقويت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ؛ وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير مقطوع؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته ؛ ومنه قول ذى الإصبع :

إِنِّى لَعَمْرُكَ ما بابى بِذِى غَلَقٍ * على الصَّدِيقِ ولا خَيْرِى بِمَمْنُونِ[3]

وقال آخر :

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ * ـعِ مَنِينًا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

يعنى بالمنين الغبار المنقطع الضعيف . وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : غير منقوص . ومنه المنون؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسان أى قوته ؛ وقاله قطرب؛ وأنشد قول زهير :

فَضْلَ الجِيادِ على الخَيلِ البِطاءِ فَلَا * يُعْطِى بِذلكَ مَمْنُونًا ولا نَزِقَا[4]

قال الجوهرى : والمنّ القطع ، ويقال النقص؛ ومنه قوله تعالى : «لهم أجر غير ممنون» . وقال لبيد :

* غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا *[5]

(١) الزيادة من تفسير الزمخشرى . (٢) اللماظة فى اللغة : النكتة من بياض أو سواد ، والمراد بها هنا الشىء اليسير من حطام الدنيا . (٣) ويروى : ولا زادى بممنون . (٤) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . (٥) صدر البيت : * لمعفر قهد تنازع شلوه *

وقد وقع هذا البيت غلطا فى بعض نسخ الجوهرى فراجع تحقيقه فى اللسان مادة « من » .

وقال مجاهد : « غَيْرُ مَمْنُونٍ » غير محسوب . وقيل : « غَيْرُ مَمْنُونٍ » عليهم به . قال السدى : نزلت فى الزَّمْنَى والمَرْضَى والهَرْمَى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه .

قوله تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ « أَئِنَّكُمْ » بهمزتين الثانية بين بين و « أَاَئِنَّكُمْ » بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ . أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم ، أى لم تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض ؟! « فِى يَوْمَيْنِ » الأحد والاثنين . ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أى أضدادا وشركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أى فى الأرض ﴿رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعنى الجبال . قال وهب : لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء ، فقال لجبريل : ثبِّتها يا جبريل . فنزل فأمسكها فغلبته الرياح ، قال : يا رب أنت أعلم لقد غُلبت فيها فثبتها بالجبال وأرساها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع . قال السدى : أنبت فيها شجرها . ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها فى يوم الثلاثاء والأربعاء . وقال عكرمة والضحاك : معنى « قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا » أى أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من

التجارات والأشجار والمنافع فى كل بلدة ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش، بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد . قال عكرمة : حتى إنه فى بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مِثْلاً بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابرى من سابور والطيالسة من الرى والحِبَر اليمانية من اليمن .
﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعنى فى تتمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام و إلى الكوفة فى خمسة عشر يوما ؛ أى فى تتمة خمسة عشر يوما . قال معناه ابن الأنبارى وغيره . ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى ؛ وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . واختاره الطبرى . وقرأ الحسن البصرى و يعقوب الحضرمى « سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ » بالجر . وعن ابن القعقاع « سَوَاءٌ » بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و « سَوَاءً » بمعنى استواء أى استوت استواء . وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أى « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » مستوية تامة . والرفع على الابتداء والخبر « لِلسَّائِلِينَ » أو على تقدير هذه « سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ » . وقال أهل المعانى : معنى « سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » ولغير السائلين أى خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ؛ ويعطى من سأل ومن لا يسأل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها . والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال ؛ يدل عليه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » وقد مضى القول هناك[1] . وروى أبو صالح عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » يعنى صعد أمره إلى السماء ؛ وقاله الحسن . ومن قال : إنه صفة ذاتية زائدة قال استوى فى الأزل بصفاته . و « ثُمَّ » ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس؛ على ما مضى فى «البقرة» عن ابن مسعود وغيره . ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلق . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقِّي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . وفي الكلام حذف أي أتينا أمرك « طَائِعِينَ » . وقيل : معنى هذا الأمر التسخير ؛ أي كونا فكانتا كما قال تعالى : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما . وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما . وهو قول الجمهور . وفي قوله تعالى لهما وجهان ؛ أحدهما أنه قول تكلم به . الثاني أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد ؛ ذكره الماوردي . ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فيه أيضا وجهان ؛ أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ؛ ومنه قول الراجز :

امْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْنِي * مَهْلاً رُوَيْدا قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

يعني ظهر ذلك فيه . وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى ؛ قال أبو نصر السكسكي : فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحيالها ، فوضع الله تعالى فيه حرمه . وقال : « طَائِعِينَ » ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى ؛ لأنهما سموات وأرضون ؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما . وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل ، ومثله « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » وقد تقدم[1] . وفي حديث : إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما « ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ قال : كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما . قال : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : في مرج من مروجي . قال : يا رب وأين ذلك المرج؟ قال : علم من علمي . ذكره الثعلبي . وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة « آتِيَا » بالمد والفتح . وكذلك قوله : « آتَيْنَا طَائِعِينَ » على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما « قَالَتَا » أعطينا « طَائِعِينَ » فحذف المفعولين جميعا . ويجوز وهو أحسن أن يكون « آتَيْنَا » فاعلنا فحذف مفعول واحد . ومن قرأ « أَتَيْنَا » فالمعنى جئنا بما فينا ؛ على ما تقدم بيانه في غير ما موضع والحمد لله .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ وجـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أكملهنّ وفرغ منهنّ . وقيل : أحكمهنّ كما قال[(١)] :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوابغ تبّع

﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ كما قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » على ما تقدّم فى « الأعراف[(٢)] » بيانه . قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون . وعن عبد الله بن سَلَام قال : خلق الله الأرض فى يومين ، وقدّر فيها أقواتها فى يومين ، وخلق السموات فى يومين ؛ خلق الأرض فى يوم الأحد والاثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وآخر ساعة فى يوم الجمعة خلق الله آدم فى عجل ، وهى التى تقوم فيها الساعة ، وما خلق الله من دابة إلا وهى تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن . على هذا أهل التفسير ؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : " خلق الله التُّرْبة يوم السبت " الحديث وقد تكلمنا على إسناده فى أوّل سورة « الأنعام[(٣)] » . ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وخلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج . وهو قول ابن عباس ؛ قال : ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذى فى السماء الدنيا هو البيت المعمور . وقيل : أوحى الله فى كل سماء ؛ أى أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها . والإيحاء قد يكون أمرا ؛ لقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » أى أمرتهم وهو أمر تكوين . ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أى بكواكب تضىء . وقيل : إن فى كل سماء كواكب تضىء . وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا . ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أى وحفظناها حفظا ؛ أى من الشياطين الذين يسترقون السمع . وهذا

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . والصنع بفتحتين الحاذق .　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

الحفظ بالكواكب التى ترجم بها الشياطين على ما تقدّم فى « الحجر » [١] بيانه . وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء . وقال فى آية أخرى : « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا » ثم قال : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » وهذا يدل على خلق السماء أوّلا . وقال قوم : خلقت الأرض قبل السماء ؛ فأما قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » فالدحو غير الخلق ، فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أى مدّها و بسطها ؛ قاله آبن عباس . وقد مضى هذا المعنى مجودا فى « البقرة » [٢] والحمد لله . ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعنى كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان . ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أى خوفتكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود . ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعنى من أرسل إليهم و إلى من قبلهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ موضع « أَنْ » نصب بإسقاط الخافض أى بـ « أَلَّا تَعْبُدُوا » و ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ بدل الرسل ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل : هذا آستهزاء منهم . وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدّدهم بالعذاب ، وقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوّتنا . وذلك أنهم كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم . وقد مضى فى « الأعراف »(١) عن ابن عباس : أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعا . فقال الله تعالى ردا عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة ، وإنما يقدر العبد بإقدار الله فالله أقدر إذا . ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى بمعجزاتنا يكفرون .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ هذا تفسير الصاعقة التى أرسلها عليهم ، أى ريحا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب . ويقال : أصلها صَرَّر من الصِّر [وهو البَرْد](٢) فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل ؛ كقولهم كَبْكَبوا أصله كَبَّبوا وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفّف . أبو عبيدة : معنى صَرْصَر شديدة عاصفة . عكرمة وسعيد بن جبير : شديدة البرد . وأنشد قطرب قول الحطيئة :

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ * والحاملون إذا آستُودُوا على النّاسِ

آستودوا إذا سئلوا الدية . مجاهد : الشديدة السموم . وروى معمر عن قتادة قال : باردة . وقاله عطاء ؛ لأن « صَرْصَرًا » مأخوذ من صرّ والصرّ فى كلام العرب البرد كما قال(٣) :

لها عُذَرٌ كقُرونِ النِّسا * ءِ رُكِّبْنَ فى يومِ ريحٍ وصِرْ

وقال السدى : الشديدة الصّوت . ومنه صَرَّ القلمُ والباب يَصِرّ صريرا أى صَوَّت . ويقال : درهم صَرِّىٌّ وصِرِّىٌّ للذى له صوت إذا نُقِد . قال ابن السِّكّيت : صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر وهو البرد ، ويجوز أن يكون من صَرير الباب ، ومن الصَّرَّة وهى الصيحة ومنه « فَأَقْبَلَتِ آمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ » . وصَرْصَر آسم نهر بالعراق . ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ أى مشئومات ؛

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من اللسان عن ابن السكيت لأن هذا الكلام له . (٣) هو امرؤ القيس يصف فرسه .

قاله مجاهد وقتادة . كنّ آخر شوّال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّام حُسُومًا » قال ٱبن عباس : ما عُذِّب قوم إلا فى يوم الأربعاء . وقيل : « نَحِسَاتٍ » باردات ؛ حكاه النقاش . وقيل : متتابعات ؛ عن ٱبن عباس وعطية . الضحاك : شِداد . وقيل : ذات غبار ؛ حكاه ٱبن عيسى . ومنه قول الراجز :

قَدِ اغْتَدِى قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ * لِلصَّيْدِ فى يَوْمٍ قَليلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره : أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، ودرّت الرياح عليهم فى غير مطر ، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد ، وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه ، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى ، مختلفة أديانهم ، وكلهم مُعَظِّم لمكة ، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى . وقال جابر بن عبد الله والتيمى : إذا أراد الله بقوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، و إذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح . وقرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو « نَحْسَاتٍ » بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذى هو مصدر وصف به . الباقون « نَحِسَاتٍ » بكسر الحاء أى ذوات نحس . ومما يدل على أن النحس مصدر قوله : « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه ؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته ؛ وٱختاره أبو حاتم . وٱختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال : لا تصح حجة أبى عمرو ؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن ، و إنما كان يكون حجة لو نوّن اليوم ونعت وأسكن ؛ فقال : « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه . وقال المهدوى : ولم يسمع فى « نَحْسٍ » إلا الإسكان . قال الجوهرى : وقرئ فى قوله : « فِي يَوْمٍ نَحِسٍ » على الصفة ، والإضافة أكثر وأجود . وقد نَحِس الشىءُ بالكسر فهو نَحِس أيضا ؛ قال الشاعر :

أبلغ جذاما ولخما أنّ إخوتهم * طيا وبهراء قوم نصرهم نَحِس

ومنه قيل : أيام نَحِساتٍ . ﴿ لِنُذِيقَهُمْ ﴾ أى لكى نذيقهم ﴿ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالريح العقيم . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ أى أعظم وأشدّ ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أى بينا لهم الهدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره. وقرأ الحسن وابن أبي إسحق وغيرهما « وَأَمَّا ثَمُودَ » بالنصب وقد مضى الكلام فيه في «الأعراف»(١) . ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أى اختاروا الكفر على الإيمان . وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان . السدى : اختاروا المعصية على الطاعة. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ « الهونِ » بالضم الهوان . وهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر أخو كنانة وأسد . وأهانه استخفّ به . والاسم الهوان والمهانة. وأضيف الصاعقة إلى العذاب؛لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك،فكأنه قال مهلك العذاب؛أى العذاب المهلك. والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر؛ فكأنه قال : صاعقة الهون . وهو كقولك : عندى علم اليقين، وعندى العلم اليقين . ويجوز أن يكون الهون اسما مثل الدون ؛ يقال : عذاب هون أى مُهين ؛ كما قال : « مَالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ » . وقيل : أى صاعقة العذاب ذى الهون . ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة، على ما تقدّم. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى صالحا ومن آمن به؛ أى ميزناهم عن الكفار، فلم يحلّ بهم ما حلّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمنى قومك وكفارهم.

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قرأ نافع « نَحْشُرُ » بالنون « أَعْدَاءَ » بالنصب . الباقون « يُحْشَرُ » بياء مضمومة « أَعْدَاءُ » بالرفع ومعناهما بيّن . وأعداء الله الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره . « فَهُمْ يُوزَعُونَ » يساقون ويدفعون إلى جهنم . قال قتادة والسدى : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ؛ قال أبو الأحوص : فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما . وقد مضى فى « النمل »(١) الكلام فى « يُوزَعُونَ » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ « ما » زائدة ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الجلود يعنى بها الجلود بأعيانها فى قول أكثر المفسرين . وقال السدى وعبيد الله بن أبى جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج ؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جؤية(٢) :

المرءُ يسعى للسلا * مةِ والسلامةُ حسبه

أو سالم من قد تثـ * نّى جلده وآبيضّ رأسُه

وقال : جلده كناية عن فرجه . ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى الكفار ﴿ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل . ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا ، فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء . وقيل : « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ابتداء كلام من الله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : " هل تدرون مِمّ أضحك " قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : " من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيُختم على فيه فيقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله قال ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام قال فيقول بعدًا لكنّ وسُحقا فعنكنّ كنت أناضل " وفى حديث أبى هريرة ثم يقال : " الآن نبعث شاهدنا

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٦٧ وما بعدها طبعة أولى وثانية .

(٢) كذا فى الأصول ، ولم نعثر على هذين البيتين .

عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علىّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه][1] انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه[2] وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه " خرجه أيضا مسلم .

قوله تعالى : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ؛ ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ؛ قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي ؛ قليلٌ فقهُ قلوبهم كثيرٌ شحمُ بطونهم ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ؛ وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله عز وجل : " وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ " الآية ؛ خرجه الترمذي فقال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر . ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال : حديث حسن صحيح ؛ حدثنا هناد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عِمارة ابن عُمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال قال عبد الله : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) ليعذر من نفسه : على بناء الفاعل من الإعذار ؛ والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه ، ولشهادة أعضائه عليه ، بحيث لم يبق له عذر . (هامش مسلم) .

نفرٌ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبِهم قرشيٌّ وختَناه ثقفيان، أو ثقفيٌّ وختَناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه ؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ، فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله ؛ فقال عبد الله : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » إلى قوله : « فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الثعلبي : والثقفيّ عبدُ يَالِيل وختَناه ربيعة وصفوان بن أمية . ومعنى « تَسْتَتِرُونَ » تستخفون في قول أكثر العلماء ؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم ؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفى من نفسه عمله ، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية . وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ » أي تظنون «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ» بأن يقول سمعت الحقّ وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي « وَلَا أَبْصَارُكُمْ » فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجوز « وَلَا جُلُودُكُمْ » تقدّم . ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من أعمالكم بجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم . روى بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » قال : " إنكم تُدعون يوم القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفِدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذه وكفه " قال عبد الله بن عبد الأعلى[1] الشامي فأحسن :

العمرُ ينقصُ والذنوبُ تزيدُ * وتُقالُ عثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطيعُ جُحودَ ذنبٍ واحدٍ * رجلٌ جوارحُه عليه شهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيه فيشتهي * تقليلَها وعنِ المماتِ يحيدُ

(١) كذا في الأصول وفي كتاب « أدب الدنيا والدين » : عبد الأعلى بن عبد الله الشامي .

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من يوم يأتى على آبن آدم إلا ينادى فيه يابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل فى خيرا أشهد لك به غدا فإنى لو قد مضيت لم ترنى أبدا ويقول الليل مثل ذلك " ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » فى باب شهادة الأرض والليالى والأيام والمال . وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أمسُك الأدْنى شهيدا معدَّلا * ويومُك هـذا بالفِعالِ شهيـدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ آقترفتَ إساءةً * فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميـدُ

ولا تُرْجِ فِعلَ الخيرِ مِنك إلى غدٍ * لعلّ غـدًا يأتى وأنتَ فقيـدُ

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أى أهلككم فأوردكم النار . قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما أساءوا الظن بربهم فأهلكهم " فذلك قوله : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وقال قتادة : من آستطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن آثنان ظنّ ينجى وظنّ يردى . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصى ولا يتوبون منها ويتكلون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى فإن يصبروا فى الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم . نظيره « فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »(١) على ما تقدم . ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ فى الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ . وقيل : المعنى « فَإِنْ يَصْبِرُوا »

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٣٦ طبعة ثانية .

فى النار أو يجزعوا « فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا »؛ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة :

فإنْ أَكُ مَظْلُومًا فعبدٌ ظَلَمْتَهُ * وإنْ تكُ ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتِبُ

أى مثلك مَن قبِل الصلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة . تقول : عاتبته معاتبة ، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها . يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . وأعتبنى فلان إذا عاد إلى مَسرَّتى راجعا عن الإساءة، والاسم منه العُتْبَى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . واستعتب وأعتب بمعنى ، واستعتب أيضا طلب أن يُعتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبنى أى استرضيته فأرضانى. فمعنى « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا » أى طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار . وفى التفاسير : وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين . وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية « وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا » بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ » بكسر التاء أى إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم فى علم الله من الشقاء ، قال الله تعالى: « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» ذكره الهروى . وقال ثعلب : يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضى .

قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ قال النقاش: أى هيأنا لهم شياطين . وقيل : سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصى ، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا؛ أى سببنا لهم قرناء؛ يقال : قيض الله فلانا لفلان أى جاءه به وأتاحه له ، ومنه قوله تعالى: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ» . القشيرى : ويقال قيض الله لى رزقا أى أتاحه كما كنت أطلبه، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة ، قايضت الرجل مقايضة أى عاوضته بمتاع ، وهما قيِّضان كما تقول بيِّعان . ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا فحسّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ حسّنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ؛ عن مجاهد . وقيل : المعنى « قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » فى النار «فَزَيَّنُوا لَهُمْ» أعمالهم فى الدنيا؛ والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم . وقيل : المعنى أحوجناهم إلى الأقران؛ أى أحوجنا

الفقير إلى الغنى لينال منه، والغنى إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصى . وليس قوله : « وَمَا خَلْفَهُمْ » عطفا على « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار . قال ابن عباس : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » تكذيبهم بأمور الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » التسويف والترغيب فى الدنيا . الزجاج : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ما عملوه « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما عزموا على أن يعملوه . وقد تقدّم قول مجاهد . وقيل : المعنى لهم مثل ما تقدّم من المعاصى « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما يعمل بعدهم . ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ﴾ أى وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم . وقيل : « فى » بمعنى مع، فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه . وقيل : «فِي أُمَمٍ» فى جملة أمم، ومثله قول الشاعر[1] :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ * فُوكًا فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

يريد فأنت فى جملة آخرين لست فى ذلك بأوحد . ومحل «فِي أُمَمٍ» النصب على الحال من الضمير فى « عَلَيْهِمْ » أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أعمالهم فى الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

(١) هو عمرو بن أذينة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هـود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا القـرآن فقالوا « لَا تَسْمَعُوا » . وقيـل : معنى « لَا تَسْمَعُوا » لا تطيعوا ؛ يقال سمعت لك أى أطعتك . « وَالْغَوْا فِيهِ » قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول . وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن . وقال مجاهد : المعنى « وَالْغَوْا فِيهِ » بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصـير لغوا . وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول . وقال أبو العالية وابن عباس أيضا : قعوا فيه وعيبوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب . وقرأ عيسى بن عمر والجحدرى وابن أبى إسحق وأبو حيوة و بكر بن حبيب السهمى « وَالْغُوا » بضـم الغين وهى لغـة من لغا يلغو . وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى . قال الهروى : وقوله « وَالْغَـوْا فِيهِ » قيـل : عارضوه بكلام لا يفهم . يقـال : لغوت ألغو وألْغَى ولغِي يلْغَى ثلاث لغات . وقـد مضى معنى اللغـو فى « البقرة »[1] وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قد تقـدم أن الذوق يكون محسوسا ، ومعنى العذاب الشديد ما يتوالى فلا ينقطع . وقيل : هو العذاب فى جميع أجزائهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء قبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وأسوأ الأعمال الشرك .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ أى ذلك العذاب الشديد ثم بينه بقـوله « النَّارُ » . وقرأ ابن عباس « ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ » فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية . و « ذَٰلِكَ » ابتداء و « جَزَاءُ » الخبر و « النَّارُ » بدل من « جَزَاءُ » أو خبر مبتدإ مضمر والجملة فى موضع بيان للجملة الأولى .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٩٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى فى النار فذكره بلفظ الماضى والمراد المستقبل ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ يعنى إبليس وٱبن آدم الذى قتل أخاه . عن ٱبن عباس وٱبن مسعود وغيرهما ؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : " ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على ٱبن آدم الأوّل كفل من ذنبه لأنه أوّل من سنّ القتل " خرجه الترمذى . وقيل : هو بمعنى الجنس وبنى على التثنية لٱختلاف الجنسين . ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم «لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» فى النار وهو الدرك الأسفل . سألوا أن يُضعِّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس . وقرأ ٱبن محيصن والسوسى عن أبى عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل « أرْنا » بإسكان الراء وعن أبى عمرو أيضا بٱختلاسها . وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدم فى «الأعراف»[1] .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ قال عطاء عن ٱبن عباس : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله فٱستقام . وفى الترمذى عن أنس ٱبن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » قال : " قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن ٱستقام " قال : حديث غريب . ويروى فى هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ معنى « ٱسْتَقَامُوا » ؛ ففى صحيح مسلم

(١) هكذا فى نسخ الأصل وصوابه فى البقرة فى جـ ٢ ص ١٢٣ طبعة ثانية .

عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسـلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — وفى رواية — غيرك . قال : " قـل آمنت بالله ثم آسـتقم " زاد الترمذى قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ . فأخذ بلسان نفسه وقال : " هذا " . وروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : « ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » لم يشركوا بالله شيئا . وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : ما تقولون فى هاتين الآيتين « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » و « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » فقالوا : آستقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل « قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » فلم يلتفتوا إلى إله غيره « وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ » بشرك « أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » . وروى عن عمـر رضى الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا » فقال : آستقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب . وقال عثمان رضى الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله . وقال علىّ رضى الله عنه : ثم أدوا الفرائض . وأقوال التابعين بمعناها . قال آبن زيد وقتادة : آستقاموا على الطاعة لله . الحسن : آستقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته وآجتنبوا معصيته . وقال مجاهد وعكرمة : آستقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا . وقال سـفيان الثورى : عملوا على وِفاق ما قالوا . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل بن عياض : زهدوا فى الفانية ورغبوا فى الباقية . وقيل : آستقاموا إسرارا كما آستقاموا إقرارا . وقيل : آستقاموا فعـلا كما آستقاموا قولا . وقال أنس لمـا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هم أمتى ورب الكعبة " . وقال الإمام ابن فُورك : السين سين الطلب مثل آستسقى أى سـألوا من الله أن يثبتهم على الدين . وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فآرزقنا الآستقامة .

قلت : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها؛ آعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا وداموا على ذلك . ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال آبن زيد ومجاهـد : عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث . وقال آبن عباس : هى بشرى تكون لهم من

الملائكة فى الآخرة . وقال وكيع وابن زيد : البشرى فى ثلاثة مواطن عند الموت وفى القبر وعند البعث . ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أى بـ«ألا تخافوا» فحذف الجار . وقال مجاهد : لا تخافوا الموت ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم . وقال عكرمة : ولا تخافوا أمامكم ، ولا تحزنوا على ذنوبكم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » قال مجاهد : أى نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة . وقال السدى : أى نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا وأولياؤكم فى الآخرة . ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى ؛ والله ولى المؤمنين ومولاهم . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أى من الملاذ . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تسألون وتتمنون . ﴿ نُزُلًا ﴾ أى رزقا وضيافة . وقد تقدّم فى « آل عمران »[1] وهو منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلا . وقيل : على الحال . وقيل : هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين فيكون حالا من الضمير المرفوع فى « تَدَّعُونَ » أو من المجرور فى « لَكُمْ » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو فى القرآن . والمعنى أى كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته وهو محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن سيرين والسدى وابن زيد والحسن : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولىّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحبّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب اللهَ فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه . وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذّنين . قال فضيل بن رفيدة : كنت مؤذّنا لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لى عاصم بن هبيرة إذا أذّنت فقلت : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقل وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية؛ قال ابن العربى : والأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدنى؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا بأنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ » وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان .

قلت : وقول ثالث وهو أحسنها ؛ قال الحسن : هذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم قال : نزلت فى كل مؤمن . قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة . وقاله أبو أمامة ؛ قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلى وصام . وقال الكلبى : أدى الفرائض .

قلت : وهذا أحسنها مع اجتناب المحارم وكثرة المندوب . والله أعلم . ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال ابن العربى : وما تقدم يدل على الإسلام، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة ، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص ، دل على أنه لا بدّ من التصريح بالاعتقاد لله فى ذلك كله ، وأن العمل لوجهه .

مسئلة — لما قال الله تعالى : « وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ولم يقل له اشترط إن شاء الله، كان فى ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ قال الفراء : « لا » صلة أى « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ » والسيئة وأنشد :

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُمُ * والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمر ؛ أى لا يستوى ما أنت عليه من التوحيد وما المشركون عليه من الشرك . قال ٱبن عباس : الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . وقيل : الحسنة الطاعة والسيئة الشرك . وهو الأول بعينه . وقيل : الحسنة المداراة والسيئة الغلظة . وقيل : الحسنة العفو والسيئة الانتصار . وقال الضحاك : الحسنة العلم والسيئة الفحش . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الحسنة حبّ آل الرسول والسيئة بغضهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ نسخت بآية السيف وبقى المستحب من ذلك ؛ حسن العشرة والاحتمال والإغضاء . قال ٱبن عباس : أى ٱدفع بحلمك جهل من يجهل عليك . وعنه أيضا : هو الرجل يسبّ الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك . وكذلك يروى فى الأثر أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال ذلك لرجل نال منه . وقال مجاهد : « بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » يعنى السلام إذا لقى من يعاديه ؛ وقاله عطاء . وقول ثالث ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى الأحكام وهو المصافحة . وفى الأثر : " تَصافحوا يَذهبِ الغِلُّ " . ولم ير مالك المصافحة ، وقد ٱجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان : قد صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرا حين قدم من أرض الحبشة ؛ فقال له مالك : ذلك خاص . فقال له سفيان : ما خَصَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يخصّنا ، وما عَمَّه يعمّنا ، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها . وقد روى قتادة قال قلت لأنس : هل كانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وهو حديث صحيح . وفى الأثر : " من تمام المحبة الأخذ باليد " . ومن حديث محمد بن إسحق وهو إمام مقدّم ، عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه — والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده — فٱعتنقه وقبله .

قلت : قد روى عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء . وقد مضى ذلك فى «يوسف»(١) وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبهما بينهما".

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أى قريب صديق . قال مقاتل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فصار له وليا بعد أن كان عدوّا بالمصاهرة التى وقعت بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فصار وليا فى الإسلام حميا بالقرابة . وقيل : هذه الآية نزلت فى أبى جهل بن هشام ، كان يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ؛ ذكره الماوردى . والأول ذكره الثعلبى والقشيرى وهو أظهر؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » . وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوّهم . وروى أن رجلا شتم قَنْبرًا مولى علىّ ابن أبى طالب فناداه علىّ يا قَنْبَر ! دع شاتمك ، والْهَ عنه ترضى الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . وأنشدوا :

وللكفُّ عن شَتْمِ اللَّئيم تكرُّمًا * أضرُّ له مِن شَتْمِه حين يُشتَمُ

وقال آخر :

وما شىءٌ أحبُّ إلى سَفيهٍ * إذا سبَّ الكريمَ مِن الجوابِ

مُتاركَةُ السَّفيهِ بلا جوابٍ * أشدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ

وقال محمود الورّاق(٢) :

سألزِم نفسِى الصَّفحَ عن كلِّ مُذنِبٍ * وإن كثُرتْ منه لدَىّ الجرائمُ

فما الناسُ إلّا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ * شريفٌ ومَشروفٌ ومِثلٌ مقاوِمُ

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الأبيات التالية معزوة فى كتاب «أدب الدنيا والدين» ص ٢٥٢ طبع وزارة المعارف إلى الخليل بن أحمد .

فأمّا الذى فوقى فأَعْرِفُ قَدْرَه * وأَتْبَعُ فيه الحَقَّ والحَقُّ لازِمُ
وأمّا الذى دونى فإنْ قال صُنْتُ عن * إجابَتِه عِرْضى وإن لَامَ لائِمُ
وأمّا الذى مِثْلِى فإنْ زَلَّ أو هَفَا * تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْمِ حاكِمُ

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعنى هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الخير ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة . وقيل : الكناية فى « يُلَقَّاهَا » عن الجنة أى ما يلقاها إلا الصابرون ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ تقدّم فى آخر «الأعراف»[1] مستوفى. ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ﴾ من كيده وشره ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وقد مضى فى غير موضع[2] . ثم نهى عن السجود لهما ؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما فى أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله ؛ لأن خالقهما هو الله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما . ﴿ وَٱسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ وصوّرهنّ وسخرهنّ ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار . وقيل : للشمس والقمر خاصة ؛ لأن الاثنين جمع . وقيل : الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل . ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ يعنى الكفار عن السجود لله ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أى لا يملون عبادته . قال زهير :

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ * ثمانينَ حَوْلًا لا أبالَكَ يَسْأَمِ

مسئلة — هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ؛ وٱختلفوا فى موضع السجود منها . فقال مالك : موضعه « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » ؛ لأنه متصل بالأمر . وكان علىّ وٱبن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله « تَعْبُدُونَ » . وقال ٱبن وهب والشافعى : موضعه « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والٱمتثال . وبه قال أبو حنيفة . وكان ٱبن عباس يسجد عند قوله « يَسْأَمُونَ » . وقال ٱبن عمر : ٱسجدوا بالآخرة منهما . وكذلك يروى عن مسروق وأبى عبد الرحمن السُّلمى وإبراهيم النَّخَعى وأبى صالح ويحيى بن وثّاب ، وطلحة وزبيد اليامِيّين[1] والحسن وٱبن سيرين . وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . قال ٱبن العربى : والأمر قريب .

مسئلة — ذكر ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : إن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ؛ وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ، فصلى النبىّ صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف .

قلت : صلاة الكسوف ثابتة فى الصحاح البخارى ومسلم وغيرهما . وٱختلفوا فى كيفيتها ٱختلافا كثيرا ؛ لٱختلاف الآثار ، وحسبك ما فى صحيح مسلم من ذلك ، وهو العمدة فى الباب . والله الموفق للصواب .

(١) هذه النسبة إلى يامة بطن من همدان .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخطاب لكل عاقل أى «ومن آياته» الدالة على أنه يحيي الموتى «أنك ترى الأرض خاشعة» أى يابسة جدبة؛ هذا وصف الأرض بالخشوع؛ قال النابغة :

رمادٌ ككحلِ العينِ لأياً أُبينُه * ونُؤْيٌ كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمُ خاشعُ [1]

والأرض الخاشعة الغبراء التى تنبت . وبلدة خاشعة . أى مغبرة لا منزل بها . ومكان خاشع . ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى بالنبات؛ قاله مجاهد . يقال : اهتز الإنسان أى تحرك؛ ومنه :

تراه كَنَصْلِ السَّيفِ يهتزُّ للنَّدى * إذا لم تجِدْ عند امرئ السَّوْءِ مَطْمَعا

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى انتفخت وعلت قبل أن تنبت؛ قاله مجاهد . أى تصعدت عن النبات بعد موتها . وعلى هذا التقدير يكون فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت واهتزت . والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربوها ارتفاعها . ويقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد فى جسمه بالكبر طولا وعرضا . وقرأ أبو جعفر وخالد «وَرَبَأَتْ» ومعناه عظمت من الربيئة . وقيل «اهْتَزَّتْ» أى استبشرت بالمطر «وَرَبَتْ» أى انتفخت بالنبات . والأرض إذا انشقت بالنبات وصفت بالضحك ، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضا . ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد؛ وهى حالة خروج النبات . وقد مضى هذا المعنى فى «الحج» [2] ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدم فى غير موضع [3] .

---

(١) شبه الرماد بكحل العين لسواده؛ فانه يسود متى تقادم عهده وإصابته الأمطار. والنؤى حفير حول الخيمة . والجذم الأصل . وأثلم مهدوم . وخاشع تداعت آثاره واستوى بالأرض . يريد أن ذلك الرماد تغير ولم أتبينه إلا بعد لأى؛ أى بعد جهد ومشقة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أى يميلون عن الحق فى أدلتنا والإلحاد الميل والعدول . ومنه اللحد فى القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه . يقال ألحد فى دين الله أى حاد عنه وعدل . ولحد لغة فيه . وهذا يرجع إلى الذين قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » وهم الذين ألحدوا فى آياته ومالوا عن الحق فقالوا : ليس القرآن من عند الله أو هو شعر أو سحر ؛ فالآيات آيات القرآن . قال مجاهد : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء . وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه فى غير موضعه . وقال قتادة : « يلحدون فِي آياتنا » يكذبون فى آياتنا . وقال السدى : يعاندون ويشاقون . وقال ابن زيد : يشركون ويكذبون . والمعنى متقارب . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل . وقيل : الآيات المعجزات وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز . ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ على وجهه وهو أبو جهل فى قول ابن عباس وغيره . ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : النبى صلى الله عليه وسلم؛ قاله مقاتل . وقيل : عثمان . وقيل : عمار ابن ياسر : وقيل : حمزة . وقيل : عمر بن الخطاب . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وقيل : المؤمنون . وقيل : إنها على العموم؛ فالذى يلقى فى النار الكافر، والذى يأتى آمنا يوم القيامة المؤمن . قاله ابن بحر . ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر تهديد أى بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء . ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بتهديد وتوعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ الذكر ها هنا القرآن فى قول الجميع ؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام . والخبر محذوف [تقديره](١) هالكون أو معذبون . وقيل : الخبر « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وٱعترض قوله « مَا يُقَالُ لَكَ » ثم رجع إلى الذكر فقال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » ثم قال : « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ » والأول الاختيار ؛ قال النحاس : عند النحويين جميعا فيما علمت . ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى عزيز على الله ؛ قاله ابن عباس ؛ وعنه : عزيز من عند الله . وقيل : كريم على الله . وقيل : « عَزِيزٌ » أى أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل . وقيل : ينبغى أن يعز ويُجَلّ وألا يلغى فيه . وقيل : « عَزِيزٌ » من الشيطان أن يبدله ؛ قاله السدى . مقاتل : منع من الشيطان والباطل . السدى : غير مخلوق فلا مثل له . وقال ٱبن عباس أيضا : « عَزِيزٌ » أى ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله . ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى لا يكذبه شىء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه ؛ قاله الكلبى . وقال السدى وقتادة : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » يعنى الشيطان ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص . وقال سعيد بن جبير : لا يأتيه التكذيب « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » . ٱبن جريج : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون . وعن ٱبن عباس : « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » من الله تعالى « وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » يريد من جبريل صلى الله عليه وسلم ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ٱبن عباس : « حَكِيمٍ » فى خلقه « حَمِيدٍ » إليهم . قتادة : « حَكِيمٍ » فى أمره « حَمِيدٍ » إلى خلقه .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ أى من الأذى والتكذيب ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويسليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لك ولأصحابك ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يريد لأعدائك وجيعا . وقيل : أى ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك ، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد ؛ وهو كقوله : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » أى لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك . وقيل : هو آستفهام أى أىّ شىء يقال لك « إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقيل : « إِنَّ رَبَّكَ » كلام مبتدإ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا . وقيل : هو متصل بـ « مَا يُقَالُ لَكَ » . « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى إنما أمرت بالإنذار والتبشير .

قوله تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » أى بلغة غير العرب « لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية . فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا . وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله . ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان .

الثانيــة — وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربى، وأنه نزل بلغة العرب ، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا .

الثالثــة — قوله تعالى : « أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى « أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » بهمزتين مخففتين ، والعجمىّ الذى ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح . والأعجمى الذى لا يفصح كان من العرب أو من العجم . فالأعجم ضد الفصيح وهو الذى لا يبين كلامه . ويقال للحيوان غير الناطق أعجم، ومنه "صلاة النهار عجماء" أى لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد، لأن الرجل العجمى الذى ليس من العرب قد يكون

فصيحا بالعربية، والعربى قد يكون غير فصيح فالنسبة إلى الأعجمى آكد فى البيان. والمعنى أقرآن أعجمى ونبى عربى؟ وهو آستفهام إنكار. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن آبن عامر «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر. والمعنى «لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ». فكان منها عربى يفهمه العرب وأعجمى يفهمه العجم. وروى سعيد بن جبير قال قالت قريش: لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا وبعض آياته عربيا فنزلت الآية. وأنزل فى القرآن من كل لغة فمنه «السجِّيل» وهى فارسية وأصلها سنك كيل أى طين وحجر، ومنه «الفردوس» رومية وكذلك «القِسطاس». وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وآبن ذكوان وحفص على الآستفهام إلا أنهم لينوا الهمزة على أصولهم. والقراءة الصحيحة قراءة الآستفهام. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أى صمم عن سماع القرآن، ولهذا تواصوا باللغو فيه. ونظير هذه الآية «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» (١) وقد مضى مستوفى. وقراءة العامة ﴿عَمًى﴾ على المصدر. وقرأ آبن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قتة «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ» بكسر الميم أى لا يتبين لهم. وآختار أبو عبيدة القراءة الأولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أولا: «هُدًى وَشِفَاءٌ» ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر فى «عَمًى» أجود؛ ليكون نعتا مثلهما؛ تقديره: «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» فى ترك قبوله بمنزلة من فى آذانهم «وَقْرٌ وَهُوَ» يعنى القرآن «عَلَيْهِمْ» ذو عمى؛ لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى والوقر عليهم عمى. ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذى لا يفهم: أنت تنادى من بعيد. أى كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

ولا يفهمه . وقال الضحاك : « يُنَادَوْنَ » يوم القيامة بأقبح أسمائهم « مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » فيكون ذلك أشد لتو بيخهم وفضيحتهم . وقيل : أى من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادى عنه وهو لم يسمع . وقال على رضى الله عنه ومجاهد : أى بعيد من قلوبهم . وفى التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . وحكى معناه النقاش .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى آمن به قوم وكذب به قوم . والكناية ترجع إلى الكتاب ، وهو تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم، أى لا يحزنك آختلاف قومك فى كتابك، فقد آختلف من قبلهم فى كتابهم . وقيل : الكناية ترجع إلى موسى . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فى إمهالهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بتعجيل العذاب . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى شديد الريبة . وقد تقدم[1] . وقال الكلبى فى هذه الآية : لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم . وقيل : تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد ، فمن أطاع فالثواب له ، ومن أساء فالعقاب عليه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا آنتفت المبالغة آنتفى غيرها ، دليله قوله الحق : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » وروى العدول الثقات ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

والأئمة الأثبات ، عن الزاهد العدل ، عن أمين الأرض ، عن أمين السماء ، عن الرب جلّ جلاله : « يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . وأيضا فهو الحكيم المالك ، وما يفعله المالك فى ملكه لا آعتراض عليه ؛ إذ له التصرف فى ملكه بما يريد .

قوله تعالى : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى حين وقتها . وذلك أنهم قالوا : يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى قيام الساعة فنزلت : ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ « من » زائدة أى وما تخرج ثمرة . ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أى من أوعيتها ، فالأكمام أوعية الثمرة ، واحدها كُمَّة وهى كل ظرف لمال أو غيره ؛ ولذلك سمى قشر الطَّلْع أعنى كُفُرّاه الذى ينشق عن الثمرة كُمّة ؛ قال آبن عباس : الكُمّة الكُفُرّى قبل أن تنشق ، فإذا آنشقّت فليست بكمّة . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الرحمن »[1] . وقرأ نافع وآبن عامر وحفص « مِن ثَمَرَاتٍ » على الجمع . الباقون « ثَمَرَةٍ » على التوحيد والمراد الجمع ، لقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ والمراد الجمع ، يقول : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » كما يرد إليه علم الثمار والنتاج . ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أى ينادى الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين زعمتم فى الدنيا أنها آلهة تشفع . ﴿قَالُوا﴾ يعنى الأصنام . وقيل : المشركون . ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ﴿آذَنَّاكَ﴾ أسمعناك وأعلمناك . يقال آذن يؤذن إذا أعلم قال[2] :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

(١) فى تفسير قوله تعالى : « والنخل ذات الأكمام » آية ١١ .

(٢) هو الحرث بن حلزة ؛ والبيت مطلع معلقته .

﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أى نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا . لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدم فى غير موضع[1] . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فى الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ أى أيقنوا وعلموا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أى فرار عن النار . و « ما » هنا حرف وليس بآسم ؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب . يقال: حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب . وقيل : إن الظن هنا الذى هو أغلب الرأى . لا يشكون فى أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها . وليس يبعد أن يكون لهم ظن و رجاء إلى أن يؤيسوا .

قوله تعالى : لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أى لا يمل من دعائه بالخير . والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان ها هنا يراد به الكافر . وقيل : الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأمية بن خلف . وفى قراءة عبد الله «لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ» . ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَئُوسٌ﴾ من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته . وقيل : « يَئُوسٌ » من إجابة الدعاء « قَنُوطٌ » بسوء الظن بربه . وقيل : « يَئُوسٌ » أى يئس من زوال ما به من المكروه « قَنُوطٌ » أى يظن أنه يدوم ؛ والمعنى متقارب .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ عافية ورخاء وغنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر . ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي ﴾ أى هذا شىء أستحقه على الله لرضاه بعملى ؛ فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى ، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ؛ ليتبين شكره وصبره . وقال ابن عباس : « هَـٰذَا لِي » أى هذا من عندى . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أى الجنة واللام للتأكيد . يتمنى الأمانى بلا عمل . قال الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب : للكافر أمنيتان أما فى الدنيا فيقول: « لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » وأما فى الآخرة فيقول : « يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » و « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى لنجزينهم . قسم أقسم الله عليه . ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ يريد الكافر ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ . وقال ابن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه . ومعنى « نَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى ترفع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله . وقيل « نَأَى » تباعد . يقال : نأيته ونأيت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه وأنأيته فانتأى أبعدته فبعد، وتناءوا تباعدوا والمنتأى الموضع البعيد ؛ قال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ✱ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ يزيد بن القعقاع و « نَاءَ بِجَانِبِهِ » بالألف قبل الهمزة . فيجوز أن يكون من « نَاءَ » إذا نهض . ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى أصابه المكروه ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة . يقال : أطال فلان فى الكلام وأعرض فى الدعاء إذا أكثر . وقال ابن عباس : « فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فذو تضرع واستغاثة . والكافر يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد « أَرَأَيْتُمْ » يا معشر المشركين ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أى فأى الناس أضل أى لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم . وقيل : قوله « إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » يرجع إلى الكتاب المذكور فى قوله : « آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » والأول أظهر وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ﴾ أى علامات وحدانيتنا وقدرتنا « فِى الآفَاقِ » يعنى خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وَفِى أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالبلايا والأمراض . وقال ابن زيد : « فِى الآفَاقِ » آيات السماء « وَفِى أَنْفُسِهِمْ » حوادث الأرض . وقال مجاهد : « فِى الآفَاقِ » فتح القرى ؛ فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه فى آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما ، وفى ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات « وَفِى أَنْفُسِهِمْ » فتح مكة . وهذا اختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى . وقال قتادة والضحاك : « فِى الآفَاقِ » وقائع الله فى الأمم « وَفِى أَنْفُسِهِمْ » يوم بدر . وقال عطاء وابن زيد أيضا « فِى الآفَاقِ » يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات

والأشجار والجبال والبحار وغيرها . وفي الصحاح : الآفاق النواحي ، واحدها أُفْقٌ وأُفُقٌ مثل عُسْر وعُسُر ، ورجل أَفَقِيٌّ بفتح الهمزة والفاء إذا كان من آفاق الأرض . حكاه أبو نصر . وبعضهم يقول : أُفُقِيٌّ بضمهما وهو القياس . وأنشد غير الجوهري :

أخذنا بآفاقِ السماءِ عليكمُ * لنا قمراها والنجومُ الطوالعُ

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة . وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . وقيل : « فِي أَنْفُسِهِمْ » من كونهم نطفا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم في «المؤمنون»[1] بيانه . وقيل : المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن وأخبار الغيوب ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن . والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه . والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق . والرابع أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق . ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل بـ « يَكْفِ » و﴿أَنَّهُ﴾ بدل من « رَبِّكَ » فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع ، وجر إن قدرته بدلا على اللفظ . ويجوز أن يكون نصبا بتقدير حذف اللام ، والمعنى أو لم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وإذا شهده جازى عليه . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » في معاقبته الكفار . وقيل . المعنى «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » شاهدا على أن القرآن من عند الله . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما يفعله العبد « شَهِيدٌ » والشهيد بمعنى العالم ، أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ في شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ في الآخرة . وقال السدي : أي من البعث . ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

قاله السدى . وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء . وقال الخطابي : هو الذى أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذى أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا . وهذا الاسم أكثر ما يجيء فى معرض الوعيد، وحقيقته الإحاطة بكل شيء، وآستئصال المحاط به، وأصله مُحْيِطٌ نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحيطة ومن ذلك حائط الدار، يحوطها أهلها، وأحاطت الخيل بفلان إذا أُخِذ مأخذا حاصرا من كل جهة؛ ومنه قوله تعالى : « وأُحِيط بِثَمَرِه » والله أعلم بصواب ذلك .

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي

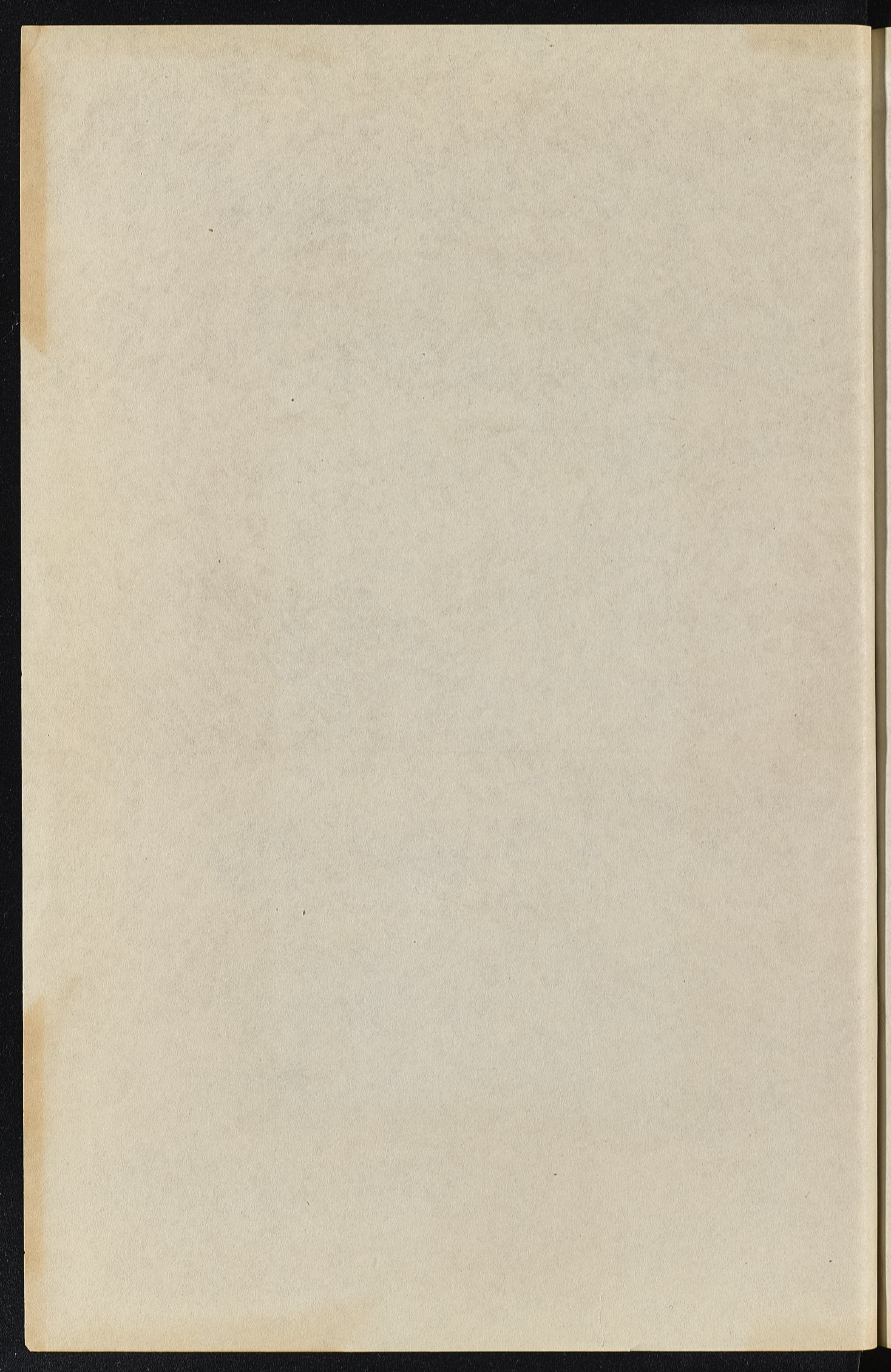
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس عشر، وأوله :

"سورة الشورى"

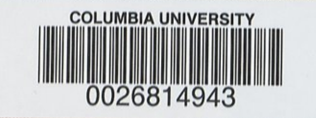
كَمُلَ طبع الجزء الخامس عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الجمعة ٧ رجب سنة ١٣٦٥ (٧ يونيه سنة ١٩٤٦) م

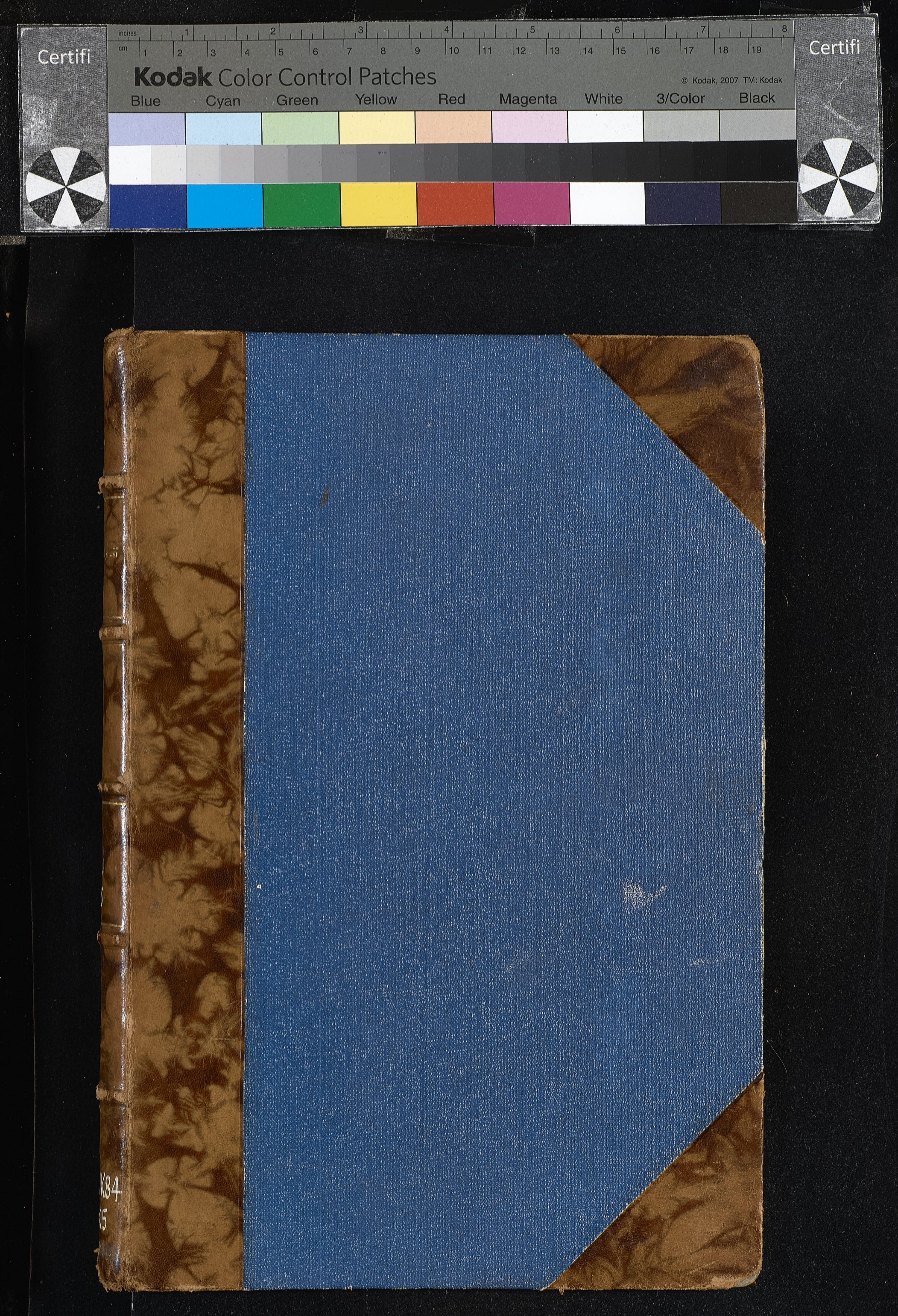
محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤/٢١/٣٠٠٠)






COLUMBIA UNIVERSITY
0026814943


inches
cm
Kodak Color Control Patches
© Kodak, 2007 TM: Kodak
Blue
Cyan
Green
Yellow
Red
Magenta
White
3/Color
Black
Certifi
Certifi